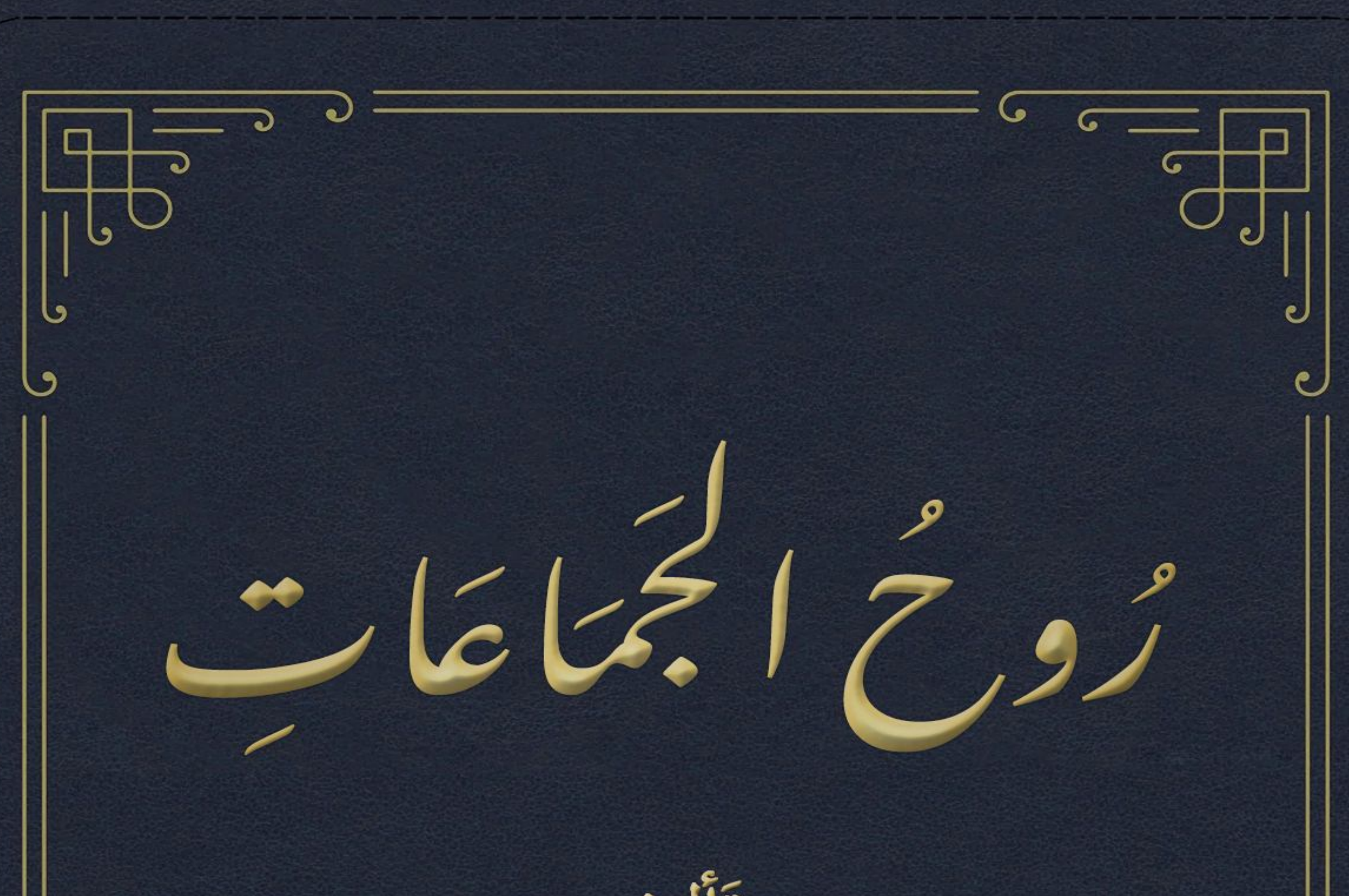


رُوحُ الجَمَاعَاتِ

تأليف

الدكتور غُوسْتَاف لُوبُون

نقلهُ إلى العَرَبيَّة

عَادل زُعَيْتر

دار المعارف بمصر

١٩٥٠

إهداء الكتاب

إلى

تِيُودُول رِيُبو

مديرِ المجلة الفلسفية

وأستاذِ علم النفس في كلية فرنسا (كُولِيج دُوفْرانْس)

والعضوِ في المجمع العلميِّ

مع الاحترام الودِّيِّ

غوستاف لو بون

مقدمة المترجم

يسيح الفيلسوف الاجتماعيُّ غوستاف لو بون في الأرض كثيرًا فيَضَع في سنة 1884 كتابَه الخالد «حضارةَ العرب»، ويضع في سنة 1887 كتابَه الخالد «حضاراتِ الهند»، وفي سنة 1889 يُعَززهما بثالث، يُعززهما بكتاب «الحضارات الأولى»، ونترجم السِّفريْن الأَوَّليْن اللذين هما أهمُّ من السِّفر الثالث، ومن السِّفر الثالث هذا ننقُل إلى العربية الجزءَ الخاصَّ باليهود، وهو أطرف أجزائه.

وفي تأليف تلك الكتب يَعْتمد لو بون على ما لاحَظَ وتَرَصَّد في رِحْلاته، ومن تلك الكتب، على الخصوص، يستنبط ما بَدَا له من سُنَن الاجتماع فيَضَع في سنة 1894 كتابَ «السُّنَن النفسية لتطور الأمم»، ويَضَع في سنة 1895 كتابَ «روح الجماعات»، وفي كلا الكتابين يَتَحرر لو بون من جميع المذاهب الاجتماعية فينتهي إلى نتائجَ مخالفةٍ لِما أَلِفَه العلماءُ من المبادئِ والآراء فيُعدّ، بحقٍّ، مُجدِّدًا في علم النفس وعلم الاجتماع، إمامًا مُوجِّهًا فيهما.

ولا مِرَاءَ في عبقرية لو بون، وهو قد عالج جميع الموضوعات التي تناولها بالبحث في كتبه ببراعة ودقة، فوصل إلى حقائق رائعةٍ، ولو بونُ قد امتاز في ذلك بمعرفته للإنسان وتعبيره عما يوحِي به العقلُ والذوق السليم من المناحي، ولو بونُ قد ظهر في كلِّ ما كتب مبتكرًا حُرَّ الفكر مستقلًّا لَبقًا إلى الغاية، ولذلك كان من الصواب أن قيل: «لا جِدالَ في أن لو بونَ أعظمُ عالم نفسيّ فرنسيّ في الزمن الحاضر، بما تَذَرع به من صبر وما اتَّفَق له من بصيرةٍ نَفَذَ بها روح العصر».

وفي كتاب «روح الجماعات» يقول لو بون: «تتألف روحُ أحد الشعوب من مجموع الأخلاق العامة التي فَرَضَتها الوراثة على جميع أفراده، ولكن المشاهدة تُثْبت أن أناسًا إذا ما انضموا إلى أناس فتألف منهم جمعٌ نشأت عن تدانيهم أخلاقٌ جديدة تتنضّد على أخلاق الشعب وتختلف عنها اختلافًا كبيرًا في بعض الأحيان».

ومن ثَمَّ ترى أن لو بون يَجِدُ روحًا للشعوب ويجدُ روحًا للجماعات، ولو بونُ قد وضع لكلٍّ منهما كتابًا مستقلًّا فجعل عنوان الأول: «السُّنن النفسية لتطور الأمم» وجعل عنوانَ الثاني: «روح الجماعات».

ويرى لو بون أن العصر الحاضر هو عصر الجماعات فيبحث في كتاب «روح الجماعات» في خصائص الجماعات، وفي وَحدتها النفسية، وفي مشاعرها وأخلاقها وأفكارها وتَعقلاتها وخيالها وآرائها ومعتقداتها وزعمائها وما يتخذه هؤلاء الزعماء من طُرق في الإقناع.

وكتابُ «روح الجماعات» لما له من خطورة عظيمة اتَّفق له من الأثر البالغ في أقطاب السياسة ما قال معه عظيمٌ([1]) منهم مخاطبًا الفرنسيين: «لديكم في الحقل الفلسفيِّ والعلميِّ رجالٌ تُفاخِر البشرية بهم كثيرًا كغوستاف لو بون الّذي قرأتُ جميع كتبه، ومما لا يُحصى عددُ المرات التي طالعتُ فيها كتابه «روح الجماعات» فكنتُ أرجِع إليه في الغالب».

وأرْوعُ كتب لو بون الاجتماعية هو ما وضعه قبل الحرب العالمية الأولى، وما وضعه لو بون بعد تلك الحرب فقد اعتمد فيه على مؤلفاته السابقة مكرِّرًا ما جاء فيها من المبادئ والنظريات، وقد نقلنا إلى العربية مُعْظم تلك المؤلفات، ولا سيما «حضارةُ العرب، وحضارات الهند، واليهود في تاريخ الحضارات الأولى، وروح التربية، وحياة الحقائق...» فرأينا أن نُتمَّ عملنا فنترجم كتاب «السُّنن النفسية لتطور الأمم» وكتاب «روح الجماعات» أيضًا، وهذا ما قُمْنا به فعلًا، فبذلك نكون قد أدخلنا إلى المكتبة العربية أمَّهاتِ كتب لو بون التاريخية والاجتماعية والنفسية.

وكان لو بون قد وَضَع كتاب «الإنسان والمجتمعات وتاريخهما وأصولهما» في مجلديْن قبل سياحاته العظيمة، وقبلَ تأليفه كتابَ «حضارة العرب» وغيره من كتب الحضارات، فاستند في كتب الحضاراتِ هذه إلى بعض القواعد المُقرَّرة في ذلك الكتاب، وقد كنا راغبين في ترجمة ذلك الكتاب، أيضًا، لو لم نَرَ أن لو بون غيَّر كثيرًا من آرائه وأفكاره فيه بعد رِحلاته تلك وعند تأليفه للكتب التي نقلناها، وفي هذه الكتب المترجمة، ومنها كتاب «السُّنن النفسية لتطور الأمم» على الخصوص، تَجِد عرْضًا وتلخيصًا لِما في كتاب «الإنسان والمجتمعات» ذلك من مبادئَ معدَّلة، فلا اضطرار إلى ترجَمته إذن.

وفي سنة 1909 يترجم المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا كتاب «روح الجماعات» هذا بعُنوان «روح الاجتماع»، والموضوعاتُ الاجتماعية كانت في ذلك الحين، كما هي الآن، غير مطروقة كثيرًا، ونقابل بين الأصل الفرنسيِّ وتلك الترجمة فنَجِد أن زغلول باشا، وإن بَذَل جهدًا مشكورًا في المحافظة على المعاني، لم تَخْلُ ترجمته تلك من التَّجوز والعُجْمة والغموض، فلذلك، ولنَفَاد ما طبعه زغلول باشا من نُسخ ترجمته ولِما وَجدتُ من ضرورة ترجمة كتاب «روح الجماعات» ترجمةً تتساوق هي وما ترجمتُه من كتب لو بون في السنوات الأخيرة على الخصوص معتمدًا على النصِّ الفرنسيِّ الأخير الّذي توفِّي لو بون مُعوِّلًا عليه، نقلتُ هذا الكتاب النفيس على الوجه الّذي أعْرضُه به على القراء، واللّه الموفِّق.

«نابلس»

عادل زعيتر

ديباجة المؤلف

كان كتابنا السابق وَقفًا على وصف روح الشعوب، والآن ندرس روح الجماعات.

تتألف روح أحد الشعوب من مجموع الأخلاق العامة التي فرضتها الوراثة على جميع أفراده، ولكن المشاهدة تُثبِت أن أناسًا إذا ما انضموا إلى أناس فتألَّف منهم جَمعٌ نشأت عن تدانيهم أخلاقٌ جديدة تتنضّد على أخلاق الشعب وتختلف عنها اختلافًا كبيرًا في بعض الأحيان.

والجماعاتُ مثَّلت في حياة الأمم دورًا عظيمًا على الدوام، غير أنّه لم يتَّفِق لها من التأثير ما اتَّفق لها في هذه الأيام، وعملُ الجماعات اللاشعوريُّ، وهو يقوم مقام نشاط الأفراد الشعوريِّ، يبدو من مُميِّزات الجيل الحاضر الرئيسة.

وقد حاولتُ أن أعالج معضلة الجماعات بطرق علمية صِرْفة، أي بمنهاج مستقلّ عما هو دارج من الآراء والنظريات والمذاهب، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي يُوصَل بها، على ما أعتقد، إلى اكتشاف شُذُور من الحقيقة، ولا سيما عند تناول المسائل التي تستهوي النفوس، وليس على العالِم، وهو يهدِف إلى تحقيق إحدى الحادثات، أن يباليَ بالمصالح التي يمكن مشاهداتِه أن تَصدِمها، ومما لاحظه المفكر المفضال، مسيو غُوبْلِه دالْفِيالا، وذلك في رسالة حديثة، أنني أخالف أحيانًا ما انتهت إليه جميع المذاهب من النتائج لعدم انتسابي إلى أيِّ واحد منها، فأرجو أن يستحقَّ هذا الكتاب الجديد مثلَ تلك الملاحظة، فانتحالُ أحد المذاهب يعني اعتناقَ أوهام هذا المذهب وأحكامِه.

ومن الواجب أن أُوضِح للقارئ، فيما أُوضِحه، عِلَّةَ اختلاف نتائج مباحثي عن النتائج التي تؤدي إليها هذه المباحث أَولَ وهلة، وذلك كتحقيقي، مثلًا، الانحطاطَ النفسيَّ العظيم في الجماعات، ومن الجماعات مجالسُ الخواصِّ، ثمّ تصريحي أن من الخطر مَسَّ نظام الجماعات مع وجود ذلك الانحطاط.

يدلُّ إنعام النظر في الحوادث التاريخية على أننا نَعجِز عن تحويل النُّظم الاجتماعية تحويلًا عميقًا لِما هي عليه من التعقيد الشديد، أجلْ، تبدو الطبيعةُ جذْرِيَّةً أحيانًا، ولكن لا كما نودُّ أبدًا، ولا يكون هَوَسُ الإصلاحاتِ الكبيرة إلّا من أشأم ما تُعَرَّض له أمَّةٌ مهما ظهرت هذه الإصلاحاتُ القوية طيبةً من الناحية النظرية، وهذه الإصلاحاتُ لا تكون نافعة إلّا حين يغْدو من الممكن تغيير روح الأمم، والحقُّ أن للزمن وحدَه مثلَ هذا السلطان، وما نشتمل عليه من الأفكار والمشاعر والطبائع هو المُحرِّكُ الحقيقيُّ لنا، والنُّظم والقوانين هي مظهر روحنا وعُنوان احتياجاتنا، والنُّظم والقوانين إذ تَصْدُر عن النفس لا تَقْدِر على تغيير النفس.

ولا يمكن فصلُ دراسة الحوادث الاجتماعية عن دراسة الأمم التي تقع فيها هذه الحوادث، وهذه الحوادثُ، وإن أمكن أن تكون ذاتَ قيمة مطلقة فلسفيًّا، ليست غيرَ ذات قيمة نسبية عمليًّا.

إذن، يجب أن يُنظر إلى الحادثة الاجتماعية الواحدة بالتتابع من ناحيتين مختلفتين، وهنالك تبدو معارف العقل الخالص مناقضةً لمعارف العقل العملي في الغالب، ولا تجدُ من المُعطيات، حتى الفيزياوية، ما يَعْسُر تطبيق هذا التفريق عليه، ومن ذلك أن المكعَّب والدائرة من حيث الحقيقةُ المطلقة رسمان ثابتان دقيقا التعريف ببعض الصِّيغ، وأن هذين الرسمين من حيث باصرتُنا قد يكتسبان أشكالًا مختلفة، ففنُّ التصوير يُحوِّل المكعَّبَ تحويلًا مؤثرًا إلى هَرَم أو إلى مربَّع، وهو يُحوِّل الدائرة إلى إهْلِيلَج أو إلى خط مستقيم، وتكون هذه الأشكال المخْتَلَقة أكثرَ أهميةً بمراحلَ من الأشكال الحقيقية لسهولة الشعور بها وحدَها، ويكون غيرُ الحقيقيِّ أصدقَ من الحقيقيّ في بعض الأحوال، ولا يؤدي تصوير الأشياء بأشكالها الهندسية تصويرًا دقيقًا إلى غير تشويه الطبيعة وتنكيرها، ولو افترضنا وجودَ عالَم لا يقدر سكانه على غير استنساخ الأشياء أو التقاط صُورَها الفوتوغرافية من غير أن يستطيعوا مَسَّها لوجدنا أنه يَعسُر عليهم إدراك شكلها الحقيقيِّ إدراكًا صحيحًا، وإذ لا تكون معرفةُ هذا الشكل سائغة سوى لعدد قليل من العلماء فإنها تكون ذاتَ نفع ضئيل جدًّا.

وعلى الفيلسوف، حين يصِف الحوادث الاجتماعية، أن يَذكر قيمتها العملية بجانب قيمتها النظرية، فالقيمةُ العملية وحدَها هي التي تكون على شيء من الأهمية في تطور الحضارات، وتحقيقٌ مثلُ هذا مما يجعل الفيلسوف حذِرًا إلى الغاية في النتائج التي يَلوح أن المنطق العقليَّ يفرضها عليه في بدء الأمر.

وهنالك أسبابٌ أخرى تُمْلِي عليه ذلك الحذر، فالحوادثُ الاجتماعية هي من التَّعقد ما يتعذر معه الاشتمال عليها كلِّها والبصرُ بنتائج تفاعلها، ومما يلوح أيضًا أنه يستتر خلف الحوادث الظاهرة ألوفُ العلل الخفية في بعض الأحيان، ويظهر أن الحوادث الاجتماعية الظاهرة هي وليدةُ عمل لاشعوريّ واسع لا يَدخل ضِمنَ نطاق تحليلنا في الغالب، ويمكن تشبيه الحوادث المُدْرَكة بالأمواج التي تأتي لتُعَبِّر فوق سطح البحر المحيط عما ينطوي عليه من الاضطرابات العميقة، والجماعاتُ، إذا ما نُظِر إليها من خلال عموميّة أعمالها، دلَّت على مزاج نفسيّ منحطّ انحطاطًا يقضي بالعَجَب، غير أن للجماعات أعمالًا أخرى تَنِمُّ على أنها مُسيَّرة بما نجهل كُنْهَه، ولا نَقْدِر على إنكاره، من القُوى الحافلة بالأسرار التي يسميها القدماء بالقَدَر والطبيعة والقدرة الصمدانية، ويبدو، أحيانًا، وجودُ قوًى خفيَّةٍ في صدر الأمم تُوجِّه عزائمَها، وأيُّ شيء، مثلًا، أشدُّ تعقُّدًا وأكثر منطقًا وأدعى إلى العَجَب من اللغة؟ ومع ذلك

من أين يَخْرج هذا النظامُ البالغُ الحكمةِ والعظيمُ الدقة إن لم ينشأ عن روح الجماعات غيرِ الشاعرة؟ لم يَصْنَع أشهر المجامع اللغوية وأقدرُ النحويين سوى تدوين السُّنن السائدة للغات بمشقةٍ مع العجز التامِّ عن إيجادها، وهل نحن على يقين بأن ما يَصْدُر عن عبقرية أعاظم الرجال من الأفكار هو من عملهم دون سواهم؟ نَعم، تَصْدُر هذه الأفكار عن أناس معتزلين على الدوام، ولكن أليست روح الجماعات هي التي أوجدت ألوفَ ذرَّات التراب التي تَألَّف منها ما نبتت فيه تلك الأفكار من غِرْيَن؟

والجماعاتُ غيرُ شاعرة على الدوام لا ريب، بَيْد أن هذا اللاشعور من أسرار قوتها، وفي الطبيعة تجِدُ موجوداتٍ خاضعةً للغريزة وحدَها فتأتي أعمالًا يثير تعقُّدها الغريبُ عَجَبَنا، والعقلُ حديث عهد في البشرية، والعقلُ من النقص ما لا يزال معه عاجزًا عن اكتشاف سُنن اللاشعور وعن القيام مقامه على الخصوص، ونصيبُ اللاشعور عظيمٌ في جميع أعمالنا، ونصيبُ العقل ضعيفٌ فيها إلى الغاية، ويقوم اللاشعور بعمله كقوةٍ خافيةٍ بعدُ.

يجب علينا أن نقتصر، إذن، على ملاحظة الحوادث التي يَسْهُل إدراكها إذا ما أردنا البقاء ضِمنَ ما للأمور من الحدود الضيقة الوثيقة التي يمكن العلمَ معرفتُها، راغبين عن الزَّلل في ميدان الظنون المبهمة والافتراضات الباطلة، فخلفَ الحوادث الواضحة توجد حوادثُ أخرى تكون رؤيتنا لها سيئة، وخلفَ هذه الأخيرة قد توجد حوادثُ نجهلها جهلًا تامًّا.

المقدّمة
عصرُ الجماعات

تطور الجيل الحاضر – تحولات الحضارة العظيمة هي نتيجة تحولات في أفكار الأمم – الاعتقاد الحديث بقدرة الجماعات – تحويل هذا الاعتقاد لسياسة الدول التقليدية – كيف يحدث سلطان الجماعات الشعبية وكيف تمارس سلطتها – النتائج الضرورية لسلطة الجماعات، لا تستطيع الجماعات غير الهدم – الجماعات هي التي تتم انحلال الحضارات الهرمة – الجهل العام لروح الجماعات – أهمية دراسة المشترعين وأقطاب السياسة للجماعات.

يظهر أولَ وهلة أن الانقلاباتِ الكبيرةَ التي تسبق ما يعتور الحضاراتِ من تغيُّر هي وليدة تحولات سياسية عظيمة كمغازي الأمم وسقوط الأُسَر المالكة، غير أن البحث الدقيق في هذه الحوادث يدلُّ في الغالب على وجود تطور عميق في أفكار الأمم كعلةٍ حقيقية لها وراءَ عللها الظاهرة، وليست الانقلابات التاريخية الحقيقية هي التي تُدهشنا بعِظَمها وشدتها، وإنما نرى أن التغيراتِ المهمةَ الوحيدة، أي التي تتجدد بها الحضارة، هي التي تَنْضَج في الآراء والمبادئ والمعتقدات، وأن الحوادث الجديرة بالذكر هي النتائج الظاهرة للتغيرات الخفيَّة في مشاعر الناس، وإذا كانت تلك الحوادثُ نادرةَ الوقوع فلأن الأساس الوِراثيَّ لمشاعر الشعب هو أكثر عناصر هذا الشعب ثباتًا.

والدورُ الحاضر هو من الأدوار الخَطِرة التي يكون الفكر الإنسانيُّ فيها صائرًا إلى التحول.

ولذلك التحول عاملان أساسيان، فالعاملُ الأول هو تلاشي ما تُشْتَقُّ منه جميع عناصر حضارتنا من المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية، والعاملُ الثاني هو ظهورُ أحوال عيشٍ وفكرٍ تامَّةِ الجِدَّةِ ناشئةٍ عن مبتكرات العلوم والصِّناعة الحديثة.

وإذ لم تَزل أفكارُ الماضي قوية جدًّا على ما أصابها من زعزعة، وإذ كانت الأفكارُ التي يجب أن تقوم مقامها هي في دور التكوين، كان العصرُ الحديث دورَ انتقال وفوضى.

وإذ إن دورًا كذلك هو دورُ بلبلة لم يكن من السهل أن يُنَبَّأ بما يقع ذات يوم، وعلى أيِّ الأفكار الأساسية ستقوم المجتمعات التي ستَعْقِب مجتمعنا؟ لا نزال نجهل ذلك، غير أننا نستطيع أن نُبصر منذ الآن أن على تلك المجتمعات أن تَحْفِل في نظامها بسلطة جديدة، أي بالحاكم الأخير في الجيل الحاضر، أي بسلطة الجماعات، فهذه السلطة القائمة التي يلوح أنها تَزْدَرد، عما قليل، جميعَ السلطات على أنقاض كثير من الآراء التي عُدَّت صحيحةً فيما مضى فغَدَت اليوم ميتةً، وعلى أنقاض كثير من القُوَى التي قوَّضتها الثَّوْرات بالتتابع،

وفيما ترى معتقداتِنا القديمةَ تَرْتَجُّ فتغيب، وفيما ترى أركان المجتمعات المُسنَّة تتداعى واحدًا بعد الآخر تجدُ في عمل الجماعات القوةَ الوحيدةَ التي لا يُهَددها شيء والتي يَعْظُم نفوذها على الدوام، فالدورُ الذي ندخله سيكون عصرَ الجماعات حقًّا.

كانت سياسة الدول التقليدية ومنافساتُ الملوك منذ نحو قرن عواملَ أساسيةً للحوادث، وكان لا يُؤبَه لرأي الجماعات في الغالب، وأما اليوم فخَفَّ ميزان التقاليد السياسية ومناحي الملوك الشخصية ومبارياتهم، وأضحى صوت الجماعات عظيمًا، ويُمْلِي هذا الصوت على الملوك سَيْرَهم، وصارت مقادير الأمم تُهيَّأ في روح الجماعات، لا في مجالس الملوك.

ويُعَدُّ ارتقاء الطبقات الشعبية إلى حظيرة الحياة السياسية وتحوُّلُ هذه الطبقات بالتدريج إلى طبقات قائدة من أبرز ما يتصف به دَوْر الانتقال الحاضر، ولم يكن التصويتُ العامُّ آيةَ ذلك الصعود بالحقيقة، والتصويت العامُّ قد ظلَّ قليلَ التأثير طويلَ زمنٍ سَلِسَ القِيادِ في البَداءة، وإنما نشأ سلطان الجماعات في أول الأمر عن ذيوع بعض الآراء التي رسخت في النفوس مقدارًا فمقدارًا ثمّ عن تشاركِ الأفراد تشاركًا تدريجيًّا مؤديًا إلى تحقيق ما هو نظريّ من المبادئ، والتشاركُ أعان الجماعاتِ على اتخاذ أفكار مُقَرَّرة في مصالحها على الأقل، إن لم تكن هذه الأفكارُ صائبةً إلى الغاية، كما أن التشاركَ أعان الجماعاتِ على الشعور بقدرتها، والجماعاتُ نقاباتٌ تذعن لها جميع السلطات، والجماعاتُ تؤلِّف جمعياتٍ للعمل فتَهْدِف هذه الجمعيات إلى السيطرة على العمل والأجور خلافًا لسُنَن الاقتصاد، والجماعاتُ تبعث إلى المجالس الحكومية نوابًا عاطلين من كلِّ مبادرة واستقلال راضين بأن يكونوا في الغالب أبواقًا للِّجان التي اختارتهم.

واليومَ تبدو مطالب الجماعات أوضحَ مما كانت عليه شيئًا فشيئًا، فتميل إلى قلب المجتمع الحاضر رأسًا على عقب سَيْرًا به إلى تلك الشيوعية الابتدائية التي كانت عليها جمع الزُّمَر البشرية قبل فجر التاريخ، وتقوم تلك المطالب على تحديد ساعات العمل ونَزْعِ ملكية المناجم والخطوط الحديدية والمصانع والأراضي وتوزيعِ المحاصيل توزيعًا متساويًا وإلغاءِ الطبقات العليا في سبيل الطبقات الشعبية إلخ.

والجماعاتُ، وهي قليلة الاستعداد للتعقل، تبدو بالعكس كثيرةَ الاستعداد للعمل، والنظامُ الحاضر يجعلها ذاتَ قوة عظيمة، وسيكون للعقائد التي نُبْصِر حدوثَها عما قليل ما للعقائد القديمة من السلطان، أي تكون ذاتَ جبروت وسلطان فلا يُجَادَل فيها، ويَحِلُّ حقُّ الجماعات الإلهيُّ محلَّ حقِّ الملوك الإلهيِّ.

وترى الكُتَّاب، ذوي الحُظْوة لدى طبقتنا الوسطى والذين يُمثِّلون أحسن من سواهم أفكارَها الضيقة وبَصَرَها القصير وارتيابَها الوجيز وأَثَرَتَها المُفْرِطة، يجزعون أمام ذلك السلطان الذي يرون استفحال أمره، وهم، لكي يكافحوا فوضى النفوس، يستغيثون استغاثةَ اليائس بقُوَة الكنيسة الأدبية بعد أن كانوا يزدرونها كثيرًا، وهم يتكلمون عن إفلاس العلم فيَدْعوننا إلى تعاليم الحقائق المُنَزَّلة، بَيْد أن هؤلاء المهتدين الجددَ يَنْسَون أن العناية الربانية، إذا ما شَمَلَتهم بالحقيقة، ليست ذاتَ سلطان على نفوس لا تبالي بأمور الآخرة إلّا قليلًا، والجماعاتُ، اليومَ، راغبةٌ عن آلهة أنكرها سادتُها السابقون بالأمس عاملين على تحطيمها، والأنهارُ لا تعود إلى منابعها.

لم يُفْلِس العلم قطُّ، ولا عَمَل له في فوضى النفوس الحاضرة ولا في القوة الجديدة التي تنمو وسط هذه الفوضى، وإنما هو وَعَدَنا بالحقيقة أو بمعرفة الصلات التي يدركها ذكاؤنا، وهو لم يَعِدُنا قطّ بالسلام ولا بالسعادة، والعلمُ، وهو لا يبالي بمشاعرنا أبدًا، لا يستمع إلى عويلنا، ولا شيء يقدر على إعادة ما هَزَمَه العلم من الأوهام.

وهنالك علائمُ عامةٌ تدلُّ لدى جميع الأمم على نموِّ سلطان الجماعات بسرعة، وما علينا إلَّا أن نعانيَ ما يأتينا به ذلك، وليست ضروب اللوم إلَّا من الألفاظ الفارغة، ومن المحتمل أن يكون سلطان الجماعات مرحلةً من آخر مراحل حضارة الغرب وأن يَعْنِيَ عودةً إلى أدوار الفوضى الشديدة التي تَسْبِق ظهورَ المجتمعات الجديدة، ولكن كيف يُمْنَع ذلك؟

إن ما مُنِيَتْ به الحضارات الهَرِمة من تخريب عظيم حتى الآن قد عَيَّن أَظْهَرَ دَوْرٍ للجماعات، وإن التاريخ ليَدُلُّ على أن القُوَى الأدبية التي هي قِوَامُ أحد المجتمعات إذا ما فقدت عملها تمَّ الانحلال الأخير على يد تلك الجماعات الجائرة غير الشاعرة التي أُصيبَ في نعتها بالبرابرة، والحضاراتُ هي وليدة شِرْذِمة أرِستوقراطية من ذوي المدارك، لا من عمل الجماعات أبدًا، والجماعاتُ لا تَقْدِر على غير الهَدْم، ويَنِمُّ سلطان الجماعات على الفوضى في كلِّ وقت، وتتضمن الحضارة ما لا تستمرئه الجماعات تمامًا، وذلك عندما يُلْقَى حبلُها على غاربها، من القواعد الثابتة والنظام والانتقال من الغريزيِّ إلى العقليِّ والبصرِ بالمستقبل والثَّقافة العالية، ومَثَلُ الجماعات في قدرتها المُخرِّبة كمثل تلك الجراثيم التي تُعَجِّل انحلال الأجسام النحيلة أو انحلالَ الجُثث، وبناءُ الحضارة إذا نَخِرَ أوجبت الجماعاتُ انهيارَه، وهنالك يبدو شأن الجماعات فتغدو حِكْمَةُ التاريخ في قوة العدد العمياءِ حينًا من الزمن.

وهل يكون ذلك مصيرَ حضارتنا؟ يمكننا أن نخشى ذلك، ولكننا لا نزال نجهله.

ولْنُسَلِّم بمعاناة سلطان الجماعات ما هَدمَتْ أيدٍ غافلةٌ بالتعاقب جميعَ الحواجز التي كان يمكنها أن تَزْجُر الجماعات.

ولا نَعْرِف إلَّا القليلَ من أمر تلك الجماعات التي كَثُر الكلام عنها، وعلماءُ النفس المُحْتَرِفون، إذ عاشوا بعيدين عن الجماعات، جَهِلُوها على الدوام، وهم لم يُعْنَوْا بها إلَّا من حيث الجرائمُ التي تستطيع اقترافَها، أجَلْ، إن الجماعاتِ المجرمةَ موجودةٌ لا ريب، غير أنك ترى جماعاتٍ فاضلةً وجماعاتٍ باسلةً وهكذا، وليست الجرائم سوى ظاهرة خاصة من روح الجماعات، والجرائمُ لا تدلنا على مزاج الجماعات النفسيِّ كما أن بيان معايب الشخص وحدَها لا تدلنا على نفسية هذا الشخص.

ومع ذلك نرى من الحقِّ أن يقال إن سادة العالم من مؤسسي الأديان والدول ومن رُسُل جميع المعتقدات ومن أقطاب السياسة، وإن رؤساء الزُّمَر البشرية الصغيرة كانوا من علماء النفس بفطرتهم لمعرفتهم الغريزية، الصادقةِ في الغالب، بروح الجماعات، وهم لمعرفتهم إياها جيدًا سَهُلَ عليهم أن يسودوها، وكان نابليون ذا بَصَر حديد بروح الجماعات الفرنسية بما يثير العجب، ولكن نابليون هذا كان يَجْهَل روح جماعات الشعوب الأخرى جهلًا تامًّا في بعض الأحيان([2])، فحَفَزه هذا الجهل إلى القيام في إسبانيا وروسية، على الخصوص، بحروب أعَدَّت سقوطَه.

ومن معرفة روح الجماعات يتألف مَعِينُ القطب السياسيِّ الذي يَوَدُّ ألّا تحكم فيه الجماعات كثيرًا، لا أن يحكم فيها لِصعوبة ذلك في هذه الأيام.

تُثْبت روح الجماعات قلةَ تأثير القوانين والنُّظم في طبيعة الجماعات المندفعة ودرجةَ عجز الجماعات عن أن تكون حائزةً لأيِّ رأي غيرِ ما تُلقَّنه، ولا يمكن القواعدَ المشتقةَ من مبدأ الإنصاف النظريِّ الخالص أن تُسَيِّر الجماعات، والانطباعاتُ التي تُحْدَث في الجماعات هي التي تستطيع أن تستهويها، وإذا حَدَث أن مشترعًا أراد فرض ضريبة جديدة، مثلًا، فهل يجب عليه أن يختار أعدل الضرائب نظريًّا؟ كلّا، فقد يكون أبعد الضرائب عن العدل أحسنَها عمليًّا لدى الجماعات إذا ما كانت هذه الضريبة أكثرَها خفاءً وأخفَّها حملًا في الظاهر، ومن ذلك أن إحدى الضرائب غيرِ المُقرَّرة تكون مقبولة لدى الجُمهور ولو كانت باهظة، فهذه الضريبة، إذ كانت تُسْتوفى من موادِّ الاستهلاك في كلِّ يوم بقِطَعٍ من الدَّوانق، تبدو قليلةَ التأثير في العادات غيرَ ثقيلة عليها، ولكنكم إذا ما استبدلتم بها ضريبةً نِسْبية على الأجور أو على دخلٍ آخرَ لِتُدْفَع دفعةً واحدة أثارت هذه الضريبة احتجاجاتٍ إجماعيةً ولو كانت أخفَّ من تلك عشر مرات، وذلك لقيامِ مبلغٍ مجموع كبير نسبيًّا مقام دوانقَ غيرِ باديةٍ تُجْبَى مُيَاوَمةً وجَلْبِ ذلك المبلغ للنظر أكثرَ من هذه الدوانق، ولا يكون ذلك المبلغ أمرًا غيرَ خفيّ إلّا إذا جُمِع دانقًا بجانب دانق، بَيْد أن هذه وسيلةٌ اقتصادية تدلُّ على شيء من البصيرة لا تَقْدِر الجماعات عليه.

ويوضح المثالُ السابق نفسيةَ الجماعات، ولم تَغِبْ هذه النفسية عن عالمٍ نفسيّ كنابليون، غير أن المشترعين الذين يجهلون روحَ الجماعات لا يستطيعون إدراكَ تلك النفسية، ولمَّا تُعَلِّمْهم التجرِبة، بما فيه الكفاية، أن الناس لا يسيرون بتعاليم العقل الصِّرف.

ومن الممكن أن يُؤْتَى بتطبيقات أخرى كثيرةٍ مقتبسة من روح الجماعات، ومعرفةُ روح الجماعات تُلْقِي نورًا شديدًا على ما يتعذر فهمه بغيره من الحوادث التاريخية والاقتصادية الكثيرة، وإذا كان أشهرُ المؤرخين المعاصرين، مسيو تاين، لم يدرك حوادثَ الثورة الفرنسية الكبرى في بعض الأحيان إلَّا إدراكًا ناقصًا فلأنه لم يفكر في دراسة روح الجماعات، وتاينُ هذا اتخذَ المِنْهاج الوَصْفيَّ لعلماء التاريخ الطبيعيِّ دليلًا له في دِراسة ذلك الدور المعقد مع أنه لا مكان للقُوَى الأدبية في الحوادث التي تدخل ضمن مباحث هؤلاء العلماء ومع أنه يتألف من القُوَى الأدبية عواملُ التاريخ الحقيقية.

إذن، تستحقُّ روح الجماعات أن تكون مَوْضِع درسٍ ولو من أجل حبِّ الاطلاع، ومن المفيد أن تُسْتبر عوامل سير الرجال كاكتناه المعدِن والنبات.

وليست دراستنا لروح الجماعات غيرَ خلاصة وجيزة لمباحثنا، فلا تطالَبْ بسوى بنظراتٍ إيحائية، وعلى غيرنا أن يُوغِلَ في الموضوع ما دمنا لا نصنع الآن غيرَ تخطيطٍ على أرض لم يَقَع ارتيادُها بعدُ([3]).

الباب الأول
روح الجماعات

الفصل الأول
الخصائص العامة للجماعات
سنة وحدتها النفسية

من أيّ شيء تتألف الجماعة نفسيًا – لا يكفي اجتماع أشخاص كثيرين لتأليف جماعة – الصفات الخاصة للجماعات النفسية – اتجاه أفكار الأفراد الذين تتألف الجماعات منهم ومشاعر هؤلاء الأفراد وتلاشي شخصيتهم – يسيطر اللاشعور على الجماعة في كل وقت – انزواء الحياة الدماغية وهيمنة الحياة النخاعية – انحطاط الذكاء وتحول المشاعر تحولًا تامًّا – قد تكون المشاعر المتحولة أحسن من مشاعر الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة أو أسوأ منها – يسهل أن تكون الجماعة باسلة كما يسهل أن تكون مجرمة.

تدلُّ كلمة الجماعة في معناها العاديِّ على اجتماع أشخاص مهما كانوا ومن أيِّ الجنسين كانوا، ومهما كانت قوميتهم ومهنتهم، ومهما كانت المصادفة التي جمعتهم.

والجماعة تدلُّ على معنًى آخرَ من الناحية النفسية، ففي بعض الأحوال المُعيَّنة، وفي هذه الأحوال فقط، يكتسب لفيف من الناس صفاتٍ جديدةً مختلفة أشدَّ الاختلاف عن صفات كلِّ فرد من هذا اللفيف، فتتلاشى الشخصية الشاعرة وتتَّجه أفكار كلِّ واحد من أولئك الأفراد نحو صَوْب واحد، وتتألف روح مشتركة موقتةٌ لا ريب، ولكنها ذاتُ صفات واضحة للغاية، وهنالك يصير الجَمْعُ ما أسميه بالجماعة المنظمة، وإن شئت فقل الجماعة النفسية، لِما لا أجدُ خيرًا من هذا التعبير، وتكون تلك الجماعة ذاتَ كِيان واحد وتَخْضَع لسُنَّة الوَحْدة النفسية للجماعات.

وإذا ما حدث أن وُجِدَ أفرادٌ بعضُهم بجانب بعض عَرَضًا فإن هذا لا يمنحهم صفاتِ الجماعة المنظمة، ولو اجتمع ألف شخص إلى بعضهم بعضًا في ميدان عامّ بطريق المصادفة من غير هَدَف مُعيَّن ما ألَّفوا جماعة نفسية قطُّ، وهم، لكي يكتسبوا صفاتِ الجماعة النفسية، لا بدَّ من أن تُؤَثِّر فيهم بعض المُحَرِّضات التي سنُعَين طبيعتها.

ولا يتضمن اضمحلال الذّات الشاعرة واتجاهُ المشاعر والأفكار نحو هدف واحد، وهما الصفتان الأُولَيان للجماعة التي هي في طريق الانتظام، وجودَ أفرادٍ كثيرين في مكان واحد على الدوام، فقد يكتسب ذات حينٍ ألوفٌ من الأشخاص المتفرقين صفاتِ الجماعة النفسية بفعل بعض المُهَيِّجات العنيفة كحادث قوميّ جَلَل، ويكفي أن تَجْمَع هؤلاء أيّةُ مصادفة ليصطبغ سلوكهم بصبغة أعمال الجماعات فورًا، ومن الممكن في بعض ساعات التاريخ أن يتألف من بضعة أشخاص جماعةٌ نفسية على حين لا يتألف من مئات الأشخاص الذين يجتمعون اتفاقًا مثلُ تلك الجماعة، وقد تنقلب الأمة كلُّها

أحيانًا إلى جماعة بفعل هذا المُؤَثِّر أو ذلك من غير أن يكون اجتماع ظاهر هنالك.

والجماعةُ النفسية متى تكونت اكتسبت صفاتٍ عامةً مؤقتة يمكن تعيينها، وإلى هذه الصفات العامة تُضَاف صفاتٌ خاصة تختلف باختلاف العناصر التي تتألف الجماعة منها والتي يمكنها أن تُغَيِّر كِيانَها النفسيَّ.

إذن، يمكن تقسيم الجماعات النفسية، وتدلنا دراسة هذا التقسيم على أن الجماعة المتباينة المؤلفةَ من عناصرَ مختلفةٍ تكون، هي والجماعاتُ المتجانسة المؤلفة من عناصرَ متشابهةٍ بعض الشَّبَه (كالفِرَق والطوائف والطبقات)، ذاتَ صفاتٍ مشتركة بينها وأنّه يكون بجانب هذه الصفات المشتركة خصوصياتٌ تختلف بها هذه الجماعة عن تلك.

ولندرس الصفاتِ المشتركةَ بين جميع الجماعات قبل أن نُعْنَى بأنواع الجماعات، وسيكون شأننا في ذلك كشأن العالم الطبيعيِّ فنبدأ بتحديد الصفات العامة بين أفراد الفصيلة الواحدة، ثمّ نُعَيِّن الصفاتِ الخاصةَ التي تَفْرِق بين ما في هذه الفصيلة من الأنواع والأجناس.

ليس من السهل وَصْفُ روح الجماعات، وذلك لأن نظام هذه الروح لا يختلف باختلاف الشعوب وتركيب الزُّمَر فقط، بل يختلف أيضًا باختلاف طبيعة ما تعانيه من المُحَرِّضات ودرجةِ هذه المحرضات، وصعوبةٌ مثلُ هذه تبدو مع ذلك في درس حال أيِّ فرد درسًا نفسيًّا، فالأشخاصُ، وإن كانوا يظهرون في الروايات ذوي خُلق ثابت، ليسوا كذلك في ميدان الحياة الخاصة، ونَمطيَّة البِيئات وحدَها هي التي تُحْدِث نَمَطيَّة الأخلاق ظاهرًا، وقد بيَّنْتُ في موضع آخر أن جميع الأمزجة النفسية تشتمل على مُمْكِنات خُلقية يمكن أن تبدو بفعل انقلاب مفاجئ في البيئة، ومن ذلك أن بدا بين وحوش العهد أناسٌ من أبناء الطبقة الوسطى كانوا في الأحوال العادية كُتَّابَ عدل مسالمين أو قضاةً صالحين، فلمَّا هدأت الزوبعة عاد هؤلاء إلى سابق أخلاقهم فوجد نابليونُ بينهم أشدَّ أعوانه خضوعًا.

وإذ إننا لا نستطيع أن ندرس هنا جميع المراحل في تكوين الجماعات فإننا ننظر إلى وَجْه نظامها الكامل على الخصوص، وهكذا نرى ماذا يمكن الجماعاتِ أن تكون، لا ما هي عليه في كلِّ وقت، وتَتَنضد على ذلك الوجه الراقي للجماعات بعضُ الصفات الجديدة الخاصة، كما على أساس الأمة الثّابت المهيمن، فتُوَجِّه تلك الصفاتُ الجديدة جميعَ مشاعر الجماعة وأفكارِها نحو هدف واحد، وهنالك فقط تتجلى سُنَّة الوَحْدة النفسية للجماعات التي ذكرتها آنفًا.

وكثيرٌ من الصفات النفسية مشتركٌ بين الجماعات والأفراد، ومن الصفات النفسية ما لا يوجد في غير الجماعات، وسندرس هذه الصفاتِ الخاصةَ في

بدء الأمر لبيان أهميتها.

إن أبرز أمر في الجماعة النفسية هو أن الأفراد الذين تتألف منهم، مهما كانوا ومهما تماثلوا أو اختلفوا في طِراز حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وعقولهم، هو أنهم إذا ما تحولوا إلى جماعة منحتهم هذه الجماعة ضَرْبًا من الروح الجامعة، وهذه الروح تجعلهم يشعرون ويفكرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه ويسير عليه كلُّ واحد منهم وهو منفرد، ومن الأفكار والمشاعر ما لا يَظْهر أو يتحول إلى أعمال إلا لدى الأفراد في الجماعة، فالجماعةُ النفسية هي موجودٌ مؤقت مؤلف من عناصرَ متباينةٍ ملتحمة لِأَجَل، وهي كخليَّات الجسم الحيِّ التي يتألف من اجتماعها موجودٌ جديد ذو صفاتٍ تختلف عن صفات كلِّ واحدة من هذه الخليَّات.

والأمرُ هو خلاف الرأي الذي يَحَار المرء من صدوره عن فيلسوف ثاقب البصيرة كهربرت سِبِنْسِر والقائلِ إن الجماعةَ مجموع وحاصلٌ متوسط للعناصر التي تتألف منها، والأمر هو أن آية الجماعة تركيبٌ وحدوثُ صفاتٍ جديدة كما في الكيمياء حيث ترى أن بعض العناصر، كالقواعد والحوامض، إذا ما اختلط ببعض ظَهَر جسمٌ جديد ذو خواصَّ تختلف عن خواصِّ الأجسام التي تَألَّف منها.

ومن السهل ملاحظةُ درجة اختلاف الفرد في الجماعة عن الفرد وحيدًا، ولكن اكتشاف عِلَل ذلك الاختلاف أقلُّ سهولةً.

وللوصول إلى تَبيُّن ذلك يجب أن تُذْكر قبل كلِّ شيء الملاحظةُ الآتية التي وردت في علم النفس الحديث وهي: إن الحوادث اللاشعورية تُمثِّل دورًا عظيمًا في أعمال الذكاء، لا في الحياة العضوية وحدَها، ولا تُمثِّل حياةُ النفس الشاعرة غيرَ نصيبٍ ضئيل بجانب حياتها اللاشاعرة، ولا يكتشف أدقُّ المُحلِّلين وأعمقُ الباحثين سوى عدد قليل من العوامل اللاشعورية التي تُسيِّر النفس، وتُشتقُّ أعمالنا الشعورية من مصدر غير شعوريّ تَألَّف من مُؤثِّرات وِراثية، ويشتمل هذا المصدر على ما لا يُحْصَى من الرواسب الموروثة التي تتكون منها روح الشعب، ويوجد خلف ما هو معروفٌ من عِلَلِ أعمالنا عِلَلٌ خفية نَجْهَلها، وما مُعْظم أفعالنا اليومية إلّا نتيجةٌ لعواملَ مستترةٍ لا ندركها.

وبفعل العناصر اللاشاعرة التي يتكون منها روح الشعب يتشابه جميع أفراد هذا الشعب على الخصوص، وبفعل العناصر الشاعرة التي هي ثمرة التربية، ونتيجةُ وِراثة استثنائية على الخصوص، يختلف أولئك الأفراد، وتجِدُ لأشدِّ الناس اختلافًا بذكائهم غرائزَ وشهواتٍ ومشاعرَ متماثلة في بعض الأحيان، ومن النادر أن يجاوز أفضلُ الناس مستوى العامة في كلِّ ما ينشأ عن المشاعر كالدين والسياسة والأخلاق والحبِّ والبغضاء إلخ، أَجَلْ، قد تكون هنالك هُوَّة بين رياضيّ مشهور وصانعِ حذائه من الناحية العقلية، غير أن

الفرق بينهما يكون صِفْرًا في الغالب أو ضئيلًا إلى الغاية في الخُلق والمعتقدات.

حقًّا إن صفاتِ الخُلق العامةَ تلك التي يهيمن اللاشعور عليها والتي يَحُوزها مُعْظم الشعب بدرجة واحدة تقريبًا هي الصفات التي تبدو شاملة لدى الجماعات، وفي الروح الجَمْعيَّة تَمَّحِي أهلياتُ الأفراد العقلية وشخصيتُهم من حيث النتيجةُ، ويَغْرَق المتباين في المتجانس وتسيطر الصفات اللاشعورية.

ويُفسِّر لنا شمولُ الصفات العادية ذلك السببَ في أن الجماعاتِ لا تستطيع أن تُنجز أعمالًا تتطلب ذكاءً عاليًا، وليست المُقَررات التي تَصْدُر عن مجلس مؤلف من رجال ممتازين في موضوع المصلحة العامة بأرقى من المقررات التي تصدر عن مجلس مؤلف من الأغبياء، وذلك لأن الفريقين لا يشتركان بالحقيقة في غير تلك الصفات الهزيلة التي يَتَّصف بها جميع الناس، والبَلَهُ، لا الذكاءُ، هو ما تجْمَعه الجماعات، وليس جميع الناس بأحصفَ من فُولْتِيرَ كما يُردَّد في الغالب، والحقُّ أن فولتيرَ أحصفُ من جميع الناس إذا قُصِدَت الجماعات من «جميع الناس».

ولكن الأفراد في الجماعة إذا ما اقتصروا على صَهْر صفاتهم العادية ظهرت صفةٌ متوسطة فقط، لا صفاتٌ جديدة كما قلنا، فكيف تحدُث هذه الصفات الجديدة؟ فلنبحث في ذلك الآن.

هنالك أسبابٌ مختلفة تؤدِّي إلى ظهور صفات خاصة بالجماعات، والسبب الأول هو أن الفرد يكتسب في الجماعة بفعل العدد شعورًا بقُدرةٍ، لا تُقهر، على الإذعان لغرائزَ كان يَرْدَعها كُرْهًا وهو منفرد، والفردُ في الجماعة يُذْعِن لتلك الغرائز طَوْعًا بنسبة زوال الشعور بالمسؤولية الذي يَرُدُّ جِماحَ الأفراد على الدوام ما دامت الجماعة غُفْلًا، ومن ثمَّ غير مسؤولة.

والسبب الثاني، وهو العدوى النفسية، يعمل أيضًا على إظهار صفات خاصة في الجماعات مُوَجِّهةٍ لها، والعدوى النفسيةُ، وإن كانت حادثةً تَسْهُل ملاحظتها، لم تفسَّر بَعدُ، وهي مما يجب ربطه بحوادث التنويم التي سندرسها عما قليل، وكلُّ شعور في الجماعة وكلُّ عمل تأتيه مما يَسْرِي بالعَدْوَى، وهو يبلغ من السَّريان بالعدوى ما يَسْهُل معه على الفرد أن يُضحي بمصلحته الشخصية في سبيل المصلحة العامة، وفي ذلك استعدادٌ مخالف لطبيعة الفرد لا يَقْدِر عليه الإنسان إلّا إذا كان جزءًا من جماعة.

والسبب الثالث، وهو أهمُّ الأسباب، يوجب في أفراد الجماعة صفاتٍ خاصةً تكون في بعض الأحيان مناقضةً لصفات الإنسان وهو منفرد، وأقْصِد بذلك قابليةَ الإنسان للتّلقُّن التي ليست العدوى المذكورة آنفًا غير نتيجة لها.

ونحن، لكي نُدرك هذه الحادثة، يجب أن نذكر بعض الاكتشافات الحديثة في علم وظائف الأعضاء، فمما نعلم اليوم أن الشخص يمكن وضعُه في حال

يَفْقِد فيها ذاتَه الشاعرة فينقاد لتلقينات الفاعل الذي أفقده إياها، فيقترف أشدَّ الأعمال مخالفةً لسَجِيَّته وعاداته، وهنالك مشاهداتٌ دقيقةٌ تُثْبِت، كما يظهر، أن الشخص إذا ما انغمر منذ حينٍ في جماعة وهي تعمل لم يُعَتِّمْ أن يقع في حال خاصة كثيرة القُرْب من حال سِحْر المُنَوَّم بين يدي مُنَوِّمِه، وذلك بفعل سَيَلاناتٍ تصدر عن الجماعة أو بفعل سبب آخر لا يزال مجهولًا، وحياةُ الدماغ إذا تُعَطَّل في المُنوَّم يغدو المُنوَّم عبدًا لجميع قُوَاه اللاشاعرة فيُوجِّه المُنوِّم هذه القُوَى كما يشاء، والذاتُ الشاعرة حين تغيب تَبْطُل الإرادة ويزول التمييز، وتتوجه المشاعر والأفكار، إذ ذاك، إلى الهَدَف الذي عَيَّنه المُنوِّم.

تلك هي حال الفرد في الجماعة تقريبًا، وفي الجماعة يَعُود الفرد غيرَ شاعرٍ بأفعاله، وعند ذلك الفرد، كما عند المُنوَّم، فيما تزول بعض المَلَكات تشتدُّ مَلَكاتٌ أخرى اشتدادًا عظيمًا، فيندفع الفردُ، بفعل التلقين، في إنجاز بعض الأعمال صائلًا صَوْلَةً لا يَقْدِر على مقاومتها، وتكون الصولة أشدَّ اندفاعًا في الجماعات مما في المُنوَّم، وذلك لأن التلقين، إذ كان واحدًا لدى جميع الأفراد في الجماعات، يزيد بالتفاعل، وأفرادُ الجماعة الذين لديهم من قوة ما يقاومون به التلقين قليلون إلى الغاية ويَجُرُّهم السَّيْل، وإنما الذي يستطيعون محاولتَه هو تحويل المجرى بتلقين مختلف، فهم إذا ما صدرت عنهم كلمة طيبة أو أثاروا خيالًا ملائمًا أمكنهم في بعض الأحيان أن يَصْرِفوا الجماعاتِ عن اقتراف أفظع الأفعال.

ومما تقدّم ترى أن تلاشِيَ الذات الشاعرة وهيمنةَ الذات غيرِ الشاعرة والتوجيهَ نحو غرض واحد بالتلقين وعَدْوَى المشاعر والأفكار وتحويل الأفكار المُلَقَّنة إلى أعمال في الحال هي أهمُّ صفات الفرد في الجماعة، وفي الجماعة لا يعود الفرد كما كان، بل يصبح آلةً تَعْجِز إرادته عن قيادتها.

والإنسانُ إذا ما غدا جزءًا من الجماعة هبط، إذن، عِدَّةَ درجاتٍ في سلّم الحضارة، والإنسانُ وهو منفرد قد يكون شخصًا مُثقَّفًا، والإنسانُ وهو في الجماعة يكون غريزيًّا ومن ثمَّ يكون همجيًّا فيَتَّصف بما عند الفطريين من الغريزيَّة والعنف والجَلَف كما يتصف بما عندهم من الحماسة والبطولة، وهو يشابههم أيضًا بسهولة استهوائه بالصِّيَغ والصور وسَوْقِه إلى أعمال ضارَّةٍ بأوضح مصالحه، والفردُ في الجماعة كذَرَّة التراب بين ذراتٍ أخرى تثيرها الريح كما تشتهي.

وهكذا ترى مُحَلَّفين يُصدرون أحكامًا يَعيبُها كلُّ واحد منهم على انفراد، وهكذا ترى مجالسَ برلمانيةً تَسُنُّ قوانينَ وتَتَّخذ تدابيرَ يرفضها كلُّ عضو من أعضائها على حِدة، وهكذا كان حال رجال مجلس العهد من أبناء الطبقة الوسطى ذوي العادات السَّلمية، فلما اجتمع أولئك الرجال وتألّفت منهم جماعة لم يترددوا، بتأثير بعض الزعماء، في إرسال أوضح الناس براءةً إلى

المِقْصلة، وقد تَنَزَّل أولئك الرجال عن حَصَانتهم خلافًا لجميع مصالحهم فضَرَب بعضُهم رقابَ بعض.

ولا يختلف الفرد، وهو في الجماعة، عن شخصه المعتاد بالأعمال فقط، والفردُ، حتى قبل أن يَفْقِد كلَّ استقلال فيه، تتحول أفكاره ومشاعره تحوّلًا ينقلب به البخيل إلى مِتْلاف والملحدُ إلى مُعْتَقِد والشريفُ إلى أثيم والنَّذْلُ إلى بطل، ومن ذلك أن تَنَزل الأشراف عن جميع امتيازاتهم ساعةَ حماسةٍ في ليلة 4 من أغسطس سنة 1789 الشهيرة، ومما لا مِرَاءَ فيه أن كلَّ واحد من أولئك الأشراف كان يرفض ذلك لو سُئِل على انفراد.

ومن الملاحظات السابقة نستنتج أن الجماعة على الدوام دُونَ الشخص المنفرد إدراكًا، بَيْدَ أن الجماعة، من حيث المشاعرُ والأعمال التي توجبها هذه المشاعر، يمكنها أن تكون أكثر من الفرد خيرًا أو شرًّا، وهذا يتوقف على الوجه الذي تُلَقَّن به، وهذا هو الذي غَفَل عنه الكُتَّاب الذين لم يبحثوا في الجماعات إلّا من الناحية الإجرامية، مع أن الجماعاتِ، وإن كانت مجرمة في أوقات كثيرة، ذاتُ بطولة في أوقات كثيرة أخرى، فالجماعاتُ تَسْهُل قيادتها للتضحية انتصارًا لمعتقد أو مبدأ، والجماعاتُ تُثَار حماستُها في سبيل المجد والشرف، والجماعاتُ تُساق بلا خبز ولا سلاح كما حدث في الحروب الصليبية لإنقاذ قبر الربِّ، وكما حدث في سنة 1793 للدفاع عن أرض الوطن، أجل، إن تلك البطولاتِ غيرُ شعورية إلى حدّ، غير أن التاريخ يُصنع بمثلها، ولو وَجَبَ ألَّا يُعَدَّ بين تُراث الأمم غيرُ الأعمال العظيمة التي حُقِّقَت ببرودة ما سَجَّلَت حَوْلِيَّات العالَم سوى اليسير من ذلك التراث.

الفصل الثاني
مشاعر الجماعات وأخلاقها

(1) استعداد الجماعات للاندفاع والتقلّب والغضب – الجماعة هي ألعوبة جميع المحرضات الخارجية وهي تردد صدى تقلب هذه المحرضات المستمر – ما تعانيه الجماعات من الاندفاعات هو من التجبر ما تزول معه المنفعة الشخصية – لا شيء في الجماعة يصدر عن التأمل – تأثير العرق – (2) استعداد الجماعات للتلقن والتصديق – إذعانها للتلقين – تعدّ الجماعات من الحقائق ما يلقى في روعها من الصور – كيف تكون هذه الصور متماثلة لدى جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة – تساوي العالِم والأبله في الجماعة – أمثلة مختلفة من الأوهام التي يكون أفراد الجماعة عرضة لها – تعذّر الاعتماد على شهادة الجماعات – إجماع كثير من الشهود من أسوأ الأدلة على إثبات أمر – ضعف قيمة كتب التاريخ – (3) غلوّ مشاعر الجماعات وبساطتها – الجماعات لا تعرف الشك ولا التردد، وهي تذهب إلى التطرف على الدوام – الجماعات مفرطة في مشاعرها على الدوام – (4) عدم تسامح الجماعات وتحكّمها ومحافظتها – أسباب هذه المشاعر – نذالة الجماعات أمام السلطة القوية – لا تمنع الغرائز الثورية الموقتة في الجماعات من أن تكون هذه الجماعات محافظة إلى الغاية – الجماعات ذات غرائز معادية للتغيير والرقي – (5) أخلاق الجماعات – أخلاق الجماعات قد تكون أحط من أخلاق أفرادها أو أعلى من هذه الأخلاق بحسب التلقين – إيضاح وأمثلة – من النادر أن تكون المنفعة، التي هي المحرك الوحيد للشخص المنفرد، رائدًا للجماعات – شأن الجماعات في تهذيب الأخلاق.

لنبحث في الجماعات مفصلًا بعد أن بيَّنا أوصافها المهمة بيانًا مجملًا.

إن كثيرًا من الصفات الخاصة بالجماعات، كالاندفاع والغضب وفَرْط المشاعر والعجر عن التعقل وعدم الحصافة وعدم روح النقد وما إلى ذلك، مما يمكن أن يُشاهَد أيضًا لدى الأفراد الذين لم يجاوزوا أدوارَ التطور السُفْلَي كالمتوحش والطفل، وهذه مشابهةٌ أكتفي بذكرها عابرًا لِما في إثباتها من مجاوزة دائرة هذا الكتاب، وذلك إلى عدم فائدته للمطلعين على روح الفطريين وعدم إقناعه من يجهلون تلك الروح.

والآن أبحث بالتتابع في مختلف الصفات التي تَسْهُل مشاهدتها في مُعظم الجماعات.

1 – استعداد الجماعات للاندفاع والتقلّب والغضب

بحثنا في الصفات الأساسية للجماعة فقلنا إن الجماعة مُسَيّرة باللاشعور وحدَه تقريبًا، فالجماعةُ تسير بتأثير النُّخاع أكثر مما بتأثير الدِّماغ، نعم، إن ما تنجزه الجماعة من أعمال قد يكون كاملًا في تنفيذه، ولكن الدماغ إذ لم يكن مُوَجِّهًا لها يسير الفرد فيها تَبَعًا لمصادفات التحريض، والجماعةُ، وهي ألعوبة جميع المُحَرِّضات الخارجية، تُرَدِّد صدى تقلّب هذه المحرضات المستمر، والجماعةُ هي، إذن، أمَةُ ما يعتورها من الاندفاعات، وقد يقع الشخص وهو منفردٌ تحت تأثير المُحَرِّضات التي يخضع لها الإنسان وهو في الجماعة، غير أن عقله يَدُلُّه على محاذير الإذعان لهذه المحرضات فلا يُذْعن لها، ويمكن

تعريف هذه الظاهرة من الناحية الفيزيولوجية بأن يقال إن الشخص وهو منفرد يكون ذا استعداد للسيطرة على لاتَنَبُّهاتِه، على حين ترى الجماعة عاطلة من ذلك.

وقد تكون الاندفاعات المختلفة التي تخضع الجماعات لها كريمةً أو جائرة وباسلة أو نَذلة على حسب المُحَرِّضات، بَيْدَ أنها تبلغ، على الدوام، من التَّجَبر ما تَمَّحِي به أمامها منفعةُ البقاء نفسُها.

وإذ كانت المُحَرِّضات التي تُلَقِّن الجماعاتِ مختلفةً، وإذ تنقاد الجماعاتُ لهذه المحرضات على الدوام، كانت الجماعات متقلبة إلى الغاية، فتراها تنتقل بغتةً من التوحش الدامي إلى الكرم أو البطولة المطلقة، والجماعةُ يَسْهُل عليها أن تكون جَلَّادة كما يسهل عليها أن تكون شهيدة، ومن ضِمْن الجماعة جَرَتْ سيول الدماء انتصارًا لكل معتقد، وليس علينا أن نَرْجِع إلى عصور البطولة لنعلم ماذا تَقْدِر عليه الجماعات، والجماعاتُ لا تساوم بحياتها في فتنة أبدًا، فمنذ سنوات قليلة أصبح أحد القُوَّاد ذا حُظْوة لدى الشعب من فَوْره، فلو وَدَّ لوَجَد مئة ألف رجل مستعدٍّ للموت في سبيله.

إذن، لا رَوِيَّة في ما يصدر عن الجماعات، والجماعاتُ يمكنها بفعل مُحَرِّضات الزمن أن تجوب بالتتابع دائرةَ أشدِّ المشاعر تباينًا، والجماعاتُ تشابه أوراق الشجر التي تثيرها العاصفة وتُفَرِّقها في كلِّ ناحية ثمّ تَدَعُها تَهْبِط، وبدراسة الجماعات الثورية يكون لدينا بعض الأمثلة على تقلّب مشاعرها.

وتَقَلُّبُ الجماعات ذلك يجعل قيادتها أمرًا صعبًا إلى الغاية، ولا سيما عند قبضها على قسط من السلطات العامة، ولو لم تكن مقتضيات الحياة اليومية ناظمةً خَفِية للحوادث ما عاشت الديموقراطيات قَطُّ لذلك السبب، غير أن الجماعاتِ التي ترغب في الأمور مُتَهورةً لا ترغب في هذه الأمور لطويلِ زمن، فالجماعاتُ تَعْجِزُ عن الإرادة الدائمة عَجْزَها عن التفكير.

وليست الجماعة مندفعة متقلبة فقط، بل هي كالهمجيِّ أيضًا، ولا تُسَلِّم الجماعة بوجود حاجز بين رغبتها وبين تحقيق هذه الرغبة، وذلك لِما تَمُنُّ الكثرة عليها من الشعور بقدرة لا تقاوَم، والحقُّ أن مبدأ الاستحالة يزول لدى الفرد في الجماعة، وإذ كان الإنسانُ وهو منفرد يشعر بأنه لا يستطيع وحدَه أن يحْرق قصرًا أو يَنْهَبَ مخزنًا فإن مثل هذا العمل لا يدور في خَلَده، وإذ كان الإنسانُ وهو في الجماعة يشعر بالقدرة التي يمنحها العددُ فإنه ينقاد من فَوْره لأول تلقين بالقتل والسلب فيُحَطِّم العائق غيرَ المنتظَرِ بعنفٍ، ولو كان النظام البشريُّ يحتمل دوام الغضب لأمكننا أن نقول إن الغضب هو الحال الطبيعية للجماعة.

وتتجلى أخلاق العِرْق الأساسية دَوْمًا في غضب الجماعات واندفاعها وتقلبها كما في جميع المشاعر الشعبية التي سندرسها، ويتألف من أخلاق العِرْق أرضٌ تَنْبُت عليها مشاعرنا، والجماعاتُ ذاتُ غضب واندفاع لا ريب، ولكن على درجات مختلفةٍ، ومن ذلك أن الفرق بارزٌ بين الجماعة اللاتينية والجماعة الأنغلوسكسونية مثلًا، وتُلْقِي حوادثُ تاريخنا الجديدةُ نورًا شديدًا على هذا الأمر، ففي سنة 1870 كفى نَشْرُ برقية بسيطة مشتملة على ذكر إهانة مفْتَرضة لحدوث انفجارِ غضبٍ أسفر في الحال عن نشوب حرب طاحنة، ثمّ مضى بضعُ سنين فجاء في برقيةٍ نبأ انكسارٍ تافه في لَنْغِسِن فأوجب ذلك سقوطَ الحكومة فجأةً، ومما حدث في ذلك الحين أن أصيبت حملةٌ إنكليزية بانكسار أكبر من ذلك أمام الخرطوم فلم يؤدِّ ذلك إلى غير هيجان قليل في إنكلترا لم ينشأ عنه تغيير أيِّ وزير، أجل، إن الجماعاتِ شبيهةٌ بالنساء في كلِّ مكان، ولكن الجماعاتِ اللاتينيةَ أكثرُها شبهًا بهنَّ، فمَنْ يعتمد على الجماعات اللاتينية يمكنه أن يَرْتقِيَ سريعًا، ولكن مع قُرْبه باستمرار من صخرة تَارْبِينْيان ومع تَيَقُّنه بأنه سَيُقْذَف من فوقها ذات يوم.

2 – استعداد الجماعات للتَّلَقُّن والتصديق

قلنا إن فرط الاستعداد للتَّلقُّن هو من الصفات العامة في الجماعات، وبيَّنا كيف أن التلقين أمرٌ معدٍ في كل زمرة بشرية، وهذا يوضح اتجاه المشاعر السريع نحو غرض معيَّن.

والجماعةُ مهما افتُرض حيادُها بَدَتْ، في الغالب، في حالٍ من الانتباه الانتظاريِّ ما تُلقَّن به، ويُفرَض التلقينُ الأول، المرسومُ، على جميع الأدمغة في الحال فلم يَنْشَب أن يُعيِّن الاتجاه، والفكرُ الثّابت في الأشخاص المُلَقَّنين يميل إلى الانتقال إلى العمل، وسواءٌ أكان الأمر قصرًا ليُحرَق أم عملًا كريمًا ليُنجَز تبدو الجماعة مستعدة لصنع ذلك بسهولة واحدة، وكلُّ ذلك يتوقف على طبيعة المُحَرِّض، لا، كما لدى الشخص المنفرد، على العلاقات بين العمل الملقَّن وحاصل العقل الذي يمكن أن يعارِض تحقيقَ هذا العمل.

ثمّ إن الجماعة، وهي تحوم على الدوام فوق حدود اللاشعور وتعاني كلَّ تلقين وتهتزُّ بقوة المشاعر الخاصة بأشخاص عاجزين عن الاستعانة بالمؤثرات العقلية، لا يمكنها أن تبدوَ إلّا مفرطةً في سرعة تصديقها، وليس غيرُ المحتمل أمرًا موجودًا لدى الجماعة، ويجب أن يُذكَر هذا لتُدْرَك السهولةُ التي تُولَد وتَنتشِر بها أبعدُ الأساطير والأقاصيص عن الصواب([4]).

وليس ابتداع الأقاصيص التي تدور بسهولة بين الجماعات نتيجةَ سرعةِ تصديق تامّ فقط، بل هو أيضًا نتيجةُ ما يعتور الحوادثَ من تشويه عظيم في خيال الأفراد المجتمعين، ولم تلبث الجماعة أن تَمسَخ أبسط الحوادث، والجماعةُ تُفكِّر بالأخْيِلة، وكلُّ خيالٍ مُحضَرٍ يَسْتحضر طائفةً من الخيالات لا

ترتبط في الخيال الأول بأية رابطة، ومن اليسير أن تتمثل هذه الحالَ عند تأملنا في تعاقب الأفكار الغريب الذي يسوقنا إليه استدعاء أيِّ أمر في بعض الأحيان، والعقل يدلُّ على عدم ارتباط مثل تلك الصور، بَيْدَ أن الجماعة لا تَرَى ذلك، والجماعةُ تَخلِط بالحادثة ما يُضِيفه إليها خيالها المُشَوِّه، والجماعةُ، إذ تَعْجِز عن التفريق بين الظاهر والباطن، تذهب إلى أن ما في نفسها من صُوَر مُحْضَرة أمرٌ حقيقيٌّ، وهذه الصور مما لا يكون بينها وبين المُشاهَد سوى نَسَب بعيد في الغالب.

ويجب، كما يظهر، أن يكون التشويهُ الذي تُصِيبُ به الجماعةُ ما تشاهده من حادثةٍ متنوعًا مختلفَ المعاني ما دام الأشخاصُ الذين تتألف منهم الجماعة ذوي أمزجة مُنوَّعة إلى الغاية، ولكن الواقعَ غيرُ هذا، فضروبُ التشويه بفعل العدوى ذاتُ طبيعة واحدة ومعنًى واحدٍ لدى جميع أفراد الجماعة، وبيانُ الأمر أنه يتألف من التشويه الأول الذي يُبْصره أحدُ أولئك الأفراد نَوَاةُ التلقين المُعْدِي، ومما لا ريب فيه أن القديس جورج لم يَبْدُ لغير واحد من الحُضُور قبل أن يظهر فوق أسوار القدس لجميع الصليبيين، ولم يُعَتِّم الجميع أن رَضِيَ بالمعجزة المشار إليها بفعل التلقين والعدوى.

ذلك هو أصل الهَوْسات الجَمْعِيَّة الكثيرة في التاريخ والتي يلوح أنها مَحفوفة بضروب الصحة المأثورة لأنها من الحوادث التي شاهدها ألوف الناس.

ولا تُنَاقِض نفسيةُ الأفراد الذين تتألف الجماعة منهم ذلك المبدأَ لِما ليس لتلك الصفة من الأهمية، فالأفرادُ إذا ما تألَّفَت منهم جماعةٌ تساوى الجاهل والعالم منهم في العجز عن الملاحظة.

وقد تبدو تلك القضيةُ غريبةً، ويجب لإثباتها ذكرُ عدد كبير من الحوادث التاريخية، ولا يكفي لهذا عِدَّةُ مجلدات.

ومع ذلك لا أرغب في ترك القارئ أمام قضايا بلا دليل، فتراني أذكُر بضعةَ أمثلةٍ أخذتها اتفاقًا من بين جميع ما يمكن الاستشهاد به من الأمثلة.

إن الحادثَ الآتيَ هو من أبرز الحوادث لاختياره من بين الهَوْسات الجَمْعِيَّة المُشتدَّة على جماعة كانت مؤلفةً من أفراد من كلِّ نوع، أي كانت مشتملة على جهلاءَ وعلماء، وقد روى ذلك الحادث، اتفاقًا، رُبَّانُ السفينة جُولْيان فِيلِيكْس في كتابه عن مجاري البحر بعد أن نشره في المجلة العلمية.

كانت البارجةُ لَابِل بُول تَطوف في البحر لتَجِد السفينةَ الحربية البِيرْسُو التي فصلتها عاصفة شديدة، وكان نهارٌ، وكانت شمسٌ، ويُشير الراصدُ بغتةً إلى زَوْرَق نُزعت صواريه وقُلُوعُه، وينظر المَلَّاحون إلى الناحية المشار إليها، ويُبصر جميع الرَّبَابِنة والنَّوَاتِي طَوْفًا مشحونًا بأناس وتَجُرُّه زوارقُ تُرسل إشاراتِ الغوث، ويُجهِّز أميرُ البحر دِيفُوسِّه زورقًا ليَخِفَّ إلى الغَرْقَى، ويرى مَلَّاحو هذا الزورق وضباطُه وهم يقتربون «جموعًا من الناس يضطربون

ويَمُدُّون أيديَهم، ويسمع أولئك صوتًا مختلطًا يخرج من أناس كثيرين»، ولما وَصَل أولئك إلى الطَّوْف وجدوا أنفسهم تِجاه بضعة أغصان مُغطَّاة بأوراق مقطوعة من الشاطئ القريب، فأمام هذه الحقيقة المحسوسة زال الهَوَس.

ويَكشِف هذا المثالُ بوضوحٍ عن جهاز الهَوَس الجَمْعِيِّ كما بَيَّناه، فمن جهةٍ ترى جماعة في حال انتباه انتظاريّ، ومن جهةٍ أخرى ترى تلقينًا قام به الراصد وهو يُشِير إلى زورق نُزعت صَوَاريه وقُلُوعُه في البحر فيسري هذا التلقين بالعدوى إلى جميع الحضور من رَبَابِنةٍ ونَوَاتٍ.

وليس على الجماعة أن تكون كثيرةَ العدد لتضمحلَّ فيها صفة رؤية الأشياء على الوجه الصحيح ولتقوم الهَوْساتُ مقام ما لا قرابة بينها وبينه من الحقائق، فإذا ما اجتمع بضعة أشخاص أَلَّفوا جماعة، وهنالك يكتسبون صفاتِ الجماعات في الموضوعات الخارجة عن دائرة اختصاصهم ولو كانوا من فطاحل العلماء، وهنالك يزول ما عند كلِّ واحد منهم من ملكة الملاحظة وروح النقد.

وقد أتانا العالِمُ النفسيُّ الأريب مسيو دافي بمثال طريف نشرته مجلة «حَوْليَّات العلوم النفسية»، فنرى أنّه خليق بأن نذكره في هذا الكتاب، وهو أن مسيو دافي عقد اجتماعًا من الباحثين الممتازين، وفيهم مستر والاس الذي هو من أبعد علماء إنكلترا صيتًا، فأجرى أمامهم جميعَ ظواهر استحضار الأرواح المأثورة كتجسيم الأرواح والكتابة على السَّبُّورة إلخ، وذلك بعد أن تركهم يفحصون الأدواتِ ويضعون الخُتُم حيث يشاؤون، فلما أخذ من هؤلاء الحُضَّار المشهورين شهاداتٍ خطيةً قالوا فيها مُوَكدين إن الحوادث التي رَأَوْها مما لا يُنال إلّا بوسائلَ فوق قدرة البشر أبان لهم أنها نتيجةُ شعوذة بسيطة إلى الغاية، ومن قَول راوي الحكاية: «إن الذي أَدْعَى إلى الدَّهش في بحث مسيو دافي ليس ما في حركاته نفسِها من طرافة، بل فَرْط الضعف في الشهادات التي خطَّها شهودٌ لم يَنْفُذوا السِّرَّ، فالشهود يمكنهم، إذن، أن يَرْوُوا قصصًا مُختلَّةً كثيرة على أنها واقعية، مع أن النتيجة هي أنه لو قُبِل وصفُهم على أنه صحيح لتعذر إيضاح ما يَصِفُونه من الحوادث بالشعوذة، وإن الطرق التي ابتدعها مسيو دافي هي من البساطة بحيث يَحارُ المرء من إقدامه على استخدامها، غير أنه كان لمسيو دافي من السلطان على روح الجماعة ما استطاع به أن يجعلها ترى ما لم تكن لترى»، أَلَا إن ذلك هو سلطان المُنَوِّم على المُنَوَّم، ولكنك إذا رأيت حكم هذا السلطان يَسْري على ذوي النفوس العالية التي حُذِّرَت مُقَدَّمًا أبصرتَ السهولة التي تَهِمُ بها الجماعاتُ العادية.

والأمثلةُ التي هي من ذلك النوع لا تُحصى، ومنها أن الجرائد رَوَتْ منذ بضع سنين قصةَ الطفلتين الغريقتين اللتين صار انتشالهما من نهر السِّين، فهاتان الابنتان قد عُرِفَتا في بدء الأمر من قِبَل بضعة نَفَرٍ من الشهود معرفةً قاطعة، ولم يَبْقَ في نفس قاضي التحقيق أيُّ شكٍّ في أمرهما تِجاه شهادة أولئك

الشهود المتطابقة الموكدة فأصدر وثيقةً بموتهما، وفيما أخذ الناس يَدْفِنُونهما عُرِفَ مصادفةً أن الضحيتين المُفْترضتيْن لا تزالان من الأحياء وأنّه لم يكن بينهما وبين الغريقتين سوى شَبَه بعيد، والأمرُ هنا، كما في كثير من الأمثلة المذكورة آنفًا، هو أن توكيد الشاهد الأول، الذي ذهب فريسةَ الوَهْم، كَفَى لتلقين الآخرين.

وفي أحوال مماثلة، كتلك يكون بدءُ التلقين على الدوام وَهْمًا ناشئًا في شخص بما يذكره هذا الشخص ذكرًا مبهمًا، ثمّ يَسْرِي هذا الوَهْم الأول بالعدوى الموكدة، فإذا كان المُشَاهِد الأول سريعَ الانفعال كفاه أن تكون الجُثَّةُ ذاتَ سِمَة خاصة، كندْبة أو رَقْشة، لتُوحِيَ إليه بصورة شخص آخر، وذلك مع عدم وجود أيِّ شَبَه آخر، وهنالك تغدو الصورة المُوحَى بها نَوَاةَ تَبَلُّرٍ مستحوذةً على دائرة الإدراك مُعَطِّلَةً لكلِّ مَلَكة نقدٍ، ويعود الشّيء الذي يراه المُشَاهِدُ إذْ ذاك غيرَ الشّيء نفسِه، بل صورةٌ مستحضَرة في النفس، وعلى هذا الوجه تُفَسَّر المعارف المغلوط فيها عن جُثث الأولاد من قِبَل أمهاتهم، كالحادث الآتي الذي وقع منذ زمنٍ فيتجلى فيه وجها التلقين الذي ذكرتُ جهازَه فيما تقدم:

«عَرَف الولدَ ولدٌ آخر معرفةً خاطئة، فأدّت هذه المعرفة إلى سلسلة من المعارف الخاطئة مثلها إذْ ذاك.

وحَدثَ أمرٌ غريب إلى الغاية، فقد عَرَف الولد في اليوم التالي تلميذ، فصرخت امرأةٌ قائلةً: «ربّاه، إنه ولدي!»

وتُدْخَل الأمُّ قريبةً إلى الجُثة وتفحص ثيابها وترى نَدْبة على الجبين فتقول: «هذا هو ولدي المسكين الذي فُقِد منذ يوليو (تموز) الأخير، لقد سُرِق مني، لقد قُتِل!»

كانت تلك المرأة تعمل بَوَّابةً في شارع فور، وكان اسمها شفَانْدره، ويُؤْتَى بسِلْفها فيقول: «هذا هو فِيلِيبِر الصغير!»، ويَعْرِف جميع سكان الشارع فِيلِيبِر شفَانْدرِه في الولد، وذلك فضلًا عن معلمه الخاص في المدرسة الذي عَدَّ التميمةَ سِمَةً.

وكان الجيران والسِّلْف ومعلم المدرسة والأمُّ على ضلال، فلما مَرَّتْ ستةُ أسابيعَ عُرفت حقيقة الولد، أي ظهر أنّه من أهل بوردو وأنّه قُتِل في بوردو فأتت به شركات النقل إلى باريس»([5]).

ولنلاحظ أن تلك المعارف هي من عمل النساء والأولاد على العموم، أي من صنع أكثر الناس استعدادًا للتأثّر، وهي تدلُّ على ما يمكن أن يكون لمثل هذه الشهادات من القيمة أمام القضاء، وتوكيداتُ الأولاد على الخصوص هي التي يجب ألَّا يُسْتشهدَ بها، ويُكرِّر القضاة قولَهم الشائع إن مَنْ يكون في تلك السنِّ لا يَكْذِب، فلو كانت لديهم ثَقافةٌ في علم النفس أوسعُ مما هم عليه

لوجدوا أنّه يَكْذِب في تلك السنِّ على الدوام تقريبًا، ويكون الكَذِب في هذه الحال غيرَ آثم لا ريب، ولكنه لا يَخْرُج عن أنّه كَذِب، والأجدرُ أن يُبْنَى تجريمُ المتهم على أحَد وَجْهَي النَّقْد: الظُّفْراء والنقش، مما على شهادة صبيّ كما يُصْنع كثيرًا.

وإذا ما عدنا إلى مشاهدات الجماعات وجدناها أكثرَ المشاهداتِ خطأً، وأنها في الغالب وليدة وَهْم بسيط يعتور شخصًا فيُلَقَّنه الآخرون بالعدوى.

وما لا يُحصى من الوقائع يدلُّ على ما يجب من الحَذَر التامِّ تِجاه شهادة الجماعات، فقد حَضَر ألوف الرجال حَمْلةَ الفرسان الشهيرةَ في معركة سِيدَان، ويستحيل، مع ذلك، أن يُعرف قائدُها بسبب شهادات العِيان المتناقضة، وقد أثبت القائد الإنكليزيُّ وُلْسلِي في كتاب حديث أن أفدح الأغاليط اقْتُرِفَت حتى الآن حَوْلَ أهمِّ الوقائع في معركة واتِرْلُو على ما كان من تحقيق مئات الشهود لها([6]).

وأقول مُكرِّرًا إن جميع هذه الأمثلة تدلُّ على ضعف قيمة شهادة الجماعات، وتُدْخِل رسائلُ المنطق إجماعَ عدد كبير من الشهود إلى فصل الأدلة التي هي أصحُّ ما يكون في إثبات أمر، غير أن ما نَعْرِفه من روح الجماعات يدلُّ على درجة تَطَرُّق الوَهْم إلى تلك الرسائل في ذلك، والحقُّ أن أشدّ ما يُشَكُّ فيه من الحوادث هو ما يكون قد شاهده أكبر عدد من الناس، والقولُ إن الحادث الواحد قد شاهده ألوف الشهود في وقت واحد يَعْنِي أن الحادث الحقيقيَّ يختلف اختلافًا كبيرًا عما اتفق عليه أولئك الشهود.

ومما تقدم يُرَى بوضوحٍ وجوبِ عَدِّ كُتب التاريخ كُتُبًا في الخيال الصِّرف، فهذه هي مجموعة أقاصيص كَيْفِيَّةٍ عن حوادثَ لم تُشاهَد جيدًا، فأضيفت إليها إيضاحاتٌ مختَلَقة بعد حين، ولو لم يترك لنا الماضي آثارَه الأدبية والفنية والمعمارية ما عَرَفْنا عنه شيئًا حقيقيًّا، أفنعرف كلمةً صحيحة واحدة عن حياة أعاظم الرجال الذين مَثَّلوا شأنًا كبيرًا في البشرية كهِرْكُول وبُدَّهَة (بوذا) وعيسى ومحمد([7])؟ كلّا، على ما يحتمل، وليست حياة هؤلاء مما نبالي به كثيرًا مع ذلك، فالذين أثَّروا في الجماعات هم الأبطال الأسطوريون، لا الأبطال الحقيقيون.

ومن دواعي الأسف أن تكون الأقاصيص عاطلة من أيِّ ثبات، فخيالُ الجماعات يُحوِّلها تحويلًا مستمرًّا بحسب الأزمنة، والعروق على الخصوص، والفرق عظيمٌ بين يَهْوَه التوراةِ السَّفَّاحِ وإلهِ المحبة: إلهِ القديسة تيريز، ولا تَجدُ وَجه شبهٍ بين بُدَّهَة المعبود في الصين وبُدَّهَة الذي يُقَدَّس له في الهند.

ولا ضرورة إلى مرور قرون على الأبطال حتى يُحوِّل خيال الجماعات قِصَّتهم، فقد يقع هذا التحويل في بضع سنين أحيانًا، ومما رأيناه في أيامنا أن قِصَّةَ عظيم من عظماء التاريخ قد تحولت عِدَّةَ مراتٍ في أقلَّ من خمسين

سنة، وبيانُ الأمر أن نابليون أصبح في عهد البُورْبُون رجلًا راعيًا مُحِبًّا للإنسانية كريمًا صديقًا للضعفاء فوَجَب على رأي الشعراء أن يَحْفَظ هؤلاء الضعفاءُ ذكراه في أكواخهم زمنًا طويلًا، فلما انقضت ثلاثون سنة عُدَّ هذا البطلُ الحليم مستبدًّا سفاحًا غاصبًا للسلطة والحرية مضحيًا بثلاثة ملايين من الرجال في سبيل طموحه فقط، واليوم تتحول هذه الأسطورة أيضًا، فإذا ما مضت بضعةُ عشرٍ من القرون غدا من المحتمل أن يَشُكَّ علماء المستقبل في ظهور ذلك البطل تِجاه هذه الأقاصيص المتناقضة، كما نشكُّ أحيانًا في ظهور بُدَّهَة، فلا يَرَوْن فيه إلّا رجلًا من رجال الأساطير أو صورةً مُجَسَّمة لهِرْكُول، ومما لا ريب فيه أن أولئك العلماءَ يَجدون في ذلك الشكِّ ما يَتَسلَّوْن به لِما يكون لديهم من اطلاع على روح الجماعات أكثر مما في الوقت الحاضر فيعرفون أن التاريخ لا يمكنه غيرُ تخليد الأساطير.

3 – غلوُّ مشاعر الجماعات وبساطتُها

لمشاعر الجماعة صفة البساطة وصفة الغُلُوِّ، طيبةً كانت تلك المشاعرُ أو سيئة، والفردُ في الجماعة من هذه الناحية، كما في غيرها، يَدْنُو من الفطريين، والفردُ آنئذٍ، إذ يكون بعيدًا من التنوع، يَنظر إلى الأمور جملةً ولا يَعْرِف الانتقال، وفي الجماعة يشتدُّ غُلُوُّ المشاعر بالأمر القائل إن المشاعر إذ تنتشر سريعًا بالتلقين والعدوى يزيدها قوةً ما يتفق لها من قبول.

وما في مشاعر الجماعات من بساطة وغُلُوّ فيصونها من الشكِّ والتردد، والجماعاتُ تَسْلُك طريقَ التطرف من فَوْرها كالنساء، وما يساورها من رَيْب فلا يُعَتِّم أن ينقلب إلى بَدَاهة قاطعة، وما يبقى راقدًا في الشخص وهو منفردٌ من نفور ولَوْم فلا يلبث أن يصير حقدًا ضاريًا لديه وهو في الجماعة.

وعُنف المشاعر في الجماعات يزيد شدةً في المتخالف منها على الخصوص لفُقدان المسؤولية، ويَعْظُم يقين الجماعة بعدم العقاب كلما زادت عددًا، وما توحي به الكثرة من سلطان موقت كبير فيجعل من الممكن أن تنال الجماعةُ مشاعرَ وأن تَأتيَ أعمالًا تستحيل على الشخص المنفرد، وفي الجماعات يَتحرر الغبيُّ والجاهل والحسود من الشعور بما تقوم القوة الجافية المؤقتة الواسعة مقامه من القِصَر والعجز.

وما في الجماعات من غُلُوّ فيتجلى مع الأسف في المشاعر الرديئة في الغالب، والمشاعرُ الرديئة هي بقية غرائز الإنسان الابتدائيِّ الموروثةِ التي يَحْمِل على زجرها خَوْفُ الإنسان المنفرد المسؤول من العقاب، وبهذا تُفَسَّر سهولة اقتراف الجماعات لأسوأ أعمال العنف.

والجماعاتُ إذا ما لُقِّنت بمهارةٍ غَدَتْ قادرةً على البطولةِ والإخلاص، والجماعاتُ أقدر على ذلك من الشخص وهو منفرد، وسيتاح لنا الرجوع إلى هذه الناحية عندما ندرس أخلاق الجماعات عما قليل.

والجماعة إذ كانت لا تتأثر سوى بالمشاعر المتطرفة وجب على الخطيب الذي يَوَدُّ إغواءها أن يُفْرِط في التوكيدات العنيفة، وإن المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم محاولة الدليل العقليِّ وسائلُ بَرْهَنةٍ مألوفةٌ لدى خطباء الاجتماعات الشعبية.

والجماعةُ تطالب بُغلُوٍّ في مشاعر أبطالها أيضًا، فيجب أن يُغْرَق في مبالغة صفاتهم وفضائلهم على الدوام، وفي المسرح تطلب الجماعة من بطل الرواية ما لا يُزاوَل في الحياة أبدًا من الفضائل والشجاعة والأخلاق.

ومن الصواب أن حُدِّث عن بَصريَّاتٍ خاصة بالمسرح، ولا ريب في وجودها، بيد أن لا صِلة بين قواعدها وبين المنطق والذوق السليم في الغالب، ولا ريب في أن فنَّ مخاطبة الجماعات هو من طراز منحطّ، بَيْد أنه يتطلب أهلياتٍ من نوع خاصّ، وأحيانًا يُحَارُ في تقدير نجاح بعض الروايات عند قراءتها، وعمومًا يكون مديرو المسارح أنفسُهم مترددين في أمر نجاحها عندما يتسلمونها لِما يتطلبه حكمهم في ذلك مِن تَحوُّلهم إلى جماعة([8])، ولو أتيح لنا التوسُع في الموضوع لَسَهُل علينا أن نُثْبت به أيضًا تأثيرَ العرق العظيم، وذلك لأن الرواية التي تُثِير حماسةَ جماعةٍ في بلد تظلُّ في بعض الأحيان غيرَ ذاتِ نصيب من النجاح في بلد آخر أو أنها لا تَنَال فيه غيرَ نجاح إكراميّ أو اصطلاحيّ، وذلك لِما ليس فيها من عواملَ قادرةٍ على تحريك الجُمهور الجديد.

ولا احتياجَ إلى أن نضيف إلى ما تقدم قولَنا إن غُلُوَّ الجماعات يتجلى في المشاعر، لا في العقل، والشخصُ إذا ما كان في الجماعة انحطَّ مستواه العقليُّ إلى أبعد حدّ كما بَيَّنْت ذلك آنفًا، ومثلُ ذلك ما حَقَّقه مسيو تارد حينما بحث في جرائم الجماعات، ولذا كان صعود الجماعات عاليًا أو هبوطُها سافلًا في دائرة المشاعر فقط.

4 – عدمُ تسامح الجماعات وتَحَكُّمُها ومحافظتُها

بما أن الجماعاتِ لا تَعرف غير المشاعر البسيطة المتطرفة فإنها تَرْضَى بما تُلَقَّنه من الآراء والأفكار والمعتقدات أو تَرْفُضه دفعةً واحدة، وهي تَعُدُّه حقائقَ مطلقةً أو أغاليطَ مطلقةً، وهذا هو أمر المعتقدات التي هي وليدة التلقين لا التعقل، وكلٌّ يَعلم عدمَ تسامح المعتقدات الدينية ودرجةَ ما لها من السلطان المطلق على النفوس.

وإذ ليس لدى الجماعة شكٌّ فيما تعتقده صوابًا أو خطًا، وإذ تَشْعُر الجماعةُ بقوتها من ناحية أخرى، فإنها تكون متحكمةً غيرَ متسامحة، والجماعةُ لا تُطِيق الخلاف والجدل أبدًا مع احتمال الفرد لهما، وأقلُّ مخالفة في الاجتماعات العامة تَصْدُر عن الخطيب تقابَلُ بأصوات الغضب وأعنف الشتائم، فإذا أصرَّ الخطيب قليلًا على موقفه ضُرِب وطُرِد، وما أكثر ما يكون القتلُ نصيبَ المخالف لولا وجود رجال الشُّرْطة المزعج.

والتَّحكم وعدم التسامح أمران عامَّان في جميع الجماعات، ولكن على درجات مختلفة، وهنا يتجلى مبدأُ العرق المهيمنُ على مشاعر الناس وأفكارهم، والتحكمُ وعدم التسامح خُلقان ناميان في الأمم اللاتينية على الخصوص، وهما يبلغان في هذه الأمم من الشدة ما يُقَوِّضان به مشاعر الاستقلال الشخصيِّ القوية كثيرًا لدى الأنغلوسكسون، ولا تعبأ الجماعات اللاتينية إلَّا بالاستقلال الجمعيِّ لطائفتها، وظاهرةُ هذا الاستقلال هي الاحتياج إلى إخضاع المخالفين لمعتقدات هذه الجماعات بعنف في الحال، ولم يَسْتطِع اليعاقبة في كلِّ جيل منذ دور محاكم التفتيش أن يَرتقُوا لدى الأمم اللاتينية إلى مبدأ في الحرية غيرِ ذلك.

والتحكمُ وعدمُ التسامح من أوضح المشاعر في الجماعات، والجماعاتُ تَتَمثلهما وترضاهما بسهولة عند فرضهما، والجماعاتُ تحترم القوة ولا تتأثر بالصلاح إلَّا قليلًا لعَدِّها الصلاحَ وجهًا من وجوه الضعف، والجماعاتُ لا تميل بقلبها إلى ذوي الحلم من السادة، بل إلى الطُّغاة الذين يهيمنون عليها بشدة، ولهؤلاء الطُّغاةِ تُقيم الجماعات أعلى التماثيل على الدوام، وإذا كانت الجماعاتُ تَدُوس أحد المستبدين الذين سقطوا فلأن هذا المستبد فَقَد سلطانَه فدخل زمرة الضعفاء الذي يُزْدرَوْن فلا يُخْشَوْن، ومثالُ البطل العزيزُ على الجماعات هو من يكون على نَمَط قيصر، فهو يَبْهَرهم بريش تاجه ويُسَخِّرهم لسلطانه ويخيفهم بسيفه.

والجماعةُ، وهي مستعدة للانقضاض على السلطة الضعيفة في كلِّ وقت، تَرْكع بدناءةٍ أمام السلطة القوية، وإذا كان عمل السلطة متقطعًا فإن الجماعة تنتقل بالتناوب من الفوضى إلى الخضوع ومن الخضوع إلى الفوضى لِما تَعْلم من تَطَرُّف مشاعرها دومًا.

ومن جَهل روح الجماعات أن تُعْتَقد سيطرةُ الغرائز الثورية عليها، والوَهمُ في ذلك يتطرق إلينا من اندفاعاتها، وما يصدر عنها من عصيانٍ وتخريب فهو موقتٌ على الدوام، واللاشعور يهيمن على الجماعات، ومن ثَمَّ تخضع الجماعات لعامل الوِراثة المتأصلِ فتبدو محافظةً إلى الغاية، والجماعاتُ إذا ما تُرِكَت وشأنُها بَدَتْ تَعِبةً من الفوضى فسارت بغريزتها نحو العبودية، ومن ذلك أن أشدَّ اليعاقبة غطرسةً واستعصاءً هتفوا بحرارة لبونابارت حينما قضى على جميع الحريات وكشَّر عن أنيابه.

ويظلُّ تاريخ الثوْرات الشعبية غيرَ مُدْرَك تقريبًا إذا جُهِل عُمْق ما في الجماعات من غرائز المحافظة، أجل، ترغب الجماعات في تغيير أسماء نُظُمها فتقوم بأعنف الثَّوْرات للوصول إلى هذا التغيير، غير أن أساس هذه النُّظُم هو عُنوان احتياجات العرق الموروثةِ فتعود هذه النُّظُم إلى ذلك الأساس على الدوام، ولا يتناول تقلّبُ الجماعات المستمرُّ سوى الأمورِ السطحية، والجماعاتُ هي في الحِقيقة ذاتُ غرائزَ محافظةٍ متأصِّلةٍ،

والجماعاتُ تحترم التقاليدَ احترامًا دينيًّا كالفطريين، فتَمْقُت، غيرَ شاعرةٍ، كلّ تَجَدُّد مؤدّ إلى تغيير أحوال حياتها الحقيقية، ولو كان سلطان الديموقراطيات الحاضرُ موجودًا وقت اختراع الصِّناعات الميكانيكية والبخار والخطوط الحديدية لَتَعَذر تحقيق هذه الاختراعات أو لكانت الثَّوْرات المُكَرَّرة ثمنًا لها، فمن حُسْن حظِّ تقدم الحضارة أن سلطانَ الجماعات لم يظهر إلّا بعد أن تَمَّت الاكتشافات العلمية والصِّناعية الكبيرة.

5 – أخلاق الجماعات

إذا ما قَصَدْنا بكلمة الأخلاق احترامَ بعض العقود الاجتماعية على الدوام وقَمْعَ اندفاعات الأَثَرة باستمرارٍ كان من الواضح أن الجماعاتِ هي من شِدَّة الاندفاع والتقلّب ما لا تتأثر معه بالأخلاق، ولكننا إذا أردنا بذلك ظهورَ بعض الصفات ظهورًا موقتًا كإنكار الذات والإخلاص والتنزه عن الغرض والتضحية بالنفس والميل إلى الإنصاف أمكننا أن نقول إن الجماعاتِ أهلٌ للاتصاف بأخلاقٍ رفيعةٍ إلى الغاية.

وعلماء النفس القليلون الذين بحثوا في الجماعات لم يدرسوا أمرها إلّا من حيث أعمالُها الإجرامية، وهم إذا أبصروا كثرة هذه الأعمال وَجَدُوا الجماعاتِ في مستوًى منحطّ جدًّا.

والجماعاتُ تقوم بأعمال مُصَدِّقةٍ لما يذهب إليه أولئك العلماء لا ريب، ولكن لماذا؟ ذلك لأن غرائز التوحش المخربةَ هي رواسبُ الأجيال الأولى الراقدةُ في أعماق نفس كلِّ واحد منا. ومن الخطر أن يُرْوِيَ المرء وهو منفردٌ غليلَ تلك الغرائز على حين يمنحه استغراقُ جماعةٍ غيرِ مسؤولةٍ وأَمْنُهُ من العقاب بذلك كلَّ حرية في اتباع تلك الغرائز، ونحن إذ لم نَسْتطِع أن نمارس تلك الغرائز المُخَرِّبة ضد أمثالنا فإننا نقتصر في إروائنا لها بممارستها ضدَّ الحيوانات، فمن مصدرٍ واحدٍ يُشْتق الكَلَفُ بالصيد وضرَاءُ الجماعات، والجماعةُ حين تُهَشِّم إحدى الضحايا العُزْلِ تدلُّ على أنها ذات قسوةٍ بالغةِ النذالة، بَيْدَ أن الفيلسوف يرى في ذلك قرابةً وثيقة بين تلك الجماعة والصيادين الذين يجتمعون زُمَرًا زُمَرًا ليتلذذوا بمشاهدة وَعْل تُمَزِّقه كلابهم.

وإذا كانت الجماعةُ قادرة على القتل والحرق وكلِّ نوع من الجرائم فإنها أهلٌ أيضًا للإتيان بأعمال التضحية والتنزه عن الغرض التي هي أسنى كثيرًا مما يمكن الشخصَ أن يصنعه منها وهو منفردٌ، والشخص في الجماعة على الخصوص هو الذي يُطَالَب بالسَّيْر، وذلك باستدعاء مشاعر المجد والشرف والدين والوطن، ومن يَنْظُرْ إلى التاريخ يَجِدْه مملوءًا بأمثلة للحروب الصليبية ومتطوعي سنة 1793، والجماعاتُ وحدَها هي التي يَصْدُر عنها أعظم ما يكون من الإخلاص والخلوِّ من المآرب، وما أكثر الجماعاتِ التي ضَحَّت بنفسها باسلةً في سبيل ما لا تكاد تَفْقَه معناه من معتقدات ومبادئ، والجماعاتُ تقوم

بإضراباتٍ إطاعةً لأمرٍ أكثرَ من طمعها في زيادة أجْرٍ، ومن النادر أن تكون المنفعة الشخصية عاملًا قويًّا لدى الجماعات، على حين تبدو العاملَ الوحيدَ تقريبًا لدى الشخص وهو منفرد، وليست المنفعة الشخصية بالحقيقة هي التي سَيَّرَت الجموع فيما يستعصي على ذكائها أن يُدْركه من الحروب التي لا تُعَدُّ فَدَعتْ نفسها تَسْقُط في ميدانها بسهولة كالقنابر التي تَخْتِلها مرآة الصّيَّاد.

حتى إن أحط الناس يكتسبون في بعض الأحيان مبادئَ خُلقيةً وثيقة إذا ما تألفت منهم جماعة، فمما لاحظه تاين أن قَتَلة (أيلول) سبتمبر وَضعوا على مِنْضَدة اللِّجان الثورية ما وَجَدوه لدى ضحاياهم من المَحافِظ والحُليِّ مع أنه كان يسهل عليهم أن يُخْفُوه، ولم تتناول الجماعةُ الصاخبة المتكاثرة البائسة، التي استولت على قصر التويلري في أثناء ثورة سنة 1848، شيئًا من الأدوات التي كانت تبهرها والتي كانت الواحدةُ منها تكفي لإعاشتها أيامًا كثيرة.

أجل، إن تهذيب الجماعة للفرد ليس قاعدةً مُطَّرِدة، بَيْدَ أن هذا التهذيب مما يُشاهَد بكثرةٍ حتى في أحوالٍ أقلَّ خطورةً من التي ذكرتُها، ففي المسرح الذي ألمعت إليه آنفًا تطالبُ الجماعةُ بطلَ الرواية بأعلى الفضائل، ويبدو الحُضُور ذوِي حِشْمة كبيرة في بعض الأحيان ولو كانوا من عناصرَ منحطةٍ، فيتذمر الشُّهوانُ المُحْترف والقَوَّاد والخَليعُ المُدمن، في الغالب، إذا ما رَأَوْا منظرًا منافيًا للحياء أو سَمِعوا قولًا طائشًا مما يُغْضُون عنه في محادثاتهم العادية.

ترى مما تقدم أن الجماعاتِ إذا كانت تسير مع غرائزها المنحطة في الغالب فإنها تأتي أعمالًا خُلقية عالية في بعض الأحيان، وإذا كان التَّنزُّه عن الغرض والتسليمُ والإخلاص المطلق لهدفٍ وَهميٍّ أو حقيقيّ فضائلَ خُلقيةً أمكننا أن نقول إن الجماعات تَحُوز هذه الفضائلَ أحيانًا إلى حدٍّ يَنْدر أن ينتهيَ إليه أكثرُ الفلاسفة حكمةً، ولا ضَيْر في أن تكون ممارسة الجماعات لهذه الفضائل أمرًا غيرَ شعوريّ، فلو كانت الجماعات تتعقل في أكثر الأوقات فتنظرُ إلى الأمور من خِلال مصالحها المباشرة ما تقدمت حضارة على وجه الأرض على ما يحتمل ولَعَطِلَت البشرية من التاريخ.

الفصل الثالث
أفكارُ الجماعاتِ وتعقّلاتُها وخيالُها

(1) أفكار الجماعات – الأفكار الأساسية والأفكار التابعة – كيف تجتمع الأفكار المتناقضة – ما يجب أن يعتور الأفكار العالية من التحول لتستمرئها الجماعات – شأن الأفكار الاجتماعي مستقل عما تنطوي عليه هذه الأفكار من الحقائق – (2) تعقّل الجماعات – لا تتأثر الجماعات بالمعقولات – تعقّل الجماعات منحط كثيرًا على الدوام – ما تشترك فيه الجماعات من الأفكار لا يتشابه ولا يتوارد إلّا في الظاهر – (3) خيال الجماعات – قوة خيال الجماعات – تفكر الجماعات بالخيالات، وتتوارد هذه الخيالات بغير رابطة – ناحية الأمور الباهرة هي التي تبهر الجماعات على الخصوص – الباهر والأسطوري هما ركنا الحضارات الحقيقيان – الخيال الشعبي كان أساس سلطان رجال السياسة على الدوام – كيف تبدو الأمور التي يمكنها أن تؤثر في خيال الجماعات.

1 – أفكارُ الجماعات

دَرَسْنا في كتاب سابق شأنَ الأفكار في تطور الأمم فأثبتنا أن كلَّ حضارة تُشْتَقُّ من أفكار أساسية قليلة يَنْدُر أن تتجدد، ومما عرضناه فيه كيفيةُ استقرار هذه المبادئ في روح الجماعات ودرجةُ صعوبة نفوذها فيها وما يَتَّفق لها من القوة بعد أن تَنْفُذَها، ومما بَيَّناه فيه أيضًا أن أعظم الاضطرابات التاريخية تُشْتَقُّ في الغالب من تَحَوُّل تلك الأفكار.

وقد عالجنا ذلك الموضوع بما فيه الكفاية فلا نعود إليه مقتصرين على بضع كلمات عن الأفكار التي تستمرئها الجماعات وعن الأوجه التي تَتَمثلها بها.

يمكن تقسيمُ تلك الأفكار إلى قسمين، فنضع في القسم الأول الأفكارَ العَرَضيَّة العابرة التي هي وليدة مؤثراتِ الساعة الراهنة كالوَلُوع بفرد أو بمذهب مثلًا، ونضع في القسم الثاني الأفكارَ الأساسية التي تَمُنُّ البيئة والوِراثة والرأي عليها بثبات عظيم، كالأفكار الدينية فيما مضى والأفكار الديموقراطية والاجتماعية في الوقت الحاضر.

وقد تُشَبَّه الأفكارُ الأساسية بمياه النهر التي تجري وئيدةً في مجراه وتُشَبَّه الأفكار العَرَضيَّة بالأمواج الصغيرة المتحولة دومًا المضطربةِ على سطحه والتي تكون باديةً أكثر من سَيْر النهر نفسه مع عدم أهميتها الحقيقية.

وفي أيامنا تظهر الأفكار الأساسية العظيمة، التي عاش عليها أجدادنا، مضطربةً مقدارًا فمقدارًا كما تظهر النُّظُم التي تقوم عليها مزلزلةً زَلزلةً عميقة، ويتألف في الزمن الحاليِّ كثيرٌ من تلك الأفكار الصغيرة العَرَضيَّة التي تكلمت عنها منذ هُنَيْهة، بَيْد أن القليل منها يكتسب نفوذًا عظيمًا كما يَلُوح.

ومهما تكن الأفكار التي تُلَقَّنها الجماعات لا تكون مؤثرةً إلَّا إذا اكتسبت شكلًا بسيطًا جدًّا وتمثلت في نفسها على صورة خيالات، ولا تَجِدُ أيةَ رابطةِ تشابهٍ منطقيةٍ أو أيةَ رابطةِ تواردٍ بين هذه الأفكار الخيالية، وبعضُ هذه الأفكار

الخيالية قد يقوم مقام بعضٍ كزجاجات المِصْباح السحريِّ التي يُخْرِجها المُشَعْوِذ واحدةً بعد الأخرى من العُلْبة التي تكون مُنَضَّدة فيها، ويمكن أن يُرَى في الجماعات، إذن، تعاقبُ أشدِّ الأفكار تناقضًا، وتكون الجماعات بحسب مصادفات الحِين تحت تأثير أحد مختلف الأفكار المخزونة في ذهنها فتأتي أشدَّ الأعمال تباينًا، وما تكون عليه الجماعات من فُقْدان روح النقد يَحُول دون شعورها بالمتناقضات.

وليس ذلك الأمر خاصًّا بالجماعات، بل يُشاهَد أيضًا لدى كثير من الأشخاص المنفردين، لا بين الفطريين وحدَهم، بل عند جميع الذين يشابهون الفطريين وَفْق ناحية من روحهم كأشياع الإيمان الدينيِّ القويِّ مثلًا، ومن ذلك أنني شاهدت هذه الظاهرة لدى الهندوس المثقفين الذين تَخَرجوا في جامعاتنا الأوروبية ونالوا جميع شهاداتها، أي إنني وجدت طبقة من الأفكار الغربية تنَضدتْ، من غير إفسادٍ، على أساس ما لا قرابة بينها وبينه من أفكارهم الدينية أو الاجتماعية، فكلا الأفكار يبدو في مَوْكِب خُطَب الهندوس الخاصِّ بحسب مصادفات الوقت، فيتجلى في الشخص نفسه أشدُّ المتناقضات وضوحًا، وهذه المتناقضاتُ هي في الظاهر أكثر مما في الحقيقة، وذلك لأن الأفكار الموروثة وحدَها هي من القوة في الشخص المنفرد ما تغدو به عواملَ سَيْرٍ حقيقيةً، والأعمالُ لا تكون متناقضة في الحين بعد الحين تناقضًا تامًّا إلّا إذا وُجِد الإنسان بين اندفاعات وِراثية مختلفة بفعل التوالد، ومما لا طائل تحته أن أُطيل القولَ هنا عن هذه الظاهرات على ما لها من أهمية نفسية عظيمة، وما على المرء إلَّا أن يَقْضِيَ عشر سنوات في السياحة والملاحظة ليدركها على ما رأى.

والأفكار إذ لا تستمرئها الجماعات إلَّا بعد أن تَلْبَس شكلًا بسيطًا إلى الغاية وجب أن تتغير تغيرًا تامًّا في الغالب لتصبح شعبيةً، ونحن إذا رَجَعْنا البصرَ إلى الأفكار الفلسفية أو العلمية التي هي على شيء من السُّمُوِّ رأينا عُمْقَ ما تقتضيه من التغير لتَهْبِط من طبقة إلى طبقة حتى تَبْلُغَ مستوى الجماعات، وتلك التغيراتُ تتوقف، على الخصوص، على العرق الذي تنتسب إليه هذه الجماعات، غير أن تلك التغيراتِ تكون مُقَلِّلَة مُبَسِّطةً على الدوام، ولو نُظِر إلى الأفكار من الناحية الاجتماعية ما وُجِدتْ لها سلسلةُ مراتبَ، أي لم يُوجَد منها ما هو أرقى من غيره، فالفكرُ بوصوله إلى الجماعات وقدرتِه على تحريكها يكون قد عَطِلَ من كلِّ ما فيه رفعتُه وعظمته.

على أنّه لا أهمية لقيمة الفكر المتسلسلة، ونتائجُ الفكر وحدَها هي الجديرةُ بالاعتبار، فالحقُّ أن الأفكار النصرانية في القرون الوسطى والأفكارَ الديموقراطية في القرن الأخير والأفكارَ الاجتماعية في الواقع الحاضر لم تَرْتَقِ كثيرًا، ويمكن عَدُّها هزيلة من الناحية الفلسفية، وشأنُها كان، وسيكون، عظيمًا مع ذلك، وسَتُعَدُّ لطويلِ زمنٍ بين العوامل الجوهرية في قيادة الدول.

والفكرُ، مع ما يعتوره من تغيرٍ تستمرئه الجماعات به، لا يغدو مُؤَثِّرًا إلّا إذا نَفَذَ دائرةَ اللاشعور وأصبح من المشاعر بطرق مختلفة سندرسها في فصل آخر، وهذا التحولُ طويلٌ جدًّا على العموم.

ولا تَظُنَّ أن صواب الفكر يكون ثابتًا بما يمكن أن ينشأ عنه حتى لدى ذوي النفوس النَّيِّرة، وهذا يبدو عند النظر إلى أن أوضح الأدلة ذو تأثير ضئيل في مُعْظم الناس، نَعَمْ، يمكن أن يَعْرِف الأمرَ البديهيَّ الساطعَ مستمعٌ مُثَقَّفٌ، غير أن هذا المستمع لا يُعَتِّم أن ينقاد غيرَ شاعرٍ لمبادئه الأصلية، فإذا ما لقِيتَه بعد بضعة أيام وجدته يسوق إليك مجددًا براهينَه القديمة بِصِيَغِها الأولى، فالواقعُ أنّه خاضعٌ لأفكار سابقة أصبحت مشاعرَ، وهذه الأفكار هي التي تُؤَثِّر في عوامل أفعالنا وأقوالنا.

والفكرُ إذا ما انتهى بطرقٍ مختلفة إلى الرسوخ في روح الجماعات اكتسب قوةً لا تقاوَم وأسفر عن سلسلة من النتائج، والأفكارُ الفلسفية التي نَجَمَت عنها الثورة الفرنسية لم تتأصل في الروح الشعبية إلّا بعد زمن طويل، وكلٌّ يعلم ما كان لها من قوة قاهرة عندما استقرت بها، وما كان من صَوْلة شعبٍ بأَسْرِه في سبيل المساواة الاجتماعية وتحقيقِ الحقوق المجردة والحرياتِ المِثَالِيَّة، فقد ضعضع جميع العروش وقَلَب العالمَ الغربيَّ رأسًا على عَقِب، وفي عشرين سنة انقضَّ بعض الشعوب على بعض وعَرَفَت أوروبا من المذابح ما يقاس بمذابح جنكيز خان وتيمورلنك، وما كان ليَبْدُوَ بأوضحَ من ذلك ما يُسْفِر عنه ثَورانُ الأفكار القادرةِ على تغيير اتجاه المشاعر.

وإذا كان استقرار الأفكار بروح الجماعات يتطلب زمنًا طويلًا فإن ما تتطلبه لتَخْرُج منها ليس أقلَّ طولًا من ذلك، ولذا ترى الجماعاتِ تتأخر عن العلماء والفلاسفة عِدَّةَ أجيال في ميدان الأفكار، وجميعُ أقطاب السياسة يعلمون اليوم ما في الأفكار الأساسية المذكورة منذ هُنَيْهة من الخطأ، غير أن هذه الأفكار لا تزال قوية إلى الغاية، فترى هؤلاء الأقطابَ مضطرين إلى الحكم وَفْقَ مبادئَ عادوا لا يؤمنون بصحتها.

2 – تَعَقُّلُ الجماعات

لا يجري القولُ بأنه لا يُؤَثَّر في الجماعات بالمعقولات على إطلاقه، غير أن ما تتخذه الجماعات من البراهين وما تَتَأثر به منها يبدو من الناحية المنطقية من نوع هو من الانحطاط ما لا يُطْلَق به تعبيرُ المعقولات عليه إلّا تَجَوُّزًا.

أجل، يقوم ما لدى الجماعات من تَعَقُّل منحطّ على تناداياتٍ كالمعقولات الرفيعة، بَيْد أنّه ليس بين الأفكار المتنادية في الجماعات سوى روابطَ متشابهةٍ أو متعاقبة في الظاهر، فتسلسلُ هذه الأفكار كتسلسل أفكار الأَسْكِيميِّ الذي يعْلم بالتجرِبة أن الثلج وهو جسمٌ شفافٌ يذوب في الفَم فيَسْتنبط من ذلك أن الزجاج وهو جسمٌ شفافٌ كذلك يجب أن يذوب في الفم

أيضًا، أو كتسلسل أفكار الهمجيِّ الذي يُخَيَّل إليه أنّه يَغْدُو شجاعًا إذا ما أكل قلبَ شجاع، أو كتسلسل أفكار العامل الذي يستغلُّه ربُّ العمل فيذهب إلى أن جميع أرباب العمل مُسْتَغِلُّون.

وتقوم مُمَيِّزات المنطق الجمعيِّ على تنادياتِ أمورٍ متباينة ليس بينها سوى صلات ظاهرة، وعلى التعميم الفُجَائيِّ لأحوال خاصة، وتنادياتٌ من هذا القبيل هي ما يوجبه في الجماعات خطباءُ يَعْرِفون قيادتها، وهؤلاء الخطباء وحدَهم هم الذين يُؤَثِّرون فيها، والجماعاتُ لا تُدْرِك سلسلةً وثيقة من المعقولات، ولذا يمكن القول بأن الجماعاتِ لا تَتَعقل، أو إن تَعَقّلها فاسدٌ، وأنه لا يُؤثِّر فيها بالمعقول، نعم، إن ضَعْف بعض الخُطَب التي لها عظيمُ تأثيرٍ في سامعيها يُثِير الحَيْرة أحيانًا عند قراءتها، ولكنه يغيب عن البال أن تلك الخُطَب وُضِعَت لقيادة الجماعات، لا ليطالعها الفلاسفة، والخطيبُ إذا ما كان وثيق الاتصال بالجماعة عَلِم كيف يُحْضِر من الصُّوَرِ ما يَفْتِنها به، والخطيبُ إذا ما وُفِّق لذلك بَلَغ غايته، ولا يَعْدِل مُجَلَّد من الخُطَب بضعَ جُمَلٍ تُغْوِي ما يجب إقناعُه من النفوس.

ومما لا طائل تحته أن نُضِيف إلى ما تقدم قولَنا إن عَجْز الجماعات عن التعقل الصحيح يَنْزِع منها روح النقد، أي استعدادَ تمييز الخطأ من الصواب، أي صَوْغَ حُكْمٍ صحيح، وما تَرْضَى به الجماعات من الأحكام فمفروضٌ غيرُ مُنَاقَش فيه، والأفرادُ الذين لا يجاوزون مستوى الجماعات كثيرٌ، وتقوم السهولة التي تغدو بها بعض الآراء عامةً، على الخصوص، على عَجْز مُعْظم الناس عن أن يكون لهم آراءٌ خاصة قائمة على تَعَقّلاتهم الذاتية.

3 – خيال الجماعات

خيالُ الجماعات التصوريُّ ذو استعداد للتأثر العميق كجميع الموجودات التي لا أثر للتعقل فيها، وللصُّوَر التي يُثِيرها في روح الجماعات شخصٌ أو حادث أو رُزْء من الأثر البعيد ما للأمور الواقعية، والجماعاتُ تكون في حال النَّؤُوم الذي يَقِفُ عقلُه لِحِينٍ فتساور نفسَه صُوَرٌ شديدة إلى الغاية فلا تُعَتِّم أن تتبدد عند التأمل، والجماعاتُ إذ تَعْجِز عن التأمل والتعقل لا تَعْرِف المستحيل، والواقع أن أكثر الأشياء استحالةً أشدُّها وقعًا للنظر على العموم.

من أجْل ذلك كان ما في الحوادث من النواحي الغريبة والأُسْطوريَّة أشدَّ الأمور تأثيرًا في الجماعات، والغريبُ والأسطوريُّ في الحقيقة هما دِعامتا الحضارة الحقيقيتان، وفي التاريخ مَثَّل الظاهريُّ دورًا أهمَّ من الحقيقيِّ على الدوام، وفي التاريخ يفوق الوهميُّ الحقيقيَّ.

والجماعاتُ، إذ لم تَقْدِر على التفكير بغير الخيالات، لا يُؤَثِّر فيها إلّا بالخيالات، والخيالاتُ وحدَها هي التي تُرْهِبها أو تُغْوِيها فتغدو عواملَ سَيْرٍ فيها.

ولذلك كان للتمثيل الروائيِّ الذي يُبْرِز الخيالَ على وجهه السافر تأثيرٌ عظيم في كل حين، وكان للعاميِّ الرومانيِّ من الخبز والمَشاهِد مَثَلُ السعادة الأعلى، ولم يتغير هذا المثل الأعلى مع الأجيال إلّا قليلًا، ولا شيء يَقِفُ الخيالَ الشعبيَّ أكثرَ من الرواية التمثيلية، فتعتري البَهْوَ رَوْعةٌ واحدة في آنٍ واحد، وإذا كانت هذه الرَّوْعة لا تَخْرُج إلى حَيِّز العمل من فَوْرها فلأن أكثر الحضور عَدَمَ شعورٍ لا يجهل أنّه ضحية الأوهام وأنه ضَحِك أو بَكَى بفعل مغامرات خيالية، ومما يحدث أحيانًا، مع ذلك، أن تكون المشاعر التي تُوحِي بها الأخْيلة من القوة ما تنتقل به إلى العمل كما يؤدي إليه التلقين عادةً، ومما يُرْوَى في الغالب قِصَّةُ ذلك المسرح الشعبيِّ الفاجعيِّ الذي كان يُضْطَرُّ إلى حماية الممثل الذي مَثَّلَ دورَ الخائن عند خروجه من المسرح إنقاذًا له من عُنْف الحضور الذين أغضبتهم جرائمه الخيالية، وهنالك أوضحُ الأدلة على حال الجماعات النفسية على ما أرَى، ولا سيما السهولةُ التي تُلَقَّنُ بها، فللوهميِّ من الأهمية ما للحقيقيِّ تقريبًا، والجماعاتُ تميل ميلًا واضحًا إلى عدم التفريق بينهما.

وعلى الخيال الشعبيِّ قامت سلطة الفاتحين وقوة الدول، والجماعاتُ تُقاد بالتأثير فيها، وليست حوادث التاريخ العظيمةُ، كظهور البُدَّهِيَّةِ (البوذية) والنصرانية والإسلام والإصلاح الدينيِّ والثورة الفرنسية والغزو الاشتراكيِّ المُتَوَعِّد، إلّا نتائجَ قريبةً أو بعيدة للتأثير القويِّ في خيال الجماعات.

وكذلك عدَّ أقطاب السياسة في جميع الأجيال والبلدان، حتى أشدُّهم استبدادًا، دِعَامَة سلطانهم في الخيال الشعبيِّ، وهم لم يحاولوا الحُكْم بغيره قطُّ، ومن قول نابليون في مجلس شورى الدولة: «لقد أنْهَيْتُ حربَ فاندا بانتحالي الكثلكة، واستوليتُ على مصر بانتحالي الإسلام، واستملتُ قساوسة إيطاليا بانتحالي مبادئ البابوية، ولو مَلَكْتُ شعبًا يهوديًّا لأعدتُ هيكل سليمان»، ومن المحتمل أنّه لم يظهر منذ الإسكندر وقيصرَ رجلٌ عظيمٌ أحسنُ من نابليون إدراكًا لِما يجب أن يُؤَثَّر به في خيال الجماعات، وبَهْرُ هذا الخيالِ كان هَمَّ نابليون الدائمَ، وهذا ما كان يُفكِّر فيه في انتصاراته وخُطبه وأحاديثه وجميع أفعاله، وهذا ما كان يفكر فيه وهو على سَرير موته أيضًا.

وكيف يُؤَثَّر في خيال الجماعات؟ ذلك ما سنراه عما قليل، وإنما نقول الآن إن البراهين المُعَدَّة للتأثير في الذكاء والعقل عاجزةٌ عن بلوغ تلك الغاية، وما كان أنطونيوس محتاجًا إلى علم بيانٍ ليُثِيرَ الشعب على قاتلي قيصر، بل قَرَأَ على الشعب وصيةَ قيصر وأراه جُثَّتَه.

ويبدو كلُّ شيء يَقِفُ خيالَ الجماعات على شكل صورة مؤثرة واضحة خالية من الشروح اللاحقة، أو أنّه لا يضاف إليها غيرُ الأمور العجيبة كالإشارة إلى انتصار بالغ أو معجزة باهرة أو جرم كبير أو أمل عظيم، ويَحْسُن أن تُعرَض الأمور دفعةً واحدة من غيرِ أن يشار إلى تكوينها أبدًا، وليسِ مما يَقِفُ خيال

الجماعات مئةُ جرم صغير أو مئةُ رُزْء صغير، على حين يُؤَثّر فيه تأثيرًا بالغًا بجرم كبير أو بلاء عظيم، ولو كانت نتائج هاتين الظاهرتين أقلَّ فتكًا من نتائج مئات الأَرْزاء مجتمعةً، ومن ذلك أن الزَّكْمَةَ الوافدةَ الكبيرةَ (الأنفلونزا) أهلكت بباريسَ خمسة آلاف شخص في بضعة أسابيعَ فلم تَقِفْ خيالَ الشعب إلّا قليلًا، وذلك لأنه لم يُعْرَب عن هذه الملحمة ببعض الصور المنظورة في الحقيقة، بل أُعْرِب عنها بإحصاءات أسبوعية، ولو حدث أن هَلَك في ميدان عام خمسُمئة شخص في يوم واحد بفعل بَلِيَّةٍ بَيِّنة كسقوط برج إيفِل مثلًا، وذلك بدلًا من تلك الآلاف الخمسة، لاعترى الخيال أثرٌ هائل، ومما حدث أن انقطعت أخبار إحدى بواخر الأطلنطيِّ فافْتُرِض غَرَقُها في سَوَاء البحر فأثَّر ذلك في خيال الجماعات تأثيرًا عميقًا مدةَ ثمانية أيام، ومما دلت عليه الإحصاءات الرسمية بالحقيقة غَرَقُ نحو ألف مركب كبير في تلك السنة فلم تَشْغَل الجماعاتُ بالَها ثانيةً بسبب هذه الرزايا التي هي في مجموعها أهمُّ من رَزِية غَرَق تلك الباخرة، لو وَقَع، هلاكَ أرواحٍ وضَياعَ أموالٍ.

إذن، ليست الأمور نفسُها هي التي تَقِف خيال الشعب، بل الوجهُ الذي تبدو به هذه الأمور، فعلى هذه الأمور أن تتكاثف، إذا قَدَرْتُ بهذا على التعبير عما في نفس، فتُحْدِثَ صورةً مؤثرةً تساور النفس وتملؤها، فمن يَعْرِفْ فنَّ التأثير في خيال الجماعات يَعْرِفْ فنَّ سياستها.

الفصل الرابع
الأصبغة الدينية التي تصطبغ بها عقائد الجماعات

من أيّ شيء يتألف الشعور الديني – الشعور الديني مستقل عن عبادة الألوهية – مميزات الشعور الديني – قوة الاعتقادات التي تكتسب شكلًا دينيًّا – أمثلة مختلفة – الآلهة الشعبية لم تزل قط – الوجوه الجديدة التي تبعث بها – أصبغة الإلحاد الدينية – أهمية هذه المبادئ من الوجهة التاريخية – الإصلاح الديني ومذبحة سان بارتلمي والهول وجميع الحوادث المماثلة هي نتيجة المشاعر الدينية في الجماعات، لا نتيجة إرادة أشخاص منفردين.

بَيَّنا أن الجماعات لا تتعقل، وأنها تَقْبَل الأفكار أو ترفضها جملةً واحدة، وأنها لا تطِيق الجِدالَ ولا المناقضةَ، وأن التلقين إذ يُؤَثِّر فيها يستحوذ على قوة إدراكها فلا يَلْبَث أن يتحول إلى عمل، وبَيَّنا أن الجماعاتِ إذا ما لُقِّنَت كما ينبغي استَعَدت للتضحية بنفسها في سبيل ما لُقِّنَته من مثلٍ عالٍ، ثمّ بَيَّنا أن الجماعاتِ لا تَعْرِف سوى المشاعر الشديدة المتطرفة، وأن الميل العاطفيَّ لا يَنْشَب أن ينقلب فيها إلى عبادة، وأن النفور لا يكاد يظهر فيها حتى يتحولَ إلى حقد، فهذه البياناتُ العامةُ تُشْعِر بطبيعة عقائد الجماعات.

ونحن إذا بحثنا عن كَثَبٍ في عقائد الجماعات، سواءٌ في أدوار الإيمان أم في الانقلابات السياسية العظيمة كالتي حَدَثَت في القرن السابق، وجدناها ذاتَ شكل خاصّ لم نَرَ خيرًا من تسميته بالشعور الدينيِّ.

ولهذا الشعور مُمَيِّزات بسيطة جدًّا، وهي: عبادةُ موجودٍ افتُرِض سُمُوُّه، وخَشْيَةُ ما يُعْزَى إليه من القدرة، والانقيادُ الأعمى لأوامره، وتَعَذّر الجِدال في تعاليمه، والرغبةُ في نشر هذه التعاليم وعَدُّ كلِّ من يرفض اعتناقَها عدوًّا، ويظلُّ ذلك الشعور الدينيُّ من جوهر واحد على الدوام، سواءٌ أَطُبِّق على إله خَفِيّ أم على صنم حجريّ أم على بطل أو فكر سياسيّ، وتَجِدُ في ذلك الشعور ما فوق الطبيعة وما هو مُعْجِزٌ على السواء، والجماعاتُ تُلْبِس مثل هذه القدرة الدينية ما يُغْريها على التعصب من صيغة سياسية أو زعيم منصور حينًا من الزمن.

ولا يكون الإنسان متدينًا إلّا إذا عَبَدَ إلهًا فقط، بل يصبح متدينًا أيضًا عندما يضع جميع منابع نفسه وجميع انقيادات إرادته وجميعَ إجَاجِ تعصبه في خدمة قضية أو موجودٍ غدا غايةَ المشاعر والأعمال ورائدَها.

والتعصبُ وعدم التسامح يلازمان الشعورَ الدينيَّ ملازمةً دائمة، ولا مناص منهما عند من يعتقدون حيازتَهم سرَّ السعادة الدنيوية أو الأبدية، وتَجِدُ هاتين الصفتين في أفراد كلِّ جماعة إذا ما أثارها معتقدٌ ما، فكان يَعاقِبَةُ الهول متدينين في الصميم كتدين كاثوليك محاكم التفتيش وكانت حماستهم الجائرة تُشْتَق من المصدر نفسه.

وتتصف عقائد الجماعات بما يلازم الشعورَ الدينيَّ من الخضوع الأعمى والتعصب الشديد والإكراه في الدعوة، ويمكن أن يقال، إذن، إن جميع المعتقدات ذاتُ صبغة دينية، وعند الجماعات إن البطل الذي تُصَفِّق له هو إلهٌ في الحقيقة، وذلك هو أمر نابليون مدة خمسَ عشرةَ سنة، ولم يتفق لإله من العُبَّاد الخُلَّص ما اتَّفَق لنابليون، ولا ترى إلهًا استطاع أن يقود الرجال إلى الموت بسهولة كما استطاع، ولم يكن لآلهة الوثنية والنصرانية من السلطان المطلق على النفوس أكثرُ مما كان له.

ولم يُقِمْ مؤسسو المعتقدات الدينية أو السياسية هذه المعتقداتِ إلّا بعد أن عَرَفوا أن يفْرِضوا على الجماعات مشاعرَ التعصب الدينيِّ التي يَجِدُ فيها الإنسانُ سعادته في العبادة والتي تَحْفِزه إلى التضحية بحياته في سبيل معبوده، وهذا ما حدث في كلِّ دور، ومن قول مسيو فُوسْتِل دُو كُولَنْج الصائبِ في كتابه المُمْتِع عن بلاد الغول الرومانية إن سلطان الإمبراطورية الرومانية لم يَدُم بالقهر قَطُّ، بل دام بما كان يُوحِي به من الإعجاب الدينيِّ، «فليس في تاريخ العالم مثالٌ على دوام نظام تَمْقته الشعوب خمسةَ قرون… وإلَّا لم نُفَسِّر كيف أن فِرَق الإمبراطورية الثلاثين استطاعت أن تُكْره مئة مليون من الناس على الطاعة»، وإذا ما أطاع مئةُ المليون هؤلاء فلأن عظمة روما كانت تتجسد في القيصر فيُعْبَدُ بالإجماع كإلهٍ، فتَجِدُ له محاريبَ حتى في أحقر القرى، «ومما ساور نفوسَ أهل ذلك الزمن في جميع أرجاء الإمبراطورية دينٌ جديد كان القياصرة أنفسُهم آلهتَه، وقبل التاريخ الميلاديِّ ببضع سنين أقامت جميع بلاد الغول المُمَثَّلةِ بستين مدينةً معبدًا مشتركًا للقيصر أغسطس قريبًا من مدينة ليون… وكان كَهَنَةُ هذا المعبد الذين انْتُخِبوا في مجلس المدن الغولية أعيانَ بلادهم… ومن المستحيل أن تَعْزُوَ جميعَ هذا إلى الخوف والنذالة، فالنذالةُ لا تكون في شعوب بأَسْرها، وإذا وُجِدَت فلا تدوم ثلاثةَ قرون، وليس أفراد الحاشية هم الذين كانوا يعبدون القيصر، بل روما، وليست روما وحدَها هي التي كانت تَعْبُده، بل بلادُ الغول وإسبانيا واليونان وآسيا أيضًا».

واليوم لا ترى لمُعْظم فاتحي النفوس هياكلَ أبدًا، ولكنك تَجِدُ لهم تماثيلَ أو صُوَرًا، وما يَتَّفق لهم من عبادةٍ لا يختلف كثيرًا عن عبادتهم في الماضي، ولا يُدْرَك شيء من فلسفة التاريخ إلّا بعد أن تُنْفَذ هذه الناحيةُ الأساسية من روح الجماعات، فمن لم يكن إلهًا لدى الجماعات فلا يكون شيئًا عندها.

ولا تَقُلْ إن هذه هي خرافاتُ جيلٍ ماضٍ هَزَمَها العقل نهائيًّا، فالمشاعرُ لم تُغْلَبْ قَطُّ في صراعها الأزليِّ ضدَّ العقل، أجل، إن الجماعاتِ عادت لا تُطيق سماع ما كان قد هيمن عليها طويلَ زمنٍ من أسماء الألوهية والدين، بَيْد أنها لم تُقِمْ في دَوْرٍ من التماثيل والهياكل بمقدار ما أقامته منذ قرن، وما كان الحركة الشعبية المعروفة بالبُولانْجيَّة فيُثْبِت مَبْلَغ استعداد الغرائز الدينية

للظهور ثانيةً، فلم يَخْلُ فنْدُقٌ في قرية من صورة للبطل، وكانت تُعْزَى إليه قدرةٌ على معالجة ضروب الجَوْر وجميع الشرور، وما كان ألوف الرجال ليَضِنُّوا بحياتهم في سبيله، وما أعظم المقامَ الذي كان يَحْتَلُّه في التاريخ لو اتفق له من السَّجِيَّة ما تُدْعَم به أسطورتُه!

ومما لا طائل تحته أن نُعِيد القول بأنه لا بدَّ للجماعات من دين، ولا تستقرُّ المعتقدات السياسية والإلهية والاجتماعية بالجماعات إلّا باكتسابها شكلًا دينيًّا على الدوام فتكون به في حِمًى من الجَدَل، ولو أمكن حملُ الجماعات على الإلحاد لاكتسب هذا الإلحادُ ما في الشعور الدينيِّ من شِدَّةِ تعصب، ولأضحى في وجوهه الظاهرة ضَرْبًا من العبادة بسرعة، ولنا في تطور المذهب الوَضْعِيِّ الصغير مثالٌ طريف على ذلك، ويشابه هذا المذهبُ ذلك العَدَميَّ الذي روى العلامة دُوسْتُوفِيسْكي لنا قِصَّتَه، فقد سطعت أنوار العقل على هذا العَدَميِّ ذاتَ يومٍ فحَطَّمَ صُوَر الآلهة والقديسين التي كانت تزين هيكل معبده الصغير، وأطفأ الشموع ولم يُبَدِّدْ من الوقت ثانيةً فأحَلَّ محلَّ الصُّوَر المحطمة كُتُبَ بعض الفلاسفة الملحدين كبوخنر ومُولشُوت، ثمّ أشعل الشموعَ ثانيةً بوَرَع، أجل، لقد تحول موضوع معتقداته الدينية، ولكن أيمكن أن يقال إن مشاعره الدينية تغيرت؟

أقول مكرِّرًا إن بعض الحوادث التاريخية، ولا سيّما أَهَمُّها، لا يُدْرَك أمرُه إلّا بعد النظر إلى الشكل الدينيِّ الذي لا تلبث عقائد الجماعات أن تصطبغ به على الدوام، ويتطلب كثيرٌ من الحوادث الاجتماعية دراسةً على طريقة علماء النفس أكثر من تَطَلُّبه دراسةً على نَمَط علماء التاريخ الطبيعيِّ، ولم يَدْرُسْ مؤرخنا الكبير تاين الثورةَ الفرنسية إلّا كعالِم من علماء التاريخ الطبيعيِّ فغاب عنه تكوين الحوادث في الغالب، نعم، إن ملاحظة هذا الكاتب الشهير للحوادث كاملةٌ، ولكنه إذ لم يَنْفُذْ في روح الجماعات لم يَعْرِف أن يَصِلَ إلى عللها في كلِّ وقت، وإذ أفزعته الحوادثُ من ناحيتها الدموية والفوضوية والوحشية فإنه لم يَرَ في أبطال تلك الواقعة غيرَ قوم من المصروعين السائرين وراء غرائزهم بلا رادع، ولا يُفَسِّر ما نشأ عن الثورة الفرنسية من أعمال العنف وسفك الدماء والاحتياج إلى الدعاية وشهرِ الحروب على جميع الملوك إذا عُدَّتْ تلك الثورةُ وليدةَ معتقد دينيّ جديد في روح الجماعات، وما ثورةُ الإصلاح الدينيِّ ومذبحةُ سان بارتلمي والحروبُ الدينية ومحاكم التفتيش والهولُ إلّا حوادثُ من يَنْبُوع واحد، أي صادرةٌ عن تلقين تلك المشاعر الدينية التي تَقُود بحكم الضرورة إلى إبادة من يعارض قيام المعتقد الجديد بالنار والحديد، وما أساليبُ محاكم التفتيش والهولُ إلّا أساليبُ المؤمنين الحقيقيين، وهؤلاء إذا ما اتخذوا أساليب أخرى لم يكونوا مؤمنين.

وانقلاباتٌ كالتي ذكرتُها لا تكون ممكنة إلّا إذا نَبَعتْ من روح الجماعات، ويَعْجِزُ أشدُّ الطُّغاة استبدادًا عن إثارتها، والمؤرخون، حين يُبَيِّنون أن مذبحة

سان بارتلمي هي من عمل أحد الملوك، يَدُلّون على جهلهم روحَ الجماعات وروحَ الملوك، وظاهراتٌ مثلُ تلك لا تَصْدُر عن غير الروح الشعبية، ولا يذهب سلطان أكثر الملوك المطلقين طغيانًا إلى أبعدَ من تعجيل وقوع تلك الانقلابات أو تأجيلِه قليلَ زمنٍ، ولم يكن الملوك هم الذين أحدثوا مذبحة سان بارتلمي والحروبَ الدينية، كما أن رُوبِسْبِير ودانتون وسان جوست لم يُحْدِثوا الهولَ، فخَلْفَ مثلِ هذه الحوادث تَجِدُ روح الجماعات على الدوام.

الباب الثاني
آراء الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول
العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وآرائها

العوامل التمهيدية لمعتقدات الجماعات – تفتّح معتقدات الجماعات هو نتيجة نضج سابق – دراسة مختلف العوامل في تلك المعتقدات – (1) العرق – ما للعرق من تأثير عظيم – العرق هو عنوان تلقينات الأجداد – (2) التقاليد – التقاليد هي خلاصة روح العرق – ما للتقاليد من أهمية اجتماعية – التقاليد تصبح مضرة بعد أن كانت ضرورية – الجماعات هي أكثر المحافظين على الأفكار التقليدية عنادًا – (3) الزمان – الزمان يهيّئ استقرار المعتقدات ثمّ يهيّئ تقويضها – يمكن للنظام أن ينبثق من الفوضى بفضل الزمان – (4) النظم السياسية والاجتماعية – الرأي الخاطئ في شأنها – تأثيرها ضعيف للغاية – هي معلولات لا علل – لا تستطيع الأمم أن تختار النظم التي يلوح لها أنها خير من سواها – النظم عناوين تنطوي على أشدّ الأمور تباينًا – كيف توجد النظم – ضرورة بعض النظم الرديئة نظريًا لبعض الأمم كالنظم المركزية – (5) التعليم والتربية – خطأ الأفكار الحالية في تأثير التعليم لدى الجماعات – ما تشير إليه الإحصاءات – شأن التربية اللاتينية المفسد للأخلاق – النفوذ الذي يمكن أن يكون للتعليم – أمثلة عن أمم مختلفة.

بحثنا في مزاج الجماعات النفسيِّ فَعَرَفْنا طُرُزَ شعورها وتفكيرها وتعقّلها، ولندرس الآن كيفيةَ تَوَلُّد آرائها ومعتقداتها وكيفيةَ استقرار هذه الآراء والمعتقدات.

إن العوامل التي توجب هذه الآراء والمعتقداتِ نوعان: العواملُ البعيدة والعوامل القريبة.

فأما العواملُ البعيدة فهي التي تجعل الجماعاتِ قادرةً على اتخاذ بعض المعتقدات وغيرَ مستعدة لتَقَبُّل معتقداتٍ أخرى، وهذه العوامل تهيّئ البُقْعة التي تَنْبُت فيها أفكار جديدة بغتةً، فتُثِير قوةُ هذه الأفكار ونتائجها الحيرةَ، غير أن تلك الأفكار لا تكون طَوْعِيَّةً إلّا ظاهرًا، ومما يُفَاجِئُ كالصاعقة أحيانًا انفجارُ بعض الأفكار لدى الجماعات والعملُ بها، مع أن هذا ليس في الغالب إلّا نتيجةً سطحية لعملٍ سابق طويل يجب أن يُبْحَث عنه.

وأما العواملُ القريبة فهي التي تَتَنضد فوق ذلك العمل الطويل الذي لا يمكنها أن تُؤَثِّر بغيره، فيكون للجماعات بها مُقْنِعٌ مُؤثِّر، أي إنها تُكْسِب الفكرَ شكلًا وتَفُكّه من عِقاله مع جميع نتائجه، وينبثق بدفع من هذه العوامل القريبة عزائمُ تُثِير الزُّمَر بغتةً، وبهذه العوامل تشتعل فتنة أو يُقَرَّر إضراب، وبها تَرْفَع جُمومٌ غفيرة رجلًا إلى السلطة أو تَقْلِب حكومةً رأسًا على عَقِب.

وفي جميع حوادث التاريخ الكبرى يُرَى تأثير متعاقب لذينك النوعين من العوامل، وإذا لم نتخذ من الأمثلة غيرَ التي تَشْمَل النظرَ فنظرنا إلى الثورة الفرنسية وَجَدْنا بين العوامل البعيدة لهذه الثورة انتقاداتِ الكُتَّابِ ومظالمَ العهد السابق، فلما أُعِدَّت روح الجماعات على هذا الوجه سَهُلَت إثارتها بالعوامل القريبة كخُطب الخطباء ومقاوِمةِ البَلاط للإصلاحات التافهة.

وبين العوامل البعيدة تَجِدُ عواملَ عامةً في صميم جميع آراء الجماعات ومعتقداتها، وهي: العِرْقُ والتقاليد والزمن والنُّظُم والتربية، وسنبحث الآن في شأن كلٍّ واحد منها.

1 – العِرْق

يجب أن يُوضَع عامل العِرْق في الصف الأول لِما له من الأهمية البالغة أكثرَ من غيره بدرجات، وقد درسنا هذا العاملَ في كتاب سابق بما فيه الكفاية فلا نرى فائدة في الكلام عنه مطولًا، وفي ذلك الكتاب بَيَّنا ما هو العِرْق التاريخيّ، فأوضحنا أن العِرْق بعد أن تتكون أخلاقه تغدو معتقداتُه ونُظُمه وفنونه، وإن شِئْتَ فَقُلْ جميع عناصر حضارته، عنوانَ روحه الظاهر، ويبلغ عامل العِرْق من القوة ما لا ينتقل معه أيُّ عنصر من شعب إلى آخر من غير أن يعانيَ أعمق التحولات([9]).

وتُمَثِّل البيئة والأحوال تلقيناتِ الزمن الاجتماعيةَ، وهي يمكنها أن تكون ذات تأثير مُهمّ، ولكنه موقتٌ على الدوام، إذا ما كان هذا التأثير مخالفًا لتلقينات العِرْق، أي لسلسلة الأجداد.

وسَيُتاح لنا، في غير فصل من هذا الكتاب، أن نعود إلى تأثير العِرْق، فنُبَيِّنَ أن هذا التأثير يكون عظيمًا ما سيطر على الأخلاق الخاصة بروح الجماعات، فمن أجْلِ ذلك تَنِمُّ جماعاتُ مختلف البلدان بمعتقداتها وسلوكها عن فروق بارزة جدًّا، وعلى أنّه لا يمكن أن يُؤَثِّر فيها على نَمَط واحد.

2 – التقاليد

تُمَثِّل التقاليد أفكارَ الماضي واحتياجاتِه ومشاعرَه، والتقاليدُ خلاصةُ العِرْق، وهي شديدة الوطأة علينا.

لقد تَحَوَّلَت علوم الحياة منذ أن أثبت علم الأجِنَّة تأثيرَ الماضي العظيم في تطور الموجودات، وستسير العلوم التاريخية على هذا النحو بعد أن ينتشر ذلك المبدأ أكثر من قبل، ولَمَّا ينتشر ذلك المبدأ بما فيه الكفاية، فظلَّ كثير من رجال السياسة قائلين بمبادئ نظريي القرن السابق، فيُخَيَّل إليهم أن المجتمع يمكنه أن يقطع صِلاتِه بالماضي وأن يتجدد بأسْره متخذًا نورَ العقل دليلًا له.

إن الأمة نظامٌ أوجده الماضي، وهذا النظام، ككلَّ نظام، لا يمكنه أن يتحول إلّا بتراكمات وِراثية بطيئة.

وقادةُ الأمم الحقيقيون هي التقاليد، ولا يَسْهُل على هؤلاء القادة أن يُغَيِّروا منها غيرَ الأشكال الخارجية كما قلت ذلك غيرَ مرة، ولا يمكن حضارةً أن تقوم بغير تقاليد، أي بغير روح قومية.

وشُغْلا الإنسان العظيمان، منذ وُجِدَ، هما إيجادُ شبكة من التقاليد ثمّ نَقْضُ هذه الشبكة إذا اعترى الوَهْنُ نتائجَها النافعة، وإذا كانت الحضارة لا تقوم بغير تقاليدَ ثابتةٍ فإنه لا تَقَدُّمَ بغير إزالة هذه التقاليد ببطء، والصعوبةُ هي في إيجاد توازن صحيح بين الثبات والتقلب، وهذه الصعوبة كبيرة، وإذا حَدَث أن أمةً استقرت تقاليدها استقرارًا متينًا في عِدّة أجيال فإن هذه الأمة لا تقدر على التطور فتغدو عاجزةً عن التكامل كالصين، حتى إن الثَّوراتِ العنيفةَ نفسها تصبح عاجزة، وذلك لأن الذي يقع هو أن قِطَعَ السلسلة المُحَطَّمة تُلْحَمُ مرةً أخرى فيستردُّ الماضي سلطانه بلا تبديل، أو أن تؤديَ تلك القِطعُ المتفرقة إلى الفوضى فإلى الانحطاط السريع.

وعملُ الأمة الأساسيُّ يجب أن يَهْدِف أيضًا إلى صيانة نُظُم الماضي مع تعديلها شيئًا فشيئًا، وهذا عمل صعب، والرومانُ في الأزمنة القديمة والإنكليزُ في الأزمنة الحديثة وحدَهم هم الذين حققوا ذلك تقريبًا.

وأشدُّ محافظي الأفكار التقليدية عنادًا وأكثرُ معارضي تبديلها إصرارًا هم الجماعات على التحقيق، ولا سيما نوعُ الجماعات التي تتألف الطبقات منها، وقد سبق أن أسهبتُ الكلامَ عن هذه الروح المحافظة فبَيَّنْت أن كثيرًا من الثوْرات لا يؤدي إلى غير تغيير الألفاظ، ومن ذلك أن كان يوجد في أواخر القرن الماضي ما يُسَوِّغ الاعتقادَ القائل بأن الأفكار القديمة خَسِرَت كلَّ قوة، وذلك عند النظر إلى الكنائس المهدومة، وإلى القساوسة المطرودين أو الذين أُعْدِموا بالمِقْصَلة، وإلى ما أصيب به المذهبُ الكاثوليكيُّ من الاضطهاد العام، فلَما مَضَتْ سنوات قليلة أدَّت احتجاجات الناس العامة إلى إعادة ذلك المذهب المُلْغَى([10]).

ولا تَجِدُ مثالًا أوضحَ مما تقدم في سلطان التقاليد على روح الجماعات، ولا تَعْصِمُ المعابدُ أشدَّ الأصنام رَهْبةً، ولا القصورُ أشدَّ الطُّغاة استبدادًا، فمن السهل تحطيمُها، وإنما يَتَفلت السادةُ غيرُ المنظورين الذين يهيمنون على نفوسنا من كلِّ مَسْعًى، وهم لا يذعنون لغير بِلَى القرون البطيء.

3 – الزمان

الزمانُ من العوامل الفعَّالة في المسائل الاجتماعية كما في مسائل علم الحياة، والزمانُ يُمَثل المُوجِدَ الحقيقيَّ والهادمَ العظيم، والزمانُ هو الذي أقام الجبال من ذرات التراب، وهو الذي رفع الخَلِيَّة الغامضة في العصور الجيولوجية إلى منزلة الإنسان، ويكفي لتحويل أية حادثة أن تنالها يدُ القرون، ومن الصواب أن قيل إن النملة التي يمتدُّ أمامها الزمن يمكنها أن تُسَوِّيَ الجَبَل الأبيض، ومن يَمْلِكْ قوة تصريف الزمان كما يشاء يكنْ صاحبَ القدرة التي يعزوها المؤمنون إلى إلههم.

بَيْدَ أننا لا نتكلم هنا عن غير تأثير الزمن في تكوين المعتقدات، ويظهر أن عمل الزمن من هذه الناحية عظيمٌ أيضًا، والزمنُ يتصرف في القُوَى الكبيرة التي لا يمكن أن تتكون بغيره كالعِرْق مثلًا، والزمنُ هو الذي يُحَوِّل جميع المعتقدات ويُمِيتُها، وبالزمن تكْتسب المعتقداتُ سلطانَها، وبالزمن تَخْسَر المعتقداتُ هذا السلطان.

والزمنُ يهيِّئ آراءَ الجماعات ومعتقداتِها، أي التربةَ التي تَنْبُت فيها، ومن هنا يبدو أن بعض الآراء التي يمكن تحقيقها في زمنٍ لا تُحَقَّق في زمن آخر، والزمنُ يَرْكُم راسبَ المعتقدات والآراء الكبيرَ فتظهر عليه أفكار أحد الأدوار، ولا تَنْبُت هذه الأفكار اتفاقًا وعَرَضًا، فهي ذات جذور تَسُوخ في ماضٍ طويل، وهي إذا أزهرت وقع ذلك بعد أن يكون الزمن قد هَيَّأ تَفَتُّحَها، وإلى الوراء يجب أن يُرْجَع لتَبَيُّنِ تكوينها، وهي بنات الماضي وأمهات المستقبل وإماء الزمان على الدوام.

والزمانُ هو مولانا الحقيقيُّ إذن، ويكفي أن يُتْرَك الزمانُ يسيرُ ليُرَى تَحَوُّل كلِّ شيء، وترى القلق يساورنا كثيرًا لِما يصدر عن الجماعات من رَغَباتٍ ذاتِ وعيدٍ ولِما تَنمُّ هذه الرَّغَبات من تخريبات وانقلابات، والزمانُ وحدَه كفيلٌ بأن يعيد التوازن، ومن الصواب قولُ مسيو لافيس: «لا تَجِدُ نظامًا يقوم في يوم واحد، وما تراه من نُظُم سياسية واجتماعية فهو وليد أعمال تَمَّتْ في قرون، وقد ظلَّ النظام الإقطاعيُّ مُشَوَّهًا مضطربًا قرونًا كثيرة قبل أن يَجِدَ قواعدَه، وقد عاش النظام الملكيُّ المطلق عِدَّة قرون قبل أن يَجِدَ وسائلَ منظمةً للحكم فحدثت اضطراباتٌ عظيمة في أدوار الانتظار تلك».

4 – النُّظمُ السياسية والاجتماعية

لا يزالُ منتشرًا، إلى الغاية، المبدأُ القائل إن النُّظُمَ يمكن أن تعالج مساوئَ المجتمعات، وإن تَقَدُّم الأمم ينشأ عن كمال الدساتير والحكومات، وإن التحولاتِ الاجتماعيةَ تَتِمُّ بقوة المراسيم، وكان هذا المبدأُ نقطةَ البَدَاءة للثورة الفرنسية، وإلى هذا المبدأ تستند النظريات الاجتماعية الحاضرة.

ولم تُوَفَّق أكثر التجارِب اتصالًا لزعزعة هذا الوهم المرهوب، وما حاوله الفلاسفة والمؤرخون من إثبات فساده فقد ذهب أدراج الرياح، ولم يَعْسُر على هؤلاء أن يُبَيِّنوا مع ذلك أن النُّظُم وليدةُ الأفكار والمشاعر والطبائع، وأن الأفكار والمشاعر والطبائع لا تُجَدَّد بتجديد القوانين، والأمةُ لا تختار نُظُمَها كما تشاء كما أنها لا تختار لون عيونها وشعورها، والنُّظُمُ والحكومات ثَمَرةُ العِرْق، ولا تكون النظُم والمعتقدات مُوجِدَةَ أحد الأدوار، بل هي وليدة هذا الدور، ولا تُحْكَم الأمم وَفْقَ هواها في وقتٍ ما، بل تُحْكَم كما تتطلبه أخلاقها، ويقتضي تكوين نظام سياسيّ عِدَّةَ قرون أحيانًا، ويقتضي تبديلُه عِدَّة قرون أيضًا،

وليست في النَّظَم فضيلةٌ ذاتية، وليست النَّظم صالحةً أو طالحة في نفسها، وإذا صَلُحَت النُّظم لأمة في زمن فإنها تكون كريهة في زمن آخر.

ولا تَقْدِر أمةٌ على تغيير نُظُمها تغييرًا حقيقيًّا إذن، أجل، تستطيع الأمة أن تغير اسم النظُم بفعل الثَّوْرات العنيفة لا ريب، ولكن الأساس لا يتغير أبدًا، والأسماءُ هي عناوينُ فارغةٌ لا يُبَالِي بها المؤرخ الذي ينظر إلى قيمة الأمور الحقيقية، ومن هذا القبيل أن إنكلترا أكثرُ بلاد العالم ديموقراطيةً مع أنها خاضعة لنظام مَلَكيّ([11]) على حين ترى الجمهورياتِ الإسبانيةَ الأمريكية التي تسودُها نُظُمٌ جمهورية تعاني استبدادًا شديدًا، فأخلاقُ الأمم، لا الحكوماتُ، هي التي تُعَيِّن مقادير هذه الأمم، وقد حاولتُ أن أُقَرر هذه الحقيقة في كتاب سابق مستندًا إلى أمثلة بارزة.

ولذلك كان من لَغْوِ فارس البيان وعَبَثِه أن يُضيع وقته في صنع الدساتير، والضرورةُ والزمان هما الكفيلان بإعدادها إذا ما تُرِك هذان العاملان يفعلان، وعلى هذا سار الأنغلوسكسون كما نَصَّ عليه المؤرخ الكبير ماكولي في صفحة يجب على محترفي السياسة في جميع البلدان اللاتينية أن يحفظوها عن ظهر قلب، فبعد أن أوضح ماكولي محاسنَ القوانين الناشئة على ما فيها من سوءٍ وتناقض من حيث العقلُ الصِّرْف قابَلَ بين دساتير إنكلترا والبضعةَ عشرَ دستورًا المختنقةِ في اختلاجات الأمم اللاتينية بأوروبا وأمريكا فأظهر أن دساتير إنكلترا لم تتغير إلَّا ببطءٍ مقدارًا فمقدارًا، وذلك بفعل الضرورات، لا بفعل البراهين النظرية، «وإذا سألت عن القواعد التي وجَّهَت مناقشاتِ برلماناتنا الـ 250 منذ عهد حَنَّا حتى عهد فيكتوريا وجدتَها تقوم على عدم المبالاة بالمطابقة وعلى عدم الاكتراث للمنفعة وعلى عدم إزالة الشذوذ لأنه شذوذٌ وعلى عدم الابتداع ما لم يَعْدُ الانحراف محسوسًا وعلى الابتداع بالمقدار الذي يُزَال به هذا الانحراف وعلى عدم وضع اقتراحٍ أوسعَ من الحال الخاصة التي تُعَالَج».

ويجب أن يُبْحَث في قوانين كلِّ أمة ودساتيرها على انفراد لإثبات درجة صدورها عن احتياجات عِرْقها وأنها لا تتغير بعنف لهذا السبب، أجل، يمكن أن يُجَادَل فلسفيًّا في منافع النظام المركزيِّ ومساوئه مثلًا، بَيْدَ أننا إذا ما أبصرنا أمةً مؤلفة من عروق مختلفة تَبذُلُ جهودَ ألف سنة لتصل بالتدريج إلى هذه المركزية، وإذا ما رأينا أن ثورة عظيمة اشتعلت لتحطيم جميع نُظُم الماضي فاضْطُرَّت إلى ضرورات الإفراط في تلك المركزية فضلًا عن احترامها، أمكننا أن نستنبط أن المركزية وليدةُ قاهرة لها وشرطٌ من شروط حياتها فنَرْثي لضعف نفسية رجال السياسة الذين يقولون بتقويضها، ولو كُتِبَ الفوز لرأي هؤلاء مصادفةً لكان هذا الفوز نذيرَ فوضى عميقة([12]) تؤدي إلى نظام مركزيّ جديد أشدَّ وطأً من النظام المركزيِّ السابق.

ومما تقدم نستنتج أنه لا ينبغي أن يُبْحَث في النَّظم عن وسائل التأثير العميق في روح الجماعات، فترى بعض البلاد، كالولايات المتحدة، تزدهر بنُظُم ديموقراطية بما يُثِيرُ العَجَب، على حين ترى بلادًا أخرى، كالجمهوريات الإسبانية الأمريكية، تعيش في فوضى محزنة على الرغم من نُظُمها المشابهة لتلك، وهذه النُّظُمُ هي غيرُ ذاتِ دَخْل في عظمة الأولى كما أنها لا دَخْلَ لها في انحطاط الأخرى، والأمم محكومةٌ بأخلاقها، وكلُّ نظام لا يصدر عن هذه الأخلاق ليس إلّا ثوبًا مستعارًا، ليس إلّا تنكرًا مؤقتًا، ومما لا مِراءَ فيه أن حروبًا داميةً وثوراتٍ عنيفةً اشتعلت، وستوقَد نارُها فيما بعدُ، فَرْضًا لنُظُم يُعْزَى إليها سلطانٌ خارق للعادة قادرٌ على إيجاد السعادة، ويمكن أن يقال، إذَنْ، إن النُّظُم تُؤَثِّر في روح الجماعات بمعنًى لما تقتضيه من تلك الفتن، بَيْد أننا نَعْرف في الحقيقة أن النُّظُم، منصورةً كانت أم مقهورةً، لا تنطوي في ذاتها على أية فضيلة وأن الناظر الذي يَتَتبع فتحَها لا يَتَتبع سوى أوهام.

5 – التعليمُ والتربية

تجد في الصف الأول من الأفكار التي تسود الدور الحاضر الفكر الآتي وهو: أن التعليم يؤدي، لا ريب، إلى إصلاح الناس وجعلهم متساوين، ولم يُعَتِّم هذا الزعم أن أصبح من عقائد الديموقراطية الراسخة بفعل التكرار، وقد صار من الصعب أن يُمَسَّ هذا الاعتقاد في زماننا كما كان يصعُب مسُّ عقائد الكنيسة فيما مضى.

بَيْد أنك ترى اختلافًا شديدًا بين الأفكار الديموقراطية ومُعْطيات علم النفس والتجرِبة، ولم يجد كثيرٌ من أفاضل الفلاسفة ولا سيما هِرْبِرْت سِبِنْسِر، كبيرَ عناءٍ في إثباتهم أن التعليم لا يجعل الإنسان أكثرَ أخلاقًا ولا أعظمَ سعادةً وأنه لا يغيِّر غرائز الإنسان وشهواتِه الموروثة، وأنه إذا ما أُسيء توجيهه أمكن أن يكون ضَرُّه أكبرَ من نفعه، ثمّ جاء علماء الإحصاء فأيدوا ذلك بقولهم إن اقتراف الجرائم يزيد بتعميم التعليم، أو نوعٍ من التعليم على الأقل، وإن الفوضويين الذين هم ألدُّ أعداء المجتمع يُجْمَعون في الغالب من الفائزين في المدارس، ومما أشار إليه القاضي المفضال، مسيو أَدُولْف غِيُّو، أنّه يُعَدُّ في الزمن الحاليِّ ثلاثة آلاف مجرم مثقَّف تجاه ألف مجرم أُميٍّ، وأن نسبة الجرائم في خمسين سنة صارت 552 من كلِّ مئة ألف شخص بعد أن كانت 227، أي بنسبة 133 في المئة، ومما لاحظه ذلك القاضي مع زملائه أن الإجرام يزيد على الخصوص لدى الشبان الذين استبدلوا التعليم الإلزاميَّ مجانًا بالتعليم بأجرة.

ولا ريب في أن أحدًا لم يَقُلْ إن التعليم إذا ما أُحسن توجيهُه لا يؤدي إلى نتائجَ عمليةٍ مفيدة إلى الغاية في تنمية الأهليات المِهنيَّة على الأقل، إن لم يرفع مستوى الأخلاق، ومن المؤسف أن الأمم اللاتينية منذ ثلاثين سنة على الخصوص أقامت نظامها التعليميَّ على مبادئَ مَعيبةٍ جدًّا وأنها تُصرُّ على

أضاليلها المحزنة على الرغم من الملاحظات التي يبديها أناس من ذوي الفضل، مثل بِريال وفُوسْتِل دُو كُولَنْج وتاين وغيرهم، ومما بيَّنته في كتب مختلفة([13]) أن تربيتنا الحاضرة تحوِّل عددًا كبيرًا ممن يتلقَّونها إلى أعداء للمجتمع وأنها تجمع كثيرًا من التلاميذ لأسوأ طرق الاشتراكية.

وأولُ خطر في تلك التربية التي أُصيبَ في وصفها باللاتينية هو في قيامها على خطأ نفسيّ أساسيّ، هو في أن يُتَصوَّر أن استظهار الكتب المختصرة يُنْمِي الذكاء، ومن هنا جاء الجِدُّ في حفظ أقصى ما يمكن أن يحفظ منها عن ظهر قلب، فلا يَصْنَع الشابُّ، من المدرسة الابتدائية حتى الدكتوراه، حتى الأستاذية، سوى ابتلاع محتويات الكتب من غير أن يُعْمِل قوةَ التمييز والمبادرة فيه، فالتعليمُ عنده يقوم على الاستظهار والإطاعة، قال أحد وزراء المعارف العامة السابقين مسيو جُول سِيمُون: «يتألف من استظهار الدروس وحفظِ كتابِ نحوٍ أو موجزٍ على ظهر القلب وإجادةِ التكرار وحسنِ التقليد تربيةٌ هزلية يَنِمُّ كلُّ جهد فيها على تسليمٍ أمام عِصْمَة المعلم ولا يؤدي إلى غير نقصنا وجعلنا من العاجزين».

ولو اقتصر أمر تلك التربية على عدم فائدتها لاكْتُفِىَ بالرِّثاء للأولاد التعساء الذين استُبْدِل بتعليمهم الأمورَ الضرورية الكثيرة تعليمَ سلسلةِ نسب أبناء كُلُوتير ووقائعِ نُسْتِرْيَة وأُسْترازية وفصائلِ الحيوان، ولكن تلك التربية تنطوي على خطر أعظم من ذلك، تنطوي على تلقين من يتلقاها نفورًا شديدًا من الحال التي وُلِد عليها ورغبةً شديدة في الخروج منها، فلا العاملُ يريد أن يكون عاملًا، ولا الفلَّاحُ يريد أن يكون فلاحًا، ولا آخرُ أبناء الطبقة الوسطى يرى لأولاده مهنةً أصلحَ من مناصب الدولة ذات الرواتب، وهكذا ترى المدرسة لا تُعِدُّ رجالًا للحياة، بل تُعِدُّ رجالًا للوظائف العامة التي لا يتطلب النجاح فيها أيَّ بصيصٍ من قوة المبادرة، والمدرسةُ تُوجِدُ في أسفل السُّلَّم الاجتماعيِّ تلك الجحافلَ من الصعاليك الممتعضين من طالعهم والمستعدين للعصيان على الدوام، وتُبْصِر في أعلى ذلك السُّلم طبقتَنا الوسطى الطائشة، المرتابةَ الساذجةَ معًا، والمُشْرَبةَ باعتماد خرافيّ على قدرة الدولة، مع أنها لا تنفكُّ توجِّه سهام اللوم إليها مُجَرِّمةً الحكومةَ بآثامها الخاصة عاجزةً عن إتيان شيء بغير تدخل السلطة.

والدولةُ التي تصنع بالكتب الموجزة حَمَلةَ الشهادات أولئك لا تستطيع أن تستخدم منهم غيرَ عدد قليل فتُضْطَرّ إلى ترك الباقين بلا وظائف، فيجب أن تُسلِّم، إذن، بإجراء الرزق على الأوَّلين ومعاناةِ عداوة الآخرين، ولو نظرتَ إلى الهَرَم الاجتماعيِّ من أعلاه إلى أسفله لوجدتَ جَمْعَ حَمَلَة الشهادات الهائل يحاصر الوظائف فيه في الوقت الحاضر، وقد يَصْعُب على تاجر أن يجد له نائبًا يذهب إلى المستعمرات فيقوم فيها بأعماله، مع أنك تجد ألوف الطلاب الراغبين في أحقر الوظائف العامة، ومن ذلك أن مديرية السِّين

وحدَها تشتمل على عشرين ألف معلم ومعلمة بلا عمل فيخاطبون الدولة في أمر معاشهم في حين يزدرون الحقول والمصانع، وعددُ من يُخْتارُ من هؤلاء للوظائف إذ كان قليلًا عدد الساخطين منهم عظيمًا بحكم الضرورة، فترى هؤلاء مستعدين لجميع الثَّوْرات مهما كان زعماء هذه الثورات وهدفُها، فالحقُّ أن اكتساب معارفَ ضارةٍ هو وسيلة لتحويل الرجل إلى ثائر([14]).

ومن الواضح أن مقاومة ذلك السيل أصبحت بعد الأوان، والتجرِبة وحدَها، وهي آخر مربية للأمم، ستقوم بكشف الغطاء عن خَطَئنا، والتجرِبة وحدَها ستثْبت لنا ضرورة استبدال تعليم مِهنيٍّ قادرٍ على ردِّ الشبيبة إلى ما هو مهجور من الحقول والمصانع والمشاريع الاستعمارية بكتبنا الموجزة البغيضة وبمسابقاتنا التي يُرْثَى لها.

وذلك التعليم المهنيُّ الذي يطالِب به جميعُ ذوي البصائر في الوقت الحاضر هو التعليم الذي تَلَقَّاه آباؤنا فيما مضى، وهو التعليم الذي عَرَفَت أن تحافظ عليه الأمم المسيطرة في الوقت الحاضر على العالم بإرادتها وقوة مبادرتها وروح الإقدام فيها، وقد بيَّن تاين في صفحات ممتازة سأنقلها بعد قليل أن تربيتنا الماضية كانت كالتربية الإنكليزية أو التربية الأمريكية الحاضرة تقريبًا، وقد قابل تاين بين المِنْهاج اللاتينيِّ والمِنْهاج الأنغلوسكسونيِّ مقابلةً عجيبة فأبان نتائج هذين المِنْهاجين.

ولو كان اكتساب المعارف الكثيرة اكتسابًا سطحيًّا واستظهارُ الكتب الموجزة الكثيرة استظهارًا كليًّا يرفعان مستوى الذكاء لرَضِينا بجميع مساوئ تربيتنا المدرسية على ما يحتمل وإن لم تصنع غيرَ منحطين وغيرَ ساخطين، ولكن أتَبْلُغ تربيتُنا هذه النتيجةَ؟ كلَّا مع الأسف، فالتمييزُ والتجرِبة والمبادرة والخُلق شروطٌ للنجاح في الحياة، ولا تُعَلَم هذه الشروط في الكتب، أجل، إن الكتب معاجمُ تفيد مراجعتُها، غير أن من الفضول شَحْنَ الدماغ بطويل الفصول.

وكيف تَقْدِر التربية المِهنيَّة على إنماء الذكاء بما لا تؤدي إليه التربية المدرسية أبدًا؟ ذلك ما أجاد تاين بيانَه في السطور الآتية، قال تاين:

«لا تتكوَّن الأفكار في غيرِ بيئتها الطبيعية الاعتيادية، والذي يُنْبِتُ بِذْرَتَها هو ما لا يُحصَى من المؤثِّرات المحسوسة التي يتلقاها الفتى في كلِّ يوم من المصنع والمَنْجَم والمحكمة والمكتب والمعمل والمَشْفَى، ومن منظر الأدوات والعُدَد والعمليات ومن حضور الزُّبُن والعمال، ومن العمل ومن المصنوع الحسن أو الرديء والغالي أو الرخيص، فهذه هي ما تتناولها العين والأذن واليدان، حتى الشَّامَّةُ، من الأحاسيس الصغيرة الخاصة التي تُلتقط التقاطًا غير مقصود والتي تَنْضَج نُضجًا غيرَ منظور فتنتظم في الفتى لتُوحِيَ إليه، عاجلًا أو آجلًا، بتركيب جديد أو بتبسيطِ مركبٍ أو باقتصاد أو تحسين أو

اختراع، والشابَّ الفرنسيُّ محرومٌ من جميع هذه الملامسات الثمينة ومن جميع هذه العناصر الضرورية التي يَسْهُل هضمها، والشابُّ الفرنسيُّ في السنِّ الخصيبة التي تدوم سبع سنين أو ثماني سنين يُحْجَز في مدرسةٍ بعيدًا من التجرِبة المستقيمة الذاتية التي كانت تَمُنُّ عليه، لولا ذلك، بفهم صحيح حارٍّ للأشياء والناس ولأوجهِ التصرف فيها.

... وتجد تسعةً من العشرة على الأقل قد أضاعوا وقتهم وجهدهم وسنين كثيرةً من حياتهم وسنين فعَّالةً قاطعة، وأنتم عُدُّوا قبل كلِّ شيء نِصْفَ الذين يتقدمون إلى الامتحان أو ثلثيهم، أي المرفوضين، ثمّ عُدُّوا النصف أو الثلثين، أي المنهوكين، بين من كُتِبَ لهم النجاح من المُصنَّفين والمأذونين وحَمَلةِ الشهادات، ومن الإرهاق أن يُطالَبوا بأن يضعوا بياناتٍ حيّةً في طائفة من العلوم باحثةٍ عن جميع المعارف البشرية في ساعتين من نهارٍ مُعَيَّن وهم جالسون على كرسيّ أمام لوْح، والواقعُ أنهم كانوا في ساعتين من ذلك النهار كما ذَكرنا أو كانوا قريبًا مما ذكرنا، بَيْدَ أنهم لا يلبثون أن يصبحوا غير ما ذَكرنا بعد شهر، أي لا يَقْدِرون على مجاوزة امتحان جديد، أي إن ما اكتسبوه، إذ كان كثيرًا ثقيلًا، يَزْلُق من نفوسهم فلا ينالونه مُجدَّدًا وقد ارتخى نشاطهم الذهنيُّ وقد جفَّت عُصارتهم الخصيبة، والرجلُ يظهر إذ ذاك وهو ليس برجلٍ، وهذا الرجل المُصَنَّفُ المتزوج القانع بأن يدور في دائرة وضمن دائرة دَوَرانًا لا حَدّ له يَرْكَنُ إلى عمله الضيق، فيقوم بهذا العمل بانتظام، ولا شيءَ بعد هذا، هذا هو الدخل المتوسط، ولا يوازن الدخلُ الخَرْجَ لا ريب، وعكسُ هذا يقع في إنكلترا وأمريكا، وقبل سنة 1789 في فرنسا، حيث يُسَاوي الدخلُ الخَرْجَ أو يزيد عليه».

وذلك المؤرخُ الشهير يُثبت لنا الفرقَ بين مِنْهاجنا ومِنْهاج الأنغلوسكسون بعد ذلك، وذلك أن التعليم لدى الأنغلوسكسون لا يَصْدُر عن الكتاب، بل عن الشيء نفسه، ومن ذلك أن المهندس يتخرج في مصنع لا في مدرسةٍ بأيِّ وجه فيمكن كلَّ واحد أن يَصِلَ هنالك إلى الدرجة التي تناسب ذكاءه، فهو يكون فيه إما عاملًا وإما عريفًا إذا كان لا يستطيع أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو يكون مهندسًا إذا كان ذا استعداد يؤهِّلُه لذلك، تلك هي طريقةٌ ديموقراطية مفيدة للمجتمع غيرُ التي تقوم بها مهنة الشخص على مسابقةِ بضعِ ساعاتٍ في ثمانيَ عشرةَ سنة أو عشرين سنة، قال تاين:

«يتخرج التلميذ منذ صباه ويتمرن في المَشْفَى أو المَنْجَم أو المصنع أو على المهندس المعماريِّ أو رجل القانون كما يتدرب عندنا الكاتب في مكتبه أو التلميذ في معمله تقريبًا، والتلميذُ في البداءة، وقبل الدخول، يكون قد تَلَقَّى بعض الدروس العامة الموجَزَة لكي تكون لديه مِنْطقةٌ مُهَيَّأَةٌ لتقبُّل ما يبدو له من الملاحظات على أثر دخوله، على أن هنالك بضعةَ دروس فنية يمكنه أن يأخذها في ساعات فراغه فيُنَظِّم بها ما يتَّفق له من التجارِب اليومية شيئًا بعد

شيء، ونظامٌ كهذا يوجب زيادةَ الاستعداد العمليِّ ونموُّه من تلقاء نفسه إلى الدرجة التي تُناسب ملكاتِ التلميذ وفي الاتجاه الذي يتطلبه عمله القادم بصنعٍ خاصّ يلائمه منذ الساعة الراهنة، وهكذا ينتهي الفتى بإنكلترا والولايات المتحدة إلى انتزاع جميع ما في نفسه بنفسه من فَوْره، فإذا بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمره أو كاد يبلغها، وكان لديه من الجوهر والمادة ما يكفي، عاد لا يكون مُنَفِّذًا نافعًا فقط، بل ملتزمٌ من تلقاء نفسه أيضًا، وعاد لا يكون عَجَلَةً فقط، بل مُحَرِّكٌ أيضًا، وفي فرنسا حيث قيلَ بالطريقة المعاكسة، وحيث صارت هذه الطريقة أشدَّ صِينِيَّةً مع الأجيال، غدا مجموعُ القُوَى الضائعة عظيمًا».

ويصلُ ذلك الفيلسوف الكبير إلى النتيجة الآتية في زيادة عدم مطابقة تربيتنا اللاتينية للحياة، فقد قال:

«مُدَّ وأُرْهِق الإعدادُ النظريُّ والمدرسيُّ على المقاعد وبالكتب في مراتب التعليم الثلاث: في الطفولة والمراهقة والفُتوَّة، وذلك في سبيل الامتحان والدرجة والشهادة والمأذونية، في سبيل هذه الأمور فقط، وبأسوأ الوسائل، وبتطبيقِ نظامٍ مضادٍّ للطبيعة مناقضٍ للاجتماع، وبتأجيلٍ مُفْرِطٍ للتَّخرُّج العمليِّ، وبالدراسة الداخلية، وبالاجتذاب المصنوع، وبالحشو الآليِّ، وبالإعياء، من غير نظرٍ إلى الوقت الذي يأتي، ومن غير نظرٍ إلى سنِّ الرشد وإلى ما سيقوم به الشَّابُّ من واجبات الرُّجولة، ومن غَضِّ طرْف عن العالَم الحقيقيِّ الذي سيخرج الفتى إليه بعد قليل، وعن المجتمع المحيط الذي يجب أن يُجعل ملائمًا له أو مُسَلَّمًا به سلفًا، وعن الصراع البشريِّ الذي لا بدَّ للدفاع والوقوف فيه على الرِّجلين من التأهُّبِ والتسلح والممارسة والصلابة مقدمًا، ولا تَمْنَحُ مدارسُنا ذلك التأهبَ الضروريَّ للفَتَى، ولا تلك القُنْيَةَ التي هي أهمُّ من الأمور الأخرى، ولا تلك المتانةَ في حسن الذوق والإرادة والأعصاب، ويسير كلُّ شيء إلى العكس، وتبتعد تلك المدارس عن إعداده فلا تجعله أهلًا لِما ينتظره من حال قريب محتوم، وهو يسير فيدخل العالَم فلا يكون نصيبُ خُطاه الأولى في معترك العمل غيرَ السقوط المتعاقب الأليم فيظلّ فيه مرضوضًا، ويبقى فيه لطويل زمنٍ مُنَغَّصًا، مُقعَدًا في بعض الأحيان، ألا إن هذا ابتلاءٌ كبيرٌ خَطِر، ألا إن هذا ابتلاءٌ يَفْسُد فيه توازن الخُلقِ والذهن فيُخْشَى ألا يعودَ هذا التوازن، ألا إن تبدد الخيال جاء سريعًا كاملًا فكانت خَيبة الأمل عظيمة والكروبُ شديدة([15])».

وهل ابتعدنا بما تقدم عن روح الجماعات؟ كلّا لا ريب، فَمَن يرغب في فَهْم الأفكار والمعتقدات التي تَنْبُت فيها اليوم وتتفتح فيها غدًا لا بدّ له من معرفة الوجه الذي أُعِدَّت به التربة، وما يتَّفق للشبيبة من التعليم في بلد يساعد على تَبَيُّن مصاير هذا البلد، وما كان من التربية والجيل الحاضر فيُسَوِّغ أقتمَ ما يُستبصر، وبالتعليم والتربية تَصْلُح روح الجماعات أو تَفْسُد من بعض الوجوه،

ومن الضروريّ، إذن، أن تُشرح كيفية إعداد المِنْهاج الحاضر لها، وكيفيةُ تحوُّل جميع الأخلياء والمحايدين بالتدريج إلى جيش الساخطين العظيم المستعدّ لاتباع تلقينات ذوي الخيال ورجال البيان، واليومَ تصنع المدرسة ساخطين وفوضويين، واليومَ تُهَيِّئُ المدرسة للأمم اللاتينية ساعاتِ الانحطاط.

الفصل الثاني
العوامل القريبة في آراء الجماعات

(1) الصور والألفاظ والصيغ – قوة الكلمات مرتبطة فيما تثيره من الصور المستقلة عن معناها الحقيقي – تختلف هذه الصور باختلاف الأزمان والعروق – بلى الكلمات – أمثلة مختلفة على تبدل معنى بعض الكلمات المستعملة تبدلًا عظيمًا – الفائدة السياسية من إطلاق أسماء جديدة على أمور قديمة عندما تحدث الكلمات التي تدل على تلك الأمور أثرًا سيئًا في الجماعات – اختلاف معنى الكلمات باختلاف العرق – اختلاف معنى كلمة الديموقراطية في أوروبا وفي أمريكا – (2) الأوهام – أهميتها – هي موجودة في أساس جميع الحضارات – ضرورتها الاجتماعية – الجماعات تفضل الأوهام على الحقائق في كل وقت – (3) التجرِبة – التجرِبة وحدها هي التي يمكنها أن تحدث في روح الجماعات ما أصبح ضروريًّا من الحقائق وأن تقضي على ما أصبح ضارًّا منها – لا تكون التجربة مؤثرة إلَّا إذا كررت كثيرًا – قيمة التجارب الضرورية في إقناع الجماعات – (4) العقل – عدم تأثيره في الجماعات – لا يسيطر على الجماعات إلَّا بالتأثير في عواطفها اللاشاعرة – شأن المنطق في التاريخ – الأسباب الخفية للحوادث التي لا يحتمل تصديقها.

بحثنا في العوامل البعيدة والتمهيدية التي تَمنح روحَ الشعوب استعدادًا خاصًّا للتَّقبل، فتجعل من الممكن تَفَتُّحَ بعض المشاعر وبعض الأفكار لدى الجماعات، والآن بَقِيَ علينا أن نبحث في العوامل ذات التأثير المباشر، وسنرى في فصل قريب كيف تُستعمل هذه العوامل لتظهرَ نتائجُها كلُّها.

وفي القسم الأول من هذا الكتاب دَرَسْنا مشاعرَ الجماعات وأفكارَها ومداركَها، ومن هذه المعرفة يمكننا أن نَطَّلع بوجه عامّ على وسائل التأثير في روحها، ومما تقدم عَرَفنا الذي يقفُ خيالَ الجماعات وقدرةَ التلقينات وعدواها، ولا سيما ما كان من هذه التلقينات على شكل صُور، ولكن إذ كانت التلقينات الممكنة من أصل مختلف أشدَّ الاختلاف فقد تكون العوامل التي يؤثِّرُ بها في روح الجماعات على شيء من الاختلاف، ومن الضروريِّ، إذن، أن يُبْحَث فيها على انفراد، والجماعاتُ ذاتُ شبه بأبي هَوْلِ القصَّة القديمة، فيجب أن نعرف حلَّ الألغاز التي تطرحها علينا روحُها أو أن نُسَلِّم بافتراسها إيانا.

1 – الصُّورُ والألفاظُ والصِّيَغ

رأينا، حينما بحثنا في خيال الجماعات، أن الجماعاتِ تتأثر بالصُّور على الخصوص، ونحن إذا لم تكن لدينا هذه الصور في كلِّ وقت أمكننا أن نستحضرها باستعمال الألفاظ والصِّيغ استعمالًا بارعًا، والحقُّ أن الألفاظ والصِّيغ إذا ما استُخدمت بِحِذْقٍ اتَّفق لها من السلطان الخفيّ ما عزاه إليها المؤمنون بالسِّحر فيما مضى، والحقُّ أنها تُثير في روح الجماعات أشدَّ العواصف هولًا كما أنها توجب سكونها، ولو جُمعت عِظامُ مَن ذهبوا ضحيةَ سلطان الألفاظ والصِّيَغ لأمكن أن يقام منها هرمٌ أعلى من هرم خوفو القديم.

وسلطان الألفاظ مرتبطٌ في الصور التي يُثيرها، وهو مستقلٌّ عن معناها الحقيقيِّ، ومما يحدث أحيانًا أن يكون للألفاظ ذاتِ التعريف الرديءِ أكبرُ تأثير، ومن ذلك الكلماتُ: الديموقراطية والاشتراكية والمساواة والحرية وما إليها من الألفاظ التي بلغ معناها من الغموض ما لا يكفي لتعيينه مجلداتٌ ضخمة، ومع ذلك تجدُ لمقاطع هذه الكلمات القصيرة قدرةً سحرية كما لو كانت تلك المقاطع تنطوي على حلِّ جميع المعضلات، وبتلك الكلمات يُلخَّص مختلف الرَّغبات اللاشعورية وأملُ تحقيقها.

ولا يستطيع العقل، ولا البراهينُ، مقاومةَ بعض الألفاظ وبعض الصِّيغ، والألفاظُ والصِّيغ يُنْطَق بها أمام الجماعات نُطْقَ احترام فتَعْنو لها الوجوه وتنحني أمامها الرؤوس، ويَعُدُّها كثير من الناس كقُوَى الطبيعة وكأقدار خارقة للعادة، أجل، إنها تُثير في النفوس صورًا عظيمة مبهمة، غير أن الإبهام الذي يخالطها يزيد في قوتها الخفية، وهي تُشَبَّه بالآلهة المرهوبة المستترة خلف قبَّة العهد التي لا يدنو العابد منها إلَّا مرتجفًا.

وإذ كانت الصُّورُ التي تثيرها الألفاظ مستقلة عن معناها فإنها تختلف بين جيل وجيل وبين شعب وشعب مع اتحاد الصِّيغ، وفي بعض الألفاظ يرتبط بعض الصور ارتباطًا عابرًا فيكون اللفظ كزِرِّ الاستغاثة التي يُظهرها.

ومن الألفاظ والصِّيغ ما لا يَستحضر صورًا، ومنها ما يَبْلَى بعد أن يَستحضر فلا يُثير شيئًا في النفس، وتغدو الألفاظُ إذ ذاك أصواتًا فارغة فتكون فائدتها الرئيسة في إعفاء من يستعملها من واجب التفكير، ومن ذلك أن لدينا، بما يُتعلَّم في الصِّغر من الصِّيغ والعبارات الدارجة، كلَّ ما يجب لمجاوزة الحياة من غير احتياج مُجْهِد إلى التفكير.

ونحن إذا نظرنا إلى لغة من اللغات وَجدنا أن الكلماتِ التي تتألف منها تتبدل ببطءٍ في غضون الأجيال، غير أن ما تُثيره من الصور أو ما يرتبط بها من المعنى يتغير بلا انقطاع، ولذلك تراني قد انتهيت في كتابٍ آخر إلى النتيجة القائلة إن الترجمة الصحيحة من إحدى اللغات، ولا سيما لُغاتُ الأمم البائدة، ضَربٌ من المُحال، وماذا نصنع بالحقيقة إذا ما استبدلنا عبارةً فرنسية بعبارة لاتينية أو يونانية أو سَنْسكريتية، أو حاولنا فَهم كتاب أُلِّف بلغتنا منذ بضعة قرون؟ إننا نكون قد استبدلنا ما أثارته الحياة العصرية في ذهننا من الصور والأفكار بما أوجبته الحياة القديمة من المبادئ والصُّور في روح عروق خاضعة لأحوال معيشةٍ لا شَبه بينها وبين أحوالنا المَعاشيَّة، ومما حدث أن خُيِّل لرجال الثورة الفرنسية أن يَحذوا حَذو الأغارقة والرومان فلم يصنعوا غيرَ مَنحهم لطائفة من الكلمات القديمة ما لم يكن لها من المعاني قَطُّ، وأيُّ شَبه يمكن أن يكون بين نُظمُ الأغارقة والنظمُ التي يُعبَّر عنها بالكلمات نفسها في أيامنا؟ ألم تدلَّ كلمة الجُمهورية عندهم على نظام أرستوقراطيّ يقوم به لفيف من صِغار الطُّغاة المسيطرين على جماعة من الأرقَّاء خاضعةٍ لأشدِّ

استعباد؟ وما كان لتلك الأرستوقراطيات البلدية القائمة على الرِّقِّ لتعيش ثانيةً بغير الرِّقِّ.

وما هو الشَّبه الذي يمكن أن يكون بين معنى كلمة الحرية في الوقت الحاضر ومعناها في زمن لم تَخطُر حرية الفكر فيه على قلب أحد، وفي زمنٍ لم يكن فيه جُرمٌ أعظمُ ولا أندرُ من الجِدال في آلهة المدينة وقوانينها وعاداتها؟ وكانت كلمة الوطن في روح الأثينيِّ أو الإسبارطيِّ تدلُّ على عبادة أثينا أو إسبارطة، لا عبادة بلاد الإغريق المؤلَّفة من مدن متنافسة متحاربة على الدوام، وماذا كان معنى كلمة الوطن نفسِها لدى قدماء الغوليين المنقسمين إلى قبائلَ متخاصمةٍ منتسبة إلى عروق ذات لغات وديانات متباينة فسَهُل على قيصرَ أن يغلبها لِما كان له بينها من حلفاءَ على الدوام؟ وروما وحدَها هي التي أنعمت على بلاد الغول بوطنٍ حين منَّت عليها بالوَحدة السياسية والدينية، ونحن إذا لم نعد إلى ماضٍ بعيد جدًّا فرجَعنا إلى نحو قرنين فقط سألنا: أمن المناسب أن يُعتقد أن كلمة الوطن كانت لدى أمراء فرنسا، الذين كانوا يحالفون الأجنبيَّ على مليكهم كما صنع كُونْدِه الكبير، تدلُّ على مِثل معناها في الوقت الحاضر؟ ألم يكن لكلمة الوطن أيضًا معنًى مختلفٌ أشدَّ الاختلاف عن المعنى العصريّ، وذلك لدى المهاجرين الذين كان يُخيَّل إليهم أنهم يعملون بشرائع الشرف عند محاربتهم فرنسا والذين كانوا يطيعون وِجهةَ نظرهم بالحقيقة ما دام النظام الإقطاعيُّ يَربِط التابعَ بالأمير لا بالأرض، وما دام الوطن الحقيقيُّ هو المكانَ الذي كان يقوده وليُّ الأمر؟

وما أكثر الألفاظَ التي تَغيّر معناها تغيُّرًا عظيمًا بين جيل وجيل على الوجه المذكور، ونحن لا نفهمَها كما كانت عليه في الماضي إلّا بعد جهد طويل، وقد قيل بحقٍّ إنه لا بدَّ من مطالعات كثيرة لنتمثل ما كان يذهب إليه أجدادنا من معنى كلمة الملك والأُسرة المالكة مثلًا، وماذا يكون أمر التعابير التي هي أكثرَ تعقُّدًا؟

إذن، ليس للألفاظ سوى معانٍ متحولة مؤقتة متغيرة بين جيل وجيل وبين أُمّة وأمّة، وإذا ما أردنا أن نُؤثِّر بالألفاظ في الجماعة وَجَب أن نَعرف ماذا يكون معناها لدى الجماعة في زمنٍ ما، لا المعنى الذي كان لها في الماضي، أو المعنى الذي يكون لها عند أفرادٍ ذوي مزاج نفسيّ مختلف، فالألفاظ تعيش كالأفكار.

ولذلك نقول إنه إذا ما حدثت انقلابات سياسية وتحولات في المعتقدات فأسفرت عن نفورٍ عميق من الصُّور التي تُثيرها بعضُ الألفاظ وجب على القطب السياسيِّ أن يغيِّر هذه الألفاظ من غير أن يَمَسَّ الأمور نفسها، وذلك لأن هذه الأمور هي من شدَّة الارتباط في المزاج الموروث ما يتعذر معه تحويلُها، ومما لاحظه العلامة تُوكْفيل أنَّ عمل العهد القنصليِّ والعهد الإمبراطوريِّ قام بوجه خاصّ على إلباس معظم نُظُم الماضي ألفاظًا جديدة،

ومن ثمَّ على انتحال ألفاظ تَحُول جدَّتها دون إثارة ما تُثيره في الخيال ألفاظٌ أخرى من الصُّور المكروهة، ومن ذلك أن غدا الخَراجُ ضريبةً عقارية، واحتكارُ الملحِ ضريبةَ الملح، والمعونةُ ضرائبَ غيرَ مقرَّرة ومكوسًا منظمة، والعوائد المهنيَّة رسوم إجازاتٍ سنوية إلخ.

ومما تقدم ترى أن من أهمِّ وظائف رجال الدولة أن يتخذوا من الألفاظ المقبولة عند الشعب، أو المحايدةِ على الأقل، ما يُطلقونه على أشياءَ تَمقُتها الجماعات بأسمائها القديمة، وقدرةُ الألفاظ هي من العِظَم ما يكفي معه حسنُ اختيار في التعابير يُرْضَى به أشدُّ الأمور استكراهًا، وقد أصاب تاين في ملاحظته أن اليعاقبة استطاعوا باستعانتهم بكلمتي الحرية والإخاء اللتين كانتا مألوفتين إلى الغاية في ذلك الحين: «أن يقيموا استبدادًا خليقًا بالدَّاهوميَّة، ومحكمةً تَعدل محكمةَ التفتيش، ومذابحَ بشريةً شبيهة بمذابح المكسيك الغابرة»، وتقوم مهنة السَّاسة، كما تقوم مهنة المحامين، على معرفة استعمال الألفاظ على الخصوص، والأمرُ صعب، ووجه الصعوبة في أن للألفاظ الواحدة في المجتمع الواحد معانيَ مختلفةً في مختلف الطبقات الاجتماعية في الغالب، فهذه الطبقات، وإن كانت تستعمل ألفاظًا واحدة في الظاهر، لا تتكلم بلغة واحدة.

وفي الأمثلة السابقة ذكرنا أن الزمان عاملٌ رئيسٌ في تغيير معاني الكلمات، وإذا كنا قد ذكرنا العِرْق أيضًا فذلك لأن الألفاظ الواحدة تقابل في الغالب أفكارًا متباينةً أشدَّ التباين في الزمن الواحد لدى شعوب متماثلةٍ تمدُّنًا مختلفةٍ عرقًا، ولا يمكن تبيُّن هذه الفروق بغير رِحْلات كثيرة، ولا أخوض كثيرًا في أمر العِرْق إذن، بل أقتصر على ملاحظتي أن أشدَّ الألفاظ استعمالًا بين أمة وأمة هي التي تكون أشدَّ المعاني اختلافًا، وذلك كاللفظين: الديموقراطية والاشتراكية، الكثيري الاستعمال في الوقت الحاضر.

تُقابل ذينك اللفظين بالحقيقة أفكارٌ وصورٌ مختلفة اختلافًا تامًّا في نفوس اللاتين ونفوس الأنغلوسكسون، فكلمةُ الديموقراطية لدى اللاتين تعني على الخصوص انزواءَ إرادة الفرد ومبادرتهِ أمام إرادة الدولة ومبادرتها، فتُكلَّف الدولةُ بالتوجيه والحَصْر والاحتكار شيئًا فشيئًا، وإلى الدولة يرجِع جميع الأحزاب بلا استثناء وباستمرار، جذريةً كانت هذه الأحزابُ أو اشتراكيةً أو مَلَكية، وبالعكس تعني كلمة الديموقراطية عند الأنغلوسكسون، ولا سيما الأمريكيُّ، شدَّة نموِّ الإرادة والفردِ وانزواءَ الدولة فلا يُتركُ للدولة شيءٌ من التوجيه حتى التعليم، وذلك خلا أمور الشُّرطة والجيش والصِّلات السياسية، ومن ذلك ترى أن للكلمة الواحدة معانيَ متناقضةً تناقضًا مطلقًا لدى الشعبين المذكورين([16]).

2 – الأوهام

عانت الأمم تأثير الأوهام منذ فَجر الحضارات على الدوام، وأقامت الأممُ لمُوجِدي الأوهام أكثرَ المعابد والتماثيل والهياكل، والأوهامُ صاحبةُ السياسة المرهوبة، دينيةً كانت كما في الماضي أو فلسفيةً واجتماعيةً كانت كما في الوقت الحاضر، بدت على رأس جميع الحضارات التي أزهرت في دنيانا، وباسم الأوهام شِيدَتْ معابد كلْدَة ومصرَ والمباني الدينية في القرون الوسطى وقَلَبَت أوروبا منذ قرن رأسًا على عقب، ولا تجدُ مبدأً من مبادئنا الفنية أو السياسية أو الاجتماعية لا يحمل طابعَ الأوهام المؤثِّر، والإنسانُ، وإن هَدَمَ الأوهامَ أحيانًا بفعل الفتن الهائلة، يُعيد رفعَها على الدوام كما يَلوح، ولولا الأوهامُ ما استطاع الإنسان أن يخرج من الهمجية الأولى، ولولا الأوهامُ لعاد الإنسان إلى الهمجية من فوره، أجل، إن الأوهام ظلال باطلة، غير أن بناتِ أحلامنا هذه هي التي حَفَزَت الأمم إلى ابتداع ما يوجب روعة الفنون وعظمة الحضارات.

قال مؤلفٌ مُلخِّص لآرائنا: «ماذا يبقى من أحلام البشر الكبيرة لو قُوِّض في المتاحف والمكتبات وهُدِمَ على بلاط الباحات جميعُ الآثار والمباني الفنيةِ التي أوحت بها الأديان؟ لقد أسفر ما في الناس من أمل وأوهام لا كِيانَ لهم بغيره عن وجود الآلهة والأبطال والشعراء، نعم، ظهر العلمُ ذاتَ حينٍ قادرًا على حمل ذلك العمل، غير أن الذي أنزل منزلته في الأفئدة المتعطشة إلى المثل الأعلى هو أنه عاد لا يجرؤ على الوعد وأنه لا يعرف الكذب بما فيه الكفاية».

وقف فلاسفة القرن الماضي أنفسَهم بحرارة على تبديد ما عاش عليه آباؤنا في قرون كثيرة من الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية، وهم إذ بدَّدوا الأوهام استنزفوا منابع الأمل والتسليم فوجدوا خَلْفَ الأخيلة التي قَضَوْا عليها قُوَى الطبيعة العُميَ التي لا تحنو على الضعف ولا تعرف الرحمة.

وسارت الفلسفة قدمًا إلى الأمام، ولكنها لم تستطع بعدُ أن تعرض على الأمم أيَّ مثلٍ عالٍ قادر على فَتْنها، وإذ كانت الأوهامُ أمرًا ضروريًّا للأمم فإنها تسير من تلقاء نفسها إلى فارس البيان الذي يعرضها عليها كما تسير الحشرة إلى النور، أجل، إن الضلال، لا الحقيقةَ، هو أعظم عامل في تطور الأمم، وإذا كانت الاشتراكية تزيد قوةً في الوقت الحاضر فلأنها لا تزال تنطوي على الوهم الحيِّ الوحيد، ولا تَعُوق البراهين العلمية سَيْرها التدريجيَّ أبدًا، وتجدُ سرَّ قوتها في الدفاع عنها من قِبَل أناس بلغوا من جهل حقائق الأمور ما يجرؤون معه على الاندفاع في وعد الناس بالسعادة، واليومَ يسود الوهمُ جميعَ أنقاض الماضي المركومة، والمستقبلُ للوهم، ولم يحدث أن تعطَّشت الجماعاتُ إلى الحقائق قطُّ، والجماعاتُ تُوَلِّي البديهياتِ التي تكرهها ظهرَها مفضلةً تأليهَ الضلال إذا ما أغواها، ومن يعرفْ أن يُلقيَ الوهمَ فيها يَسْطِعِ أن يكون سيدها بسهولة، ومن يحاولْ تبديد وهمها يذهبْ ضحيتَها على الدوام.

3 – التجرِبة

التجرِبة هي الوسيلة الفعَّالة الوحيدة تقريبًا لتقرير حقيقة في روح الجماعات وللقضاء على ما غدا خَطِرًا من الأوهام، والتجرِبة هي ما يجب أن يُحقَّق على مقياس واسع مع تكرارها في الغالب، والتجرِبة التي يقوم بها جيلٌ لا تنفع الجيل القادم على العموم، ولهذا لا تَصلُح الحوادث التاريخية للاستشهاد بها، وفائدتُها الوحيدة هي في إثبات ما يجب من تكرار الحوادث بين جيل وجيل لممارسة شيء من النفوذ والنجاح في زعزعة خطأ متأصل.

ومما لا مِراءَ فيه أن مؤرخي المستقبل سَيَعُدُّون القرنَ الحاليَّ والقرنَ الماضيَ دورًا للتجارِب الطريفة، ولا تجدُ دورًا أبصر تجارِبَ كثيرةً كهذا الدور.

والثورةُ الفرنسية هي أعظم تلك التجارِب خطرًا، فقد اقتضى الدليلُ على أن المجتمع لا يُجدَّد بأسره وَفْقَ ما يشير به العقل الصِّرْفُ قتلَ ملايينَ من البشر وقلبَ جميع أوروبا في عشرين سنة، وقد اقتضى الدليلُ التجرِبيُّ على أن القياصرة يُكلِّفون الأممَ التي تهتف لهم عاليًا حدوثَ تجرِبتين مُهْلِكتين في خمسين سنة، ويلوح أن تَيْنِك التجرِبتين غيرُ مقنعتين بما فيه الكفاية مع وضوحهما، مع أن الأولى أوجبت هلاك ثلاثة ملايين من الرجال وغزوَ الأجنبيِّ للبلاد، ومع أن الثانية أوجبت اقتطاع ولاية وضرورةَ وجود جيوش دائمة، وقد كادت تجرِبةٌ ثالثة تقع منذ سنين قليلة، ولا بدّ من حدوثها ذاتَ يوم، وقد وجب علينا فيما مضى أن نخوض غِمار حرب طاحنة مُثقِلة لكاهل ثروتنا حتى نُسَلمَ بأن الجيش الألمانيَّ ليس ضربًا من الحرس الوطنيِّ الذي لا خوفَ منه([17])، كما كان يُذكرَ قبل سنة 1870، ولا مناصَ من القيام بتجارِب مُضرَّةٍ ليُعرف أن نظام الحماية يؤدي إلى خراب الأمم القائلة به، ومن الممكن إيرادُ ما لا حصرَ له من الأمثلة التي هي من هذا القبيل.

4 – العقل

كان يمكننا أن نستغنيَ عن ذكر العقل بين العوامل القادرة على التأثير في روح الجماعات لو لم يكن من الضروريِّ أن نذكر قيمة العقل السَّلبيَّة.

لقد بيَّنا أنه لا يُؤثَّر في الجماعات بالمعقولات، وأن الجماعاتِ لا تفقهَ ما غَلُظَ من الخواطر المتنادية، والجماعاتُ هي التي يخاطب الخطباء مشاعرَها، لا عقلَها أبدًا، والجماعاتُ هي التي لا تأثير لسنن المنطق العقليِّ فيها([18])، ومن يرغب في إقناع الجماعات فعليه أن يلتفت إلى ما يثيرها من المشاعر، وأن يتظاهر بمشاطرتها هذه المشاعرَ، وأن يحاول تعديل هذه المشاعر بإثارة بعض الصور التلقينية وَفْقَ تناديات بسيطة، وأن يعرف كيف يرجع القَهْقَرَى عند الضرورة، وأن يتنبأ في كلِّ ثانيةٍ بما يُولدُ من المشاعر، وضرورةُ تبديله للهجته بحسب وحي الساعة التي يتكلم فيها تحكمُ بضعف كلِّ خطبة تُدْرَس وتُهيأ مقدمًا، فالخطيب الذي يساير فكره، لا سامعيه، يَخْسَر كلَّ نفوذ لهذا السبب.

ولا يستطيع رجال المنطق الذين تعوَّدوا البراهينَ المتسلسلة الوثيقة أن يَعدِلوا عن طراز الإقناع هذا حينما يخاطبون الجماعاتِ، وهم يَحارُون عندما يرون عدمَ تأثير أدلتهم على الدوام، قال أحد المَناطقة: «إن النتائج الرياضية المعتادة القائمة على القياس المنطقيِّ، أي على اتحاد النظائر، هي أمور لازمة... واللزومُ يستوجب الموافقةَ حتى من الجسم غير العضويِّ لو كان هذا الجسم قادرًا على تتبُّع اتحاد النظائر»، ذلك أمرٌ لا ريب فيه، غير أن الجماعة ليست أكثر استعدادًا من الجسم غيرِ العضويِّ لتتبُّع ذلك الاتحاد ولا للاستماع إليه، فحاوِلوا أن تُقنِعوا بالبرهان ذوي النفوس الابتدائية من همجٍ وصبيانٍ مثلًا لِتَرَوْا ضَعْفَ قيمة طراز البرهنة هذا.

ولا احتياجَ إلى الهبوط إلى الفطريين لتحقيق عجز البراهين العقلية عن معارضة المشاعر، فيكفي لتَبَيُّن ذلك أن تُنْعِم النظر في استعصاء الخرافات الدينية عدَّة قرون مع مناقضتها لأبسط قواعد المنطق، فقد حَنَتْ تلك الخرافاتُ أكثرَ العباقرة بصيرةً تحت أحكامها مدة ألفي سنة تقريبًا، وما كان ليجادَلَ في صحتها إلّا في الأزمنة الحديثة فقط، وعلى ما كان من كثرة ذوي البصائر في القرون الوسطى وفي عصر النهضة لم تجد فيهما واحدًا دَلَّه البرهان على ما في تلك الخرافات من النواحي الصبيانية فيَشُكُّ ولو قليلًا في مساوئ الشيطان أو في ضرورة حرق السَّحرة.

وهل يُؤسَف على أن العقل ليس دليلَ الجماعات؟ لا نجرؤ على القول بذلك، ومما لا ريب فيه أن العقل البشريَّ لم يكن ليُوَفَّق لاجتذاب الإنسان إلى سُبل الحضارة بمثل النشاط والإقدام اللذين أوجبتهما فيه أوهامُه، وإذ كانت هذه الأوهامُ وليدةَ اللاشعور الذي يقودنا فإنها ضرورية على الراجح، ويحمل كلُّ عرق في مزاجه النفسيِّ سنن مصايره، ومن المحتمل أنّه يخضع لهذه السُّنن بغريزة مُقدَّرة حتى في أشدِّ اندفاعاته بعدًا من التعقل في الظاهر، ومما يلوح أحيانًا أن الأمم تنقاد لقوًى خفيةٍ مشابهة للقُوَى التي تحمل حبّة البلُّوط على التحول إلى سِنْدِيانة أو التي تحمل النجمَ المذنَّب على اتِّباع طريقه.

وما يمكن أن نستدلَّ عليه من قليلٍ من هذه القُوَى فيجب أن يُبْحَث عنه في السَّير العامِّ لتطور إحدى الأمم، لا في الحوادث المنفردة التي يلوح ظهورُ هذا التطور منها في بعض الأحيان، ولو لم ننظر إلى غير هذه الحوادث المنفردة لبدا لنا أن التاريخ تابعٌ لمصادفات مخالفة للصواب، فمما لا يُصدِّقه العقل أن نجارًا جاهلًا من بلاد الجليل استطاع أن يكون في ألفي سنة إلهًا قادرًا على كلِّ شيء فتقامَ باسمه أهمُّ الحضارات، ومما لا يصدقه العقل أيضًا أن تخرج بضعُ عِصابات عربية من صحاريها فتستطيعَ أن تفتح معظم العالَم اليونانيِّ الرومانيِّ القديم وأن تقيم دولة أعظم من دولة الإسكندر، ومما لا يصدقه

العقلُ كذلك أن يوفّق ضابطَ مدفعيَّةٍ صغيرٌ لسيادة طائفة من الأمم والملوك في أوروبا المُسِنَّة الكثيرة المراتب.

إذن، نترك العقلَ للفلاسفة، وذلك على أَلّا نطالبه كثيرًا بالتدخل في حكم الناس، فلم تتولدْ بالعقل، بل خلاقًا للعقل في الغالب، مشاعرُ كالشرف وإنكار الذات والإيمان الدينيِّ وحبِّ المجد والوطن، تلك المشاعرَ التي ظلَّت أعظمَ محرِّك لجميع الحضارات حتى الآن.

الفصل الثالث
زعماء الجماعات وطرقهم في الإقناع

(1) زعماء الجماعات – احتياج الجماعة الغريزي إلى قائد تطيعه – روح الزعماء – هؤلاء الزعماء هم القادرون وحدهم على إيجاد إيمان وعلى وضع نظام للجماعات – استبداد الزعماء القسري – تقسيم الزعماء – شأن الإرادة – (2) وسائل العمل لدى الزعماء – التوكيد والتكرار والعدوى – شأن كل واحد من هذه العوامل المختلفة – كيف تسري العدوى من طبقات المجتمع الدنيا إلى طبقاته العليا – لا يلبث الرأي الشعبي أن ينقلب إلى رأي عام – (3) النفوذ – تعريف النفوذ وتقسيمه – النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي – أمثلة مختلفة – كيف يزول النفوذ.

نعرف الآن مزاج الجماعات النفسيَّ، ونعرف أيضًا أيُّ العوامل تؤثِّر في روحها، فبقي علينا أن نبحث في كيفية تطبيق هذه العوامل وفي مَنْ يمكنه أن يُحسن استعمالها.

1 – زعماء الجماعات

إذا اجتمع عدد من ذوات الحياة، سواءٌ أقطيعَ حيواناتٍ كان أم جماعةً من الناس، جُعل بالغريزة تحت سلطان رئيس، أي زعيم.

ويمثل الزعيمُ في الجماعات البشرية دورًا عظيمًا، وتعدّ إرادته نواةً تتكوّن الآراء حولها وتتحد، وليست الجماعة إلّا قطيعًا لا غُنْيَةَ له عن راعٍ.

ويكون الزعيم في البداءة وفي الغالب مَقُودًا نوَّمه الفكر الذي يصبح رسولَه بعدئذٍ، ويستحوذ هذا الفكرُ عليه فيتوارى كلُّ فكرٍ غيرُه فيبدو كلُّ رأيٍ معاكسٍ له خطأً وخرافةً، وذلك كما وقع لِرُوبِسبِير الذي نوَّمته أفكاره الوهمية فاتخذَ لنشرها وسائلَ محاكم التفتيش.

وليس الزعماء رجالَ فكر في الغالب، بل هم من رجال العمل، وهم قليلو الحذر، وهم لا يكونون حذرين لِما يؤدي إليه الحذر من الشكِّ فإلى السكون على العموم، وهم يخرجون على الخصوص من بين ضعاف الأعصاب الهائجين المتهوسين الذين هم على شفير الجنون، فلا ينفعُ أيُّ برهانٍ منطقيّ أمام اعتقادهم مهما كان فساد الفكر الذي يدافعون عنه أو الهدفُ الذي يسعون إليه، ولا ينشأ عن الازدراء والاضطهادات غيرُ إثارتهم أكثرَ من قبل، وهم يُضحُّون بالأسرة وبكل مصلحة شخصية لهم، حتى إنهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون أجرًا غيرَ الشهادة في الغالب، وما في إيمانهم من حرارة فيمنح كلامَهم قوة تلقينية عظيمة، والجماعةُ تصغي دومًا إلى الرجل ذي الإرادة القوية، والأفرادُ في الجماعة يخسرون كلَّ إرادة فيتوجهون بغريزتهم إلى مَن يملِكها.

والزعماء وجدوا في الأمم على الدوام، غير أنهم ليسوا جميعًا من ذوي العقائد القوية التي تجعلهم من الرسل، غير أنهم في الغالب من ذوي البيان

الدقيق الذين لا يتَّبعون سوى مآربهم الشخصية فتراهم يقومون بإقناع ذوي الغرائز المنحطة متملِّقين إياهم، فيظلُّ ما يمارسونه من نفوذ موقتًا على الدوام، وما اتفق لكبار المؤمنين الذين أثاروا روح الجماعات، كبطرس الراهب ولُوثِر وسافونارول ورجالِ الثورة الفرنسية، من سحر النفوس ليَتِمَّ إلّا بعد أن خضعوا لمعتقد، فهنالك استطاعوا أن يُوجِدوا في النفوس تلك القوةَ الهائلة، ذلك الإيمانَ الذي يجعل الإنسانَ عبدًا لخياله.

ويتجلى شأن أعاظم الزعماءِ على الخصوص في إيجاد إيمانٍ فعَّالٍ بعملٍ أو بشخص أو بفكر، سواءٌ أكان هذا الإيمان دينيًّا أم سياسيًّا أم اجتماعيًّا، وكان الإيمان دومًا من أهمِّ جميع القُوَى التي تتصرف فيها البشرية، ومن الصواب أن عَزَا الإنجيلُ إلى الإيمان قدرة رفع الجبال، ويعني مَنْحُ الإنسان إيمانًا جَعْلَ قوَّته عشرةَ أمثالها، ولم تحقَّق حوادثُ التاريخ العظيمة في الغالب إلّا من قِبَل مؤمنين مبهمين ليس عندهم سوى الإيمان، ولم تقم الدِّيانات التي سادت الدنيا، ولم تقم الدولُ الواسعة التي امتدَّ سلطانها على جميع الأرض، بالأدباء والفلاسفة، ولا بالمَلاحدة على الخصوص.

بيدَ أن أمثلةً كتلك تُطبَّق على أعاظم الزعماء، وهؤلاء الزعماء هم من القلَّة ما يسهُل به على التاريخ إحصاؤهم، وهؤلاء الزعماء هم رأس سلسلة متصلة تتدلى من المتصرف في الرجال إلى العامل الذي يَسْحَر رفقاءه ببطءٍ في فندقٍ دَخِن، وذلك بأن يَلوك بلا انقطاعٍ ما لا يفقه من صيغٍ قليلة يجب أن يؤدِّيَ تطبيقُها، كما يُزْعَم، إلى تحقيقٍ أكيدٍ لجميع الأحلام والآمال.

والمرءُ غيرُ المنفرد في كلِّ بيئة اجتماعية مهما علت أو دَنِيَتْ لا يُعَتِّم أن يخضع لزعيم، وأكثرُ الأفراد في الجماعات الشعبية على الخصوص، إذ ليسوا ذوي فكر واضح معقول خارجَ دائرة اختصاصهم، يَعْجِزون عن قيادة أنفسهم، والزعيمُ هو الذي يقودهم، والزعيمُ قد يُستبدل به غيرُه، ولكن ليس بدرجة الكفاية، وذلك بتلك النَّشرات الدّوريَّة التي تصنع آراءً لقرائها وتصوغ لهم جملًا تغنيهم عن التأمل.

وسلطانُ الزعماء استبداديٌّ إلى الغاية، ولا يُفْرَض هذا السلطان إلّا بهذا الاستبداد، ومما لوحظ درجةُ السهولة التي يطاعون بها من غير أن تكون لديهم مع ذلك أيةُ وسيلةٍ يستند إليه سلطانهم في أشدِّ طبقات العمال شغبًا، والزعماء هم الذين يحدّدون ساعاتِ العمل ومقدارَ الأجور ويقرِّرون الإضرابات، ويعيِّنون ساعة البدء بها وساعةَ انتهائها.

واليومَ يهدِف الزعماء إلى قيامهم بالتدريج مقام السلطات العامة كلما زاد الجدال في هذه السلطات وضعُف شأنها، وأولئك السادةُ الجدد يتَّفق لهم بطغيانهم من إطاعة الجماعات ما لا تناله أيةُ حكومة كانت، وإذا حدث حادث اختفى به الزعيم فلم يُستبدل به غيرُه من فوره انقلبت الجماعة إلى زمرة

عاطلة من الارتباط والمقاومة، ومن ذلك أن أضرب عمَّال البَاصات بباريسَ عن العمل، فكفى لإنهاء هذا الإضراب وقفُ الزعيمين اللذين كانا يديرانه، فالاحتياجُ إلى الخضوع، لا إلى الحرية، هو الذي يسود روح الجماعات على الدوام، وما في الجماعات من تعطش إلى الإطاعة يجعلُها تنقاد بغريزتها لِمَن يُعلن أنّه سيدُها.

ويمكننا أن نأتيَ بتقسيم بارز في الزعماء فنقول: من الزعماء أناسٌ نشيطون ذوو عزيمة قوية، لكنها مؤقَّتة، ومن الزعماء فريقٌ آخرُ أقلُّ عددًا وذو إرادة قوية دائمة معًا، والفريقُ الأول يبدو عنيفًا باسلًا مِقدامًا، وهذا الفريق ينفع على الخصوص في توجيه أمرٍ دُبِّرَ وفي سوق الجماعات مع وجود الخطر وفي تحويل جنود الأمس إلى أبطال، ومن هذا الفريق نايُ ومُورَا في العهد الإمبراطوريِّ الأول، ومنه غاريبالدي في أيامنا، هذا المغامرَ العاطلَ من المواهب، ولكن مع نشاط استطاع أن يستوليَ به هو ونفرٌ من الرجال على مملكة نابولي السابقة على الرغم من الجيش المدرَّب الذي كان يدافع عنها.

غير أن نشاط مثل أولئك الزعماء، إذا كان قويًّا، هو موقت، فلا يدوم أكثر من دوام الدافع الذي أوجبه، فإذا ما عاد الأبطال الذين تأجَّج فيهم إلى مجرى الحياة العادية أظهروا من الضعف ما يُثير الحَيْرة، شأنَ من ذكرتُهم منذ هنيهة، فبَدَوْا عاجزين عن التأمل وعن قيادة أنفسهم في أبسط الأحوال بعد أن عرفوا أن يقودوا الآخرين، وهؤلاء الزعماء لا يقدرون على ممارسة عملهم بالحقيقة إلّا بعد أن يكونوا مَقْودِين مُحَرَّضين بلا انقطاع شاعرين على الدوام بوجود رجل أو فكر فوقهم متَّبعين لِخطَّةٍ مرسومة من قبل.

ويتألف الفريق الثاني من زعماءَ ذوي عزيمة مستمرة، فيمارس هذا الفريق نفوذًا أعظمَ من نفوذ ذلك الفريق بمراحل، ومن هذا الفريق نَعُدُّ مؤسسي الأديان أو جليلِ الأعمال الحقيقيين كالقديس بولس ومحمدٍ وكريستوف كولُنْب ودولِسبْس، والدنيا لهؤلاء على الدوام سواءٌ أمِنَ الأذكياء كانوا أم مِنَ الأغبياء، وما عند هؤلاء من إرادة ثابتة فمَلَكة نادرة إلى الغاية قوية إلى الغاية يخضع لها كلُّ شيء، وعلى الدوام لا يُقَدَّر بما فيه الكفاية ما تَقْدِر عليه الإرادة المستمرة القوية، وهذه الإرادة لا يقف شيء أمامها حتى الطبيعةُ حتى الآلهةُ حتى الرجالُ.

وأحدث مثالٍ على ذلك هو ما كان من أمر ذلك المهندس الشهير الذي فَصَل قارَّتين وحقّق عملًا حاوله كثير من الملوك منذ ثلاثة آلاف سنة على غير جدوى، أجل، إنه أخفق بعد ذلك في عمل مماثل، غير أن ذلك وقع حين أدركته الشَّيْبَة فانطفأ أمامها كلُّ شيء حتى الإرادة.

وعلى من يرغب في إثبات قوة الإرادة أن يَعْرِض بالتفصيل تاريخَ المصاعب التي ذُلِّلت حين فتح قناة السويس، ومع ذلك لخَّص شاهدُ العِيان الدكتور

كَزَاليسُ في أسطر قليلة مؤثرة أمرَ ذلك العمل الجليل نقلًا عن صاحبه الخالد فقال: «كان دُولِسبْس يقصُّ علينا حكايةَ القناة يومًا بعد يوم وحادثًا بعد حادث، فيخبرنا بما كان عليه أن يُوَطِّئه وبالمستحيل الذي جعله ممكنًا، وبما لاقى من مقاومات وتحزُّبات ومشقَّات وخيبات، ولكن من غير أن يُنهنهَهُ ذلك عن عمله ويقضيَ على أمله، وكان يذكرُ إنكلترا وهي تناهضه وهي تهاجمه بلا إمهالٍ، وكان يذكرُ مصرَ وفرنسا وهما مترددتان، وكان يذكرُ القنصلَ الفرنسيَّ وهو يعارض الأعمالَ الأولى أكثرَ من غيره فلم يُحْجِمْ مع معارضته عن أخذ العمال بالعطش فمنع عنهم الماء الفرات، وكان يذكرُ ما لَقِيَه من مخالفةِ وزارة البحرية والمهندسين وذوي الجدِّ والتجرِبة والعلم من الرجال فكان هؤلاء جميعُهم قانعين بحدوث الكارثة حاسبين لها مُنْبِئين بوقوعها في يوم معيَّن وساعة معيَّنة كما يُتَنَبَّأ بالخسوف والكسوف».

وإن الكتاب الذي يخبرنا بحياة جميع أولئك الزعماء لا يشتمل على غير قليل من الأسماء، ولكن هذه الأسماء كانت على رأس أهمِّ حوادث الحضارة والتاريخ.

2 – وسائل العمل لدى الزعماء:

التوكيد والتكرار والعَدْوَى

إذا ما أُريد سوقُ جماعةٍ وحملُها ذاتَ ساعةٍ على اقتراف عملٍ ما، كحرق قصرٍ والاستماتةِ في الدفاع عن مِتْراس، وجب أن يؤثَّر فيها بتلقينات سريعة، والمِثالُ أشدُّ هذه التلقينات فعلًا، على أنّه لا بدَّ من أن تكون الجماعة مستعدةً للتأثُّر بفعل بعض الأحوال، ومن أن يكون الراغبُ في سَوْقها متصفًا بصفة النفوذ التي سأبحث فيها بعد قليل.

وإذا ما أُريد أن يُدْخَل على مَهْلٍ بعضُ الأفكار والمعتقدات إلى روح الجماعات، كالنظريات الاجتماعية الحديثة مثلًا، وُجد اختلافُ أساليب الزعماء عما تقدم، والزعماء يَرجعون إلى الطُّرق الثلاث الآتية على الخصوص، وهي: التوكيد والتكرار والعدوى، ولهذه الطرق تأثير بطيء، ولكن نتائجها دائمة.

والتوكيدُ المحضُ البسيط الخالي من كلِّ تعقل وكلِّ دليل هو وسيلةٌ صادقة لبثِّ الفكر في روح الجماعات، والتوكيدُ كلما كان موجزًا عاطلًا من الدليل والبرهان كان عظيم السلطان، والتوكيدُ البسيط هو ما استندتْ إليه الكتب الدينية والقوانين في جميع الأجيال على الدوام، ويعرف قيمةَ التوكيد رجالُ الدولة الذين يُدْعَوْن إلى الدفاع عن أية قضية سياسية ورجالُ الصِّناعة الذين يذيعون أمر إنتاجاتهم بالإعلان.

ومع ذلك لا يكون التوكيدُ ذا نفوذ حقيقيّ إلّا إذا دام تكراره بعبارات واحدة ما أمكن، وكان نابليون يقول إنه لا وجهَ جِدّيًا للبيان سوى التكرار، والأمر إذا ما وُكِّد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ في النفوس على أنّه حقيقة ثابتة.

وتأثيرُ التكرار في الجماعات يُفْهَم جيدًا عند النظر إلى سلطانه الكبير على ذوي البصائر، والأمرُ إذا كُرِّر لم يلبث في الحقيقة أن يستقرَّ بمناطق اللاشعور العميقة حيث تَنْضَج عوامل سيرنا، ونحن إذ ننسى مصدر الزعم المُكَرَّر بعد انقضاء بعض الزمن فإننا لا نُعَتِّم أن نؤمن به، وبهذا تُفسَّر قوة الإعلان العجيبة، فإذا ما قرأنا مئةَ مرةٍ أن الشكولاتة (س) هي أطيبُ نوع للشكولاتة خُيِّل إلينا أننا سمعنا حديثًا متواترًا عنها فلا نَنْشَب أن نعتقد صحةَ النبأ، وإذا ما اعتقدنا بألف شهادة أن الطحين (ي) قد شَفَى أكابر القوم من أشدِّ الأمراض استعصاءً لم نتردد في تجربته عندما نصاب بمرض من ذلك النوع، وإذا كُرِّر في جريدة واحدة أن (أ) نَذْلٌ وأن (ب) رجلٌ شريف فقرأنا ذلك آمنَّا به في نهاية الأمر إلى ألّا نكون من قُرَّاء جريدة أخرى ذاتِ رأيٍ معاكس، وذلك لتهادم الوصفين، فلا يَفُلُّ التوكيدَ والتكرارَ إلّا التوكيدُ والتكرار.

والتوكيدُ إذا ما كرِّر بما فيه الكفاية مع إجماع عليه، وذلك كما يحدث في بعض المشاريع المالية التي تشتري كلَّ معونة، تَكَوَّن ما يسمَّى بسريان الرأي فقام جهاز العدوى القويُّ بعمله، وفي الجماعات يكون للأفكار والمشاعر والعواطف والمعتقدات قدرةٌ سارية شديدة شدَّةَ عدوى الجراثيم، وهذه الظاهرة تُشَاهَد في الحيوانات نفسها عندما تجتمع، ومن هذا أن صهيل الفرس في إصطبل تُقلِّده خيل ذلك الإصطبل حالًا، ومن ذلك أن ثُغاءَ شاةٍ أو جَفْلَها يسري من فوره إلى جميع القطيع، وبعدوى العواطف تُفسَّر فُجَاءَةُ الذعر، وبالعدوى تنتشر أيضًا اختلالات الدماغ كالجنون مثلًا، وليست بخافيةٍ كثرةُ الجنون لدى أطباء المجانين، ومما يُذكر فنونُ الجنون التي تنتقل من الإنسان إلى الحيوان كالاضطرابات العصبية المصحوبة بخفقانٍ في القلب ورعشةٍ في الأطراف.

ولا تقتضي العدوى وجودَ الأشخاص في مكانٍ واحد، فقد تسري العدوى عن بُعد بفعل بعض الحوادث الموَجِّهة للنفوس إلى معنًى واحد فتمنحها ما هو خاصٌّ بالجماعات من الصفات، ولا سيما عندما تكون النفوس مُعدَّة بفعل العوامل البعيدة التي بحثتُ فيها آنفًا، ومن الأمثلة على ذلك انفجار سنة 1848 الثوريُّ الذي بدأ في باريس فلم يَنْشَب أن امتدَّ إلى قسم كبير من أوروبا فهزَّ كثيرًا من العروش([19]).

وليس التقليد الذي يُعْزَى إليه كثير من التأثير في الحوادث الاجتماعية إلّا نتيجةً بسيطة للعدوى في الحقيقة، وإنني إذ بيَّنت شأن التقليد في كتاب آخر فإنني أكتفي بنقل ما قلتُه منذ زمن طويل فشرحه كُتَّابٌ آخرون بعد ذلك:

«الإنسان شبيه بالحيوان، فهو مُقلِّد بحكم الطبيعة، والتقليد في الإنسان وليد الاحتياج، وذلك على أن يكون هذا التقليد سهلًا، ومن ذلك الاحتياج ينشأ نفوذ الطِّراز، ومَن ذا الذي يقدر على الخلاص من سلطان الطِّراز سواء أكان الأمر رأيًا أم فكرًا أم مظهرًا أدبيًّا أو زيًّا: وبالأمثلة، لا بالأدلة، تُقاد الجماعات،

وفي كلِّ دور يَطّبَع عددٌ قليل من الناس أثرَهم فيقلَده الجمهورُ غيرُ الشاعر، ومع ذلك لا ينبغي لأولئك الناس أن يبتعدوا كثيرًا عن الأفكار المألوفة لِما يوجبه خلافُ هذا من عُسْر تقليدهم وضعف نفوذهم، ولذا لا ترى للأشخاص الذين هم أسمى من عصرهم أيَّ تأثير فيه فتَبْعُد الشُّقَّةُ بينهما، ولذا ترى الأوروبيين ذوي نفوذ هزيل في شعوب الشرق مع ما في حضارتهم من منافع.

«وما للماضي والتقليد من تأثير مضاعف مُتبادل يؤدِّي في نهاية الأمر إلى تماثل جميع رجال البلد الواحد في الدور الواحد، حتى الذين يَلوحُ أنهم في مَعْزِل من ذلك أكثرَ من سواهم كالفلاسفة والعلماء والأدباء، فترى على أفكارهم وأسلوبهم صِبغةَ الأسْرة التي يُعرف بها زمنُ ظهورهم حالًا، ولا احتياجَ إلى طول الحديث مع شخص لتعرف جيدًا مطالعاتِه وأعمالَه المعتادةَ والبيئةَ التي يعيش فيها([20])».

والعدوى هي من القوة ما تفرض به على الناس طُرُزًا للشعور فضلًا عن بعض الآراء، وبالعدوى ازْدُرِيَت روايةُ تَنْهاوْزِر ذاتَ زمن، ثمّ أُعجبَ بها بعد بضع سنين أولئك الذين نَفَروا منها أكثر من غيرهم.

والآراءُ والمعتقدات تنتشر بالعدوى، وقلَّما تنتشر بالبرهان، وبالتوكيد والتكرار والعدوى تولَّدت في الحانَة مبادئُ العمال الراهنة، ولم تظهر معتقدات الجماعات في جميع الأجيال على غير هذا الوجه، ومن الصواب أن شبَّه رينانُ مؤسسي النصرانية الأولين «بالعمال الاشتراكيين الذين ينشرون أفكارهم في الحانَة بعد الحانة»، وكان فُولْتِير قد لاحظ في موضوع الدين النصرانيِّ «أنّه لم يَدِنْ به في أكثرَ من مئة سنة غيرُ أسفل الناس».

وفي الأمثلة المماثلة لِما تقدَّم تسري العدوى إلى طبقات المجتمع العليا بعد أن تُجرِيَ حُكمَها في الطبقات الشعبية، وعلى هذا الوجه تبدأ المذاهب الاشتراكية في أيامنا باجتذاب من يكونون ضحاياها الأوَّلين على الخصوص، فتزول المصلحةُ الشخصية نفسُها أمام عامل العدوى.

من أجل ذلك لا يلبث كلُّ رأي يغدو شعبيًّا أن يُفْرَض على الطبقات الاجتماعية العليا مهما كان الرأي الفائز فاسدًا، وما كان من ردِّ فعل الطبقات الاجتماعية السُّفلى في الطبقات العليا هو من الطرافة كاشتقاق معتقدات الجماعة دومًا من فكر رفيع يظلُّ في الغالب غيرَ مؤثِّر في البيئة التي ولدَ فيها، وبيانُ الأمر هو أن الزعماء ينتحلون هذا الفكرَ الرفيع بعد أن يتمكن منهم، وهم يشوِّهونه فيُكَوِّنون شيعةً تشوِّهه مجدَّدًا، ثمّ تنشره هذه الشِّيعة مُشوَّهًا في الجماعات، وبعد أن يصبح ذلك حقيقةً شعبية يصعد إلى مصدره كما يلوح، وهنالك يؤثِّر في الطبقات العليا لدى الأمة، وهكذا يكون العقل مُسيِّرًا للعالم في نهاية الأمر، ولكنه يُسيِّره من أمَد بعيد جدًّا، أي إن الفلاسفة

الذين أوجدوا الأفكار يكونون قد غَدَوْا رُفاتًا منذ زمن طويل عندما يُكتب النصر لفكرهم في نهاية الأمر وَفق ذلك الجهاز.

3 – النفوذ

إذا كنت ترى للتوكيد والتكرار والعدوى سلطانًا عظيمًا فلأن هذه العوامل لا تلبث أن تكتسب تلك القوةَ الخفيَّة المسماةَ بالنفوذ.

وكلُّ شيء ذي سيطرة في العالم، أفكارًا كان أو رجالًا، فُرضَ على الخصوص بقوةٍ قاهرة يُعبَّرُ عنها بالنفوذ، ونحن ندرك ما لهذه الكلمة من معنى، ولكنها تطبق على وجه مختلف إلى الغاية فلا يَسهُل تعريفها، وقد ينطوي النفوذ على بعض المشاعر كالإعجاب والخوف، وقد تكون هذه المشاعر أصلًا للنفوذ، وقد يكون النفوذ بغير هذه المشاعر، وهنالك مَن ماتوا فظلُّوا ذوي نفوذ عظيم مع أننا عُدنا لا نخشاهم كالإسكندرِ وقيصرَ ومحمدٍ وبُدَّهَةَ (بوذا)، وتبصر من ناحيةٍ أخرى بعضَ التصورات التي لا نقول بها كالآلهة المضادَّة للذوق في معابد الهند القائمة تحت الأرض، وتبدو هذه التصوراتُ ذاتَ نفوذ عظيم مع ذلك.

والحقُّ أن النفوذ ضربٌ من الرُّقْية يؤثِّر بها في نفوسنا شخصٌ أو عمل أو مذهب، وهذه الرُّقْية تُبطل مَلَكَة النقد فينا وتملأُ نفوسنا عجبًا واحترامًا، وما يُثارُ إذ ذاك من المشاعر فمما لا يمكن شرحه، شأنُ جميع المشاعر، ومن المحتمل أن يكون هذا ضربًا من التلقين الذي يعانيه شخصٌ مُنوَّم، والنفوذُ أقوى عامل لكلِّ سلطان، وما كان للآلهة والملوك والنساء سيطرةٌ بغيره.

ويمكن ردُّ أنواع النفوذ إلى قسمين أساسيين: النفوذِ المكتسب والنفوذِ الشخصيِّ، والنفوذُ المكتسب هو الذي يَصدُر عن الاسم والثَّراء والشهرة، والنفوذُ المكتسب قد يكون مستقلًّا عن النفوذ الشخصيِّ، والنفوذُ الشخصيُّ أمرٌ فرديٌّ يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة أحيانًا أو يَتَقوى بها، ولكن مع إمكان استقلاله عنها استقلالًا تامًّا.

والنفوذُ المكتسب أو المصنوعُ هو أكثر أنواع النفوذ انتشارًا، ومن ذلك أن شخصًا إذا غدا صاحبَ منصبٍ أو ثروة نال بعض الألقاب فصار ذا نفوذ مهما كان عاطلًا من أية قيمة ذاتية، ويتمتع الجنديُّ اللابس بِزَّةً عسكرية والقاضي اللابسُ حلَّة حمراء بنفوذٍ على الدوام، ومن الصواب أن أَوْصَى بَسْكالُ بضرورة ارتداء القضاة حُللًا وشعورًا مستعارة، ولولا هذه الأشياء لفقدوا قسمًا كبيرًا من نفوذهم، حتى إن أشدَّ الاشتراكيين غِلظةً تأخذه روعةٌ عند رؤيته أميرًا أو مركيزًا، وألقابٌ كهذه تكفي لاختلاس ما يُراد من تاجر([21]).

والنفوذُ الذي تكلمت عنه هو الذي يزاوله الأشخاص، ويمكن أن يوضع بجانبه ما يكون للآراء والآثار الأدبية أو الفنية أو ما إليها من النفوذ، وهذا النفوذ ناشئ عن التكرار المتراكم في الغالب، والتاريخُ، وتاريخُ الآداب والفنون على

الخصوص، إذ كانا تكرارًا لأحكام لم يحاول مراقبتَها أحدٌ لم يلبث كلّ واحد أن يُكرِّر ما تَعَلمه منهما في المدرسة، ومن الأسماء والأمور طائفةٌ لا يجرؤ أحدٌ أن يَمَسَّها، ومن ذلك أن القارئ العصريَّ يلاقي مللًا عظيمًا لا شبهة فيه من مطالعة آثار أُوميرُس، فمن ذا الذي يَجرؤ على التصريح بذلك؟ ومن ذلك أن البَارْتِنُون أصبحَ الآن طَلَلًا عاطلًا من أية فائدة، غير أنّه يتمتع بنفوذ يُرى معه في موكب من الذِّكريات التاريخية، فآيةُ النفوذ في أنّه يحول دون رؤية الأمور كما هي وفي إبطال مَلَكات التمييز فينا، والواقعُ أن الجماعاتِ على الدوام، والأفرادَ في الغالب، تحتاج إلى آراءٍ مُعَدَّة سلفًا، ونجاحُ هذه الآراء مستقلٌّ عما فيها من حقيقة وخطأ، ويقوم هذا النجاح على النفوذ وحدَه.

والآن أنتقل إلى النفوذ الشخصيِّ، وتتألف من هذا النفوذ، الذي يختلف بطبيعته عن النفوذ المصنوع أو المكتسب اختلافًا كبيرًا، مَلَكةٌ مستقلة عن كلِّ لقب وكلِّ سلطان، وذلك أن للأشخاص الذين يتصفون به سِحرٌ مُنوِّم لجميع من يحيطون بهم وإن كانوا مساوين لهم، وهم يُطاعون كما يُطيع الحيوانُ الضاري مُروِّضَه مع قدرته على افتراس هذا المُروِّض بسهولة.

وكان أعاظم قادة البشر، مثل بُدَّهَة وعيسى ومحمدٍ وجان دارك ونابليون، حائزين نفوذًا من هذا النوع إلى أعلى درجة، وهم قد فرضوا أنفسهم على الآخرين بفضل هذا النفوذ على الخصوص، وتفرض الآلهةُ والأبطال والعقائد ولا يجادَل فيها، وهي تزول إذا ما غَدتْ موضعَ جدل.

وكان العظماء المشار إليهم يملِكون قدرة ساحرة قبل أن يشتهروا، وهم لم يشتهروا إلّا بهذه القدرة، ومن ذلك أن نابليون وهو فوق ذروة المجد كان يزاول نفوذًا عظيمًا بفعل سلطانه، وأن نابليونَ كان متحليًا مع ذلك ببعض هذا النفوذ عندما قَبض على منصبه، ونابليونُ هذا، وقد كان جنرالًا مجهولَ الأمر، أُرسِلَ عن حمايةٍ ليقود الحملةَ الإيطالية، فوجدَ نفسه بين جنرالات عتاة وطَّنوا أنفسَهم على استقباله بغلظة، وهو الدخيلُ الشابُّ الذي بعثت به إليهم حكومة الديركتوار (المديرين)، غير أن أولئك قد غُلبوا على أمرهم بلا كلامٍ ولا إشارةٍ ولا وعيدٍ منذ الدقيقة الأولى، منذ اللقاء الأول، منذ أول نظرةٍ ألقاها رجلُ المستقبل العظيمُ هذا، وإليك كيف يقصُّ علينا تاينُ خبرَ ذلك اللقاء الطريفِ مستندًا على مذكِّرات المعاصرين:

«وصلَ إلى المعسكر العامِّ قوَّادُ الفرقة، وكان منهم أُوجِيرُو البطلُ القديمُ الفظُّ الفخورُ بطول قامته وشجاعته، وكان أولئك كثيري الامتعاض من ذلك الحديث النعمة الصغير الذي أرسل إليهم من باريس، ويبدو أُوجِيرُو مُتَشَتِّمًا متمردًا مُقدَّمًا تجاه ما وُصف به بونابارت، ويُنْعَتُ بونابارتُ بأنه صنيعة بَارَاس، وبأنه قائد فَانْدِيمِير (الشهر الأول من السنة الجمهورية)، وبأنه قائد شارع، وبأن له منظر الدُّبِّ لتفكيره منعزلًا على الدوام، وبأنه صغير الهيئة، وبأنه رياضيٌّ خياليٌّ، ويُدْخَلون إليه، ويُبطئ بونابارت في الدخول عليهم، ثمّ يظهر

متقلدًا سيفه، ويرتدي معطفَه، ويُنبِّئهم بما عقد نِيَّته عليه، ويُلقِي عليهم أوامره ويشير عليهم بالانصراف، ويظلُّ أُوجِيرُو صامتًا، ولم يَرجع إلى نفسه ولم يعد إلى وعيده المعتاد إلّا بعد خروجه، ويعترف أُوجِيرُو ومَسِّينا بأن هذا القائد الصغير أفزعهما، ويَعْجِزُ أُوجِيرُو عن إدراك سرِّ ما أخذ به عند أول نظرة».

ويصبح نابليون عظيمًا، ويزيده مجدُه نفوذًا فيساوي الآلهة لدى العابدين، وعن نابليونَ يقول الجنرال فَنْدام، الثوريُّ القديم الذي هو أشدُّ عنفًا وغلظة من أُوجِيرُو، مُحدِّثًا الماريشال أُورْنانو وهما يصعدان مِرْقاةَ قصر التُّوِيلْرِي في سنة 1815:

«إن لذلك الخبيث من السحر في نفسي ما لا أقدر على اكتناهه، حتى إنني، أنا الذي لا يخشى الإلهَ ولا الشيطانَ، أشعرُ بارتجاف كالطفل إذا ما دنوت منه فيستطيع أن يُولِجَني في سمِّ الخِياط ليحرقَني في النار([22])».

ولنابليونَ سِحرٌ كهذا في جميع من يقتربون منه، واسمع قولَ دافو مُخبرًا بإخلاصه وإخلاص مارِه:

«لو أفضى الإمبراطور إلينا بقوله إن من مقتضيات سياستي أن أهدم باريس من غير أن يَخْرُج منها أحد فِرارًا من الهلاك لكتم مارِه السِّرَّ كما أرى، وذلك من غير أن يمنع نفسه من الإخلال به، فيُخرجُ من باريس أسرتَه، وأما أنا فأخشى أن يكتشف الإمبراطورُ الحقيقةَ فتراني أترك زوجي وأولادي بباريسَ إذ ذاك».

وتوضح لنا قوة السحر الرائعةُ تلك ذلك الرجوعَ العجيب من جزيرة إلْبَة وافتتاحَ فرنسا من قِبَل رجل وحيد، ومكافحةَ هذا الرجل لجميع قُوَى ذلك البلد العظيم المنظمة، ذلك البلدِ الذي كان يُظنُّ نَصَبُه من جبروت ذلك الرجل، فما كان على ذلك الرجل إلّا أن ينظر إلى القادة الذين أُرسلوا للقبض عليه حتى يخضعوا له بلاد جدال، قال الجنرال الإنكليزيُّ وُلْسلي:

«نزل نابليون من السفينة إلى فرنسا وحدَه تقريبًا كهاربٍ من جزيرة إلْبَة الصغيرة التي كانت مملكةً له، فوفِّق في بضعة أسابيعَ لأن يقلب من غير سفك دماء نظامَ السلطة الفرنسية في عهد ملكٍ شرعيّ، وهل كان لأحد من النفوذ الذاتيِّ ما هو أكثرُ من ذلك إثارةً للعجب؟ وهل هناك ما هو أدعى للذكر من النفوذ الذي كان له في تلك الحرب التي هي آخر حروبه، أي في الحلفاء مُكْرِهًا إياهم على تتبُّع مبادراته التي كاد يسحقهم بها؟».

ونفوذُ نابليونَ بقيَ بعد موته، وما انفكَّ يَعْظُم، وبفضل هذا النفوذ أصبح ابنُ أخٍ لنابليون غامضُ الأمرِ إمبراطورًا، واليوم حين نبصر بعثَ أسطورته ندرك درجةَ قدرة ذلك الظلِّ حتى الآن، فاضْطَهِدِ الرجالَ واقتلْهم ملايينَ

واجْلَبْ إلى البلد غزوًا بعد غزوٍ تجدْ ذلك مباحًا لك إذا كنتَ ذا نفوذٍ كافٍ وحِذْقٍ لازمٍ لحفظ هذا النفوذ.

أجل، إنني جئت هنا بمثالٍ عزيز للنفوذ لا ريب، غير أن هذا المثالَ نافعٌ في بيان تكوين الدِّيانات العظيمة والمذاهب الكبيرة والدول الواسعة، ولولا ما للنفوذ من السلطان على الجماعات لظلَّ هذا التكوين أمرًا يتعذر إدراكه.

ولكن النفوذ لا يقوم على السلطان الشخصيِّ أو على المجد الحربيِّ أو الهول الدينيِّ وحدَه، فقد يمكن النفوذَ أن ينشأ عن مصادرَ أصغرَ شأنًا من تلك وأن يكون عظيمًا مع ذلك، ولنا من القرن الحاضر عدَّةُ أمثلة، ومن هذه الأمثلة ذلك المثالُ التي ستتناقله الأجيال، أي قصةُ الرجل الشهير الذي ذكرناه آنفًا فقلنا إنه غيَّر وجهَ الكرة الأرضية والعلاقاتِ التجاريةَ بين الأمم بفصله بين قارَّتين، ذلك الرجلِ الذي وُفِّق في عمله بفضل عزيمته العظيمة وبما له من سحر لجميع من حوله، ذلك الرجلِ الذي لم يكن عليه سوى الظهور والكلام ثانيةً حتى يتغلب على ما يَحِيق به من معارضة إجماعية فيصبحَ المعارضون أصدقاءَ بفعل فَتْنِه، وكان الإنكليز على الخصوص يناهضون خِطَّةَ ذلك الرجل بعناد، فلمّا بدا في إنكلترا كفى ظهورُه فيها لنيله جميعَ الأصوات، وهو لمَّا مرَّ من سَوْثَنْبِن بعد مدة دقت النواقيس إيذانًا بعبوره، وهو إذ قهر كلَّ شيء من رجالٍ وغير رجالٍ وعاد لا يؤمن بالعوائق أراد أن يصنع في بَنَاما مثلَ ما صنع في السويس بالوسائل نفسِها، غير أن الإيمان الذي يزيل الجبال لا يزيلها إذا كانت عاليةً جدًّا، فقد قاومت الجبالُ، وما كان من بَلِيَّةٍ فقد قضى على ما يُكلِّل رأس ذلك البطل من المجد، ولنا في حياة ذلك البطل مثالٌ على الوجه الذي يَعْظُم به النفوذ ويزول، وهو أن ساوى أشهر رجال التاريخ عظمةً أنزله قضاةُ بلده إلى أسفل دركات المجرمين، وقد مرَّت جنازته منفردةً بين عدم اكتراث الجماعات، وملوكُ الأجانب وحدَهم هم الذين أحاطوا ذكراه بالتكريم([23]).

بيدَ أن تلك الأمثلةَ المختلفة تَنِمُّ عن أقصى ما ينتهي إليه النفوذ، فعلى من يودُّ أن يعرف روحَ النفوذ مفصلًا أن يبحث في السلسلة من مؤسسي الديانات والدول إلى الشخص الذي يحاول أن يَبْهَرَ جيرانه بثوب جديد أو وسام.

وتجدُ بين طرفيْ تلك السلسلة وجوهًا للنفوذ في مختلف عناصر الحضارة كالعلوم والفنون والآداب وما إليها، وتجد أن النفوذ عنصرٌ أساسيٌّ للإقناع، والإنسانُ أو الفكر أو الشيء إذا ما كان ذا نفوذ لا يَنْشَب أن يُقَلَّد بالعدوى في الحال وأن يفرض على جيلٍ بأسره طُرُزًا للشعور والتعبير عن الأفكار، على أن التقليد هو غيرُ شعوريٍّ في الغالب، وهذا هو الذي يجعله تامًّا، والمُصوِّرون المعاصرون حين يقتبسون الألوانَ الطامسة والأوضاعَ المتشددة لدى بعض الفطريين لا يرتابون في مصدر وحيِهم فيعزون ذلك إلى صفائهم مع أنه لولا

بعثُ ذلك الشكل الفنيِّ من قِبَل أستاذٍ لاستمرَّ الناس على رؤية نواحيه الساذجة المنحطة، وإذا نظرتَ إلى أولئك الذين ساروا على غِرارِ مبتدعٍ شهير فأغرقوا مصوراتِهم بالظلال البنفسجية وجدتَهم لم يروا في الطبيعة من البنفسج أكثر مما كانوا يرون منذ خمسين سنة، غير أنّه كان لذلك المصوِّر من النفوذ الكبير ما استطاع به أن يؤثِّر فيهم تأثيرًا شخصيًّا خاصًّا فصدر عنهم ما عَلِمْتَ، ويسهل إيراد الأمثلة التي هي من هذا القبيل في كلِّ عنصر من عناصر الحضارة.

ومما تقدم ترى إمكانَ دخول كثير من العوامل في تكوين النفوذ، والنجاحُ من أهمِّ هذه العوامل على الدوام، فلا يجادَل في الرجل الذي ينجح والفكر الذي يُفْرَض لهذا السبب.

وعدمُ النجاح نذيرُ زوالِ النفوذ دومًا، والبطلُ الذي تهتف له الجماعة لا يُعَتِّم أن يصير عُرضةً لإهانتها غداةَ نكبته، وردُّ الفعل يشتدُّ بنسبة عِظَمِ النفوذ، وهنالك تَعُدُّ الجماعةُ البطلَ الساقط نِدًّا لها فتنتقم من هذا الذي خضعت لسلطانه فعادت لا تعرفه، ومن ذلك أن رُوبِسْبير كان يضرب رقاب زملائه ورقاب كثير من معاصريه فينالُ بذلك نفوذًا واسعًا، فلما خَسِر بعض الأصوات أضاع نفوذه من فوره فشيَّعته الجماعةُ إلى المِقْصَلة لاعنةً إياه بمثل اللعنة التي كانت تَصُبُّها على ضحاياه، فالمؤمنون يَكْسِرون تماثيلَ آلهتهم السابقة بحماسة على الدوام.

والنفوذُ الذي يذهب به الإخفاقُ يزول بغتةً، وقد يَبْلى النفوذ بالجدال، ولكن هذا البِلَى يتمُّ ببطءٍ، وهذه الطريقةُ هي أقومُ الطرق لاندثاره مع ذلك، والنفوذُ الذي يُجَادَل فيه لا يعود نفوذًا، والآلهةُ والرجالُ إذ كانت تعرف أن تحافظ على نفوذها زمنًا طويلًا لم تُطِق الجدال، ويجب على من يرغب أن يكون موضع إعجاب الجماعات أن يترفع عن منزلها في كلِّ وقت.

الفصل الرابع
حدودُ تقلّب معتقداتِ الجماعاتِ وآرائِها

(1) المعتقدات الثابتة – ثبات بعض المعتقدات العامة – هذه المعتقدات هي أدلاء الحضارة – صعوبة استئصالها – كيف يكون عدم التسامح فضيلة لدى الأمم – فساد المعتقدات العامة فلسفيًّا لا يعوق انتشارها – (2) تقلب الآراء في الجماعات – تقلب الآراء التي لا تشتق من المعتقدات العامة – التقلبات الظاهرة في الأفكار والمعتقدات في أقل من قرن – الحدود الحقيقية لهذه التقلبات – العناصر التي تتغير – زوال المعتقدات العامة في الوقت الحاضر، واطراد الآراء في التقلب بفعل شدة انتشار الصحافة في أيامنا – كيف تميل آراء الجماعات إلى عدم الاكتراث للموضوعات الكلية – عجز الحكومات عن توجيه الرأي كما في الماضي – تفتت الآراء في الوقت الحاضر يحول دون طغيانها.

1 – المعتقداتُ الثابتة

ترى بين الصفات التشريحية في الموجودات والصفات النفسية شبهًا وثيقًا، فتجدُ الصفات التشريحية بعضَ العناصر الثابتة، أو القليلةِ التغير، التي لا بدَّ من انقضاء أجيالٍ جيولوجية لتحويلها، وتجدُ بجانب هذه الصفات الثابتة التي لا تبديل لها صفاتٍ أخرى كثيرةَ التقلب فبلغت البيئة والتربية والبَسْتَنةُ من تبديلها ما تخفى معه صفاتُها الأساسية على الناظر القليل التأمل.

وتُلاحَظ تلك الظاهرةُ في الصِّفات الخُلقية أيضًا، فتجدُ بين عناصر العرق النفسيةِ الثابتة عناصرَ متقلبةً متحولة، وفي هذا سرُّ ما نراه دومًا عند البحث في معتقدات إحدى الأمم وفي آراء هذه الأمة من أساس ثابت تَنبُت عليه آراءٌ متقلبة كتقلب التراب الذي يسترُ الصخرة.

وهكذا تنقسم المعتقدات والآراء إلى قسمين مختلفين، فمن جهةٍ تُبصِر المعتقداتِ الكبيرةَ الثابتة التي تدوم عدَّةَ قرون فتقوم عليها إحدى الحضاراتُ بأجمعها، شأنَ المبادئ الإقطاعية والأفكار النصرانية والآراء الإصلاحية فيما مضى، وشأنَ مبادئ القوميات والأفكار الديموقراطية والاشتراكية في أيامنا، ومن جهةٍ أخرى تُبصِر الآراء الموقتة المتحولة المشتقةَ في الغالب من المبادئ العامة، فيرى كلُّ جيلٍ ظهورَها وزوالها، شأنَ النظريات التي توجِّه الفنون والآداب ذاتَ حينٍ والتي نذكر منها مثلًا ما يُسفِر عن المذهب الروائيِّ والمذهب الطبيعيِّ إلخ، وهذه الآراء، وهي سطحية كالزِّيِّ، تتغير كتغير الأمواج الصغيرة الناشئة فتزول باستمرار فوق بحيرةٍ ذاتِ مياهٍ عميقة.

وعددُ المعتقدات الكبيرة العامة قليلٌ جدًّا، ويتألف من تكوينها وزوالها في كلِّ عرق تاريخيّ أبرزُ أدوار تاريخ هذا العرق، فهي قِوامُ الحضارات الحقيقيُّ.

ومن السهل أن يستقرَّ رأيٌّ عابر في روح الجماعات، ولكن من الصعب جدًّا أن يَرْسَخ في تلك الروح معتقدٌ دائم، كما أن من الصعب جدًّا أن يُهدَم هذا المعتقد بعد تكوينه، ومعتقدٌ كهذا لا يمكن تغييره إلّا بالثَّوْرات العنيفة وقتما

يكون قد خَسِر جميع سلطانه على النفوس تقريبًا، وهنالك تنفع الثّوْرات في نبذِ ما كان قد هُجِر من المعتقدات نبذًا كاملًا فتَحُول العادة دون إهماله إهمالًا تامًّا، والحقُّ أن الثوراتِ التي تُقبِل هي معتقداتٌ تُدبِر.

واليوم الذي تبدو فيه علائم الزوال على المعتقد الكبير هو اليوم الذي تغدو فيه قيمة هذا المعتقد موضعَ جِدال، وإذ لم يكن كلُّ معتقد عامّ غيرَ افتراضٍ فإنه لا يدوم إلّا إذا تفلَّت من سلطان البحث.

بيدَ أن النُّظم التي تُشتقُّ من المعتقد تحافظ على قوتها مع ارتجاج ذلك المعتقد، فلا تَمَّحِى تلك النُّظم إلّا ببطوء، والمعتقدُ إذا ما فقد جميعَ سلطانه في نهاية الأمر انهار جميعُ ما يُمسكه.

ولم تُوَفَّق أمةٌ لتغيير معتقداتها من غير أن يُقضىَ عليها من فَوْرها بتحويل عناصر حضارتها، وتلك الأمةُ تسير في تحويل هذه العناصر حتى الزمن الذي تعتنق فيه معتقدًا جديدًا عامًّا، وتلك الأمة تعيش في الفوضى حتى ذلك الزمن، فالمعتقداتُ العامة هي دعائمُ ضروريةٌ للحضارات، وهي التي توجِّه الأفكار، وهي التي توحي بالإيمان وتوجِدُ الواجب.

والأممُ شَعرَت على الدوام بفائدة اكتساب معتقدات عامة، والأممُ أدركت بغريزتها أن زوال هذه المعتقدات هو نذير انحطاط لها، وقديمًا كان يتألف من عبادة روما بتعصبٍ ذلك المعتقدُ الذي جعل الرومانَ سادةَ الدنيا، فلما مات ذلك المعتقدُ هلكت روما، وانظر إلى حال البرابرة الذين قَضَوْا على حضارة الرومان تجدْ أنهم لم ينالوا شيئًا من الالتحام فيخرجون من الفوضى إلّا عند اكتسابهم بعضَ المعتقدات العامة.

إذن، ليس من غير سببٍ أن دافعت الأمم عن معتقداتها بتعصب على الدوام، ويبدو هذا التعصب فضيلةً في حياة الأمم، وإن كان موضعَ انتقادٍ شديد من الناحية الفلسفية، وفي سبيل إقامة معتقداتٍ عامة أو تأييدِها أُقيمت المحارق في القرون الوسطى ومات كثير من المخترعين والمبتدعين قانطين عند ما لا تصيبهم ضروب التعذيب، وفي سبيل الدفاع عن المعتقدات قُلِبَت الدنيا غيرَ مرة وسقطت ملايين البشر في ميادين القتال كما أنها ستسقط.

ومما قلناه إن هنالك مصاعبَ كبيرةً تحول دون قيامِ معتقد عامّ، ولكن هذا المعتقد إذا ما قام أضحى ذا سلطان لا يُقهرُ زمنًا طويلًا، وهذا المعتقدُ يَفرِض حُكمه على ذوي البصائر مهما كان فاسدًا من الوجهة الفلسفية، أفَلَمْ تَعُدَّ أممُ أوروبا منذ خمسةَ عشرَ قرنًا من الحقائق الثابتة تلك الأساطيرَ الدينية التي تبلُغ في غِلظتها([24]) أساطيرَ مُولك إذا ما بُحِث فيها عن كَثَب؟ لم يُبصِر أحدٌ في عدَّة قرونٍ هولَ فساد تلك الأسطورة القائلة إن إلهًا انتقم من ابنه بأقسى العذاب تكفيرًا عن عصيان أحد خلقه، حتى إن أحدًا من أقوى العباقرة، كغَلِيلو ونيوتن وليبْنِتْز، لم يفترض إمكانَ الجِدال في حقيقة مثل تلك

الأساطير ولو ثانيةً واحدة، ولا شيءَ أحسنَ من ذلك يثبِت ما يَنْجُم عن المعتقدات العامة من التنويم، ولكنك لا تجد شيئًا أحسنَ من ذلك يدلُّ على ما لروحنا من الحدود المخزية.

والعقيدةُ الجديدة إذا ما رَسَخَت في روح الجماعات أوحت إلى هذه الروح بنُظُمِها وفنونها وسلوكها، وهنالك يغدو سلطان العقيدة على النفوس مطلقًا، فيُفكِّر رجال العمل في تحقيقها، ويُفكِّر المشترعون في تطبيقها، ويُفكِّر الفلاسفة والمتفننون والأدباء في التعبير عنها بمختلف الوجوه.

أجل، يمكن أن ينشأ عن المعتقد الأساسيِّ أفكار مؤقتة ثانوية، غير أن هذه الأفكار تَحمِل على الدوام طابعَ الإيمان الذي صدرت عنه، وقد اشتُقَّت الحضارةُ المصرية وحضارة القرون الوسطى الأوروبيةُ وحضارة العرب الإسلامية من عدد قليل من المعتقدات الدينية التي طبعت طابعها على أدقِّ عناصر هذه الحضارات فأسفر ذلك عن سهولة معرفتها من فَوْرها.

ويحاط رجال كلِّ جيل بفضل المعتقدات العامة بشبكة من التقاليد والآراء والعادات التي لا يَقْدِرون على التخلص منها والتي تجعلهم متشابهين بعض الشَّبه على الدوام، ولا يفكر أكثر النفوس استقلالًا في التفلّت من نيرها، ولا طغيانَ حقيقيًّا غيرُ الذي يعتري النفوس على وجه لاشعوريّ، وذلك لأنه الطغيانُ الوحيد الذي تتعذر مكافحته، أجل، كان طِيبِرْيوس وجنكيزخان ونابليون طُغاةً مرهوبين لا ريب، غير أن ما لموسى وبُدَّهَة (بوذا) وعيسى ومحمد ولُوثِر من تَحكُّمٍ في النفوس صادرٍ عن أعماق قبورهم فذو أثرٍ أبعدَ مما لأولئك، وقد تَقضِي مؤامرةٌ على جبَّار، ولكن ماذا تستطيع أن تصنع مثلُ هذه المؤامرة في معتقد مستقرّ بالنفوس؟ وانظر إلى الثورة الفرنسية الكبرى تَجدْ أنها هي المغلوبة في مقاتلتها العنيفة للكثلكة على الرغم من مؤازرة الجموع لها في الظاهر وعلى الرغم مما اتخذته من وسائل الإبادة التي تشابه في قسوتها وسائلَ محاكم التفتيش، فلقد كانت ظلال الأموات أو الأوهام التي أوجدها الإنسان لنفسه جبابرةَ البشر الحقيقيين في كلِّ زمن.

ولم تكن استحالة بعض المعتقدات العامة من الناحية الفلسفية لتَعوقَ انتصارَ هذه المعتقدات كما قلت ذلك غيرَ مرة، حتى وإن هذا الانتصار لا يكون ممكنًا كما يلوح إلّا إذا اشتمل على شيء من المُحال الخفيِّ، ولن يحول ضَعْف المعتقدات الاشتراكيةِ الحاضرةِ الواضحُ دون رسوخ هذه المعتقدات في روح الجماعات، والذي يجعل هذه المعتقداتِ أقلَّ مرتبةً من جميع المعتقدات الدينية هو أن هذه المعتقدات الدينية تَعِدُ بسعادة لا تُحَقَّق في غير حياةٍ ثانية لا يَقدِر أحدٌ أن يُمارِيَ في أمر تحقيقها، وأن السعادةَ الاشتراكية إذ كان عليها أن تتحقق في الدنيا لا يُعَتِّم بُطلان الوعود بها أن يَبْدُوَ منذ البدءِ بتحقيق هذه الوعود فيفقد المعتقد الجديد كلَّ نفوذ له، فسلطانُ الخيال الاشتراكيِّ لا يَعْظُم إلَّا إلى يوم تحقيقه، إذن، ولذلك نقول إذا كان هذا الدين

الجديد في البَداءة ذا عمل مخرب كجميع الأديان التي ظهرت قبله فإنه لن يكون ذا شأن مُبْدع.

2 – تقلُّب الآراء في الجماعات

تجد فوق المعتقدات الثابتة التي بيَّنا ما لها من سلطانٍ طبقةً من الآراء والأفكار والتصورات التي تُولَد وتموت دومًا، ومنها ما يدوم قليلًا جدًّا ولا يجاوز دوامُ أهمِّها حياةَ جيلٍ واحد، ومما أشرنا إليه أن التغيراتِ التي تعتور تلك الآراء تكون في بعض الأحيان سطحيةً أكثر من أن تكون حقيقيةً فتَحْمِل سِمَةَ صفاتِ العرق على الدوام، ونحن حين نظرنا إلى نُظُم بلدنا السياسية مثلًا بَيَّنا أن أشدَّ الأحزاب اختلافًا في الظاهر، كالمَلكيين والجَذْريين والإمبراطوريين والاشتراكيين إلخ، ذاتُ خيالٍ متماثلٍ تمامًا، وأن هذا الخيال يعود إلى مزاج عرقنا النفسيِّ وحدَه ما دمتَ ترى لدى أممٍ أخرى خيالًا معاكسًا وإن تماثلت الأسماء، وليس من شأن الاسم الذي يُطْلَق على الآراء، ولا من شأن المطابقات الخادعة، أن يُغَيِّر أساسَ الأمور، ومن ذلك أن أبناء الطبقة الوسطى أيام الثورة الفرنسية كانوا مُشْبَعين من الآداب اللاتينية وكانت عيونُهم شاخصةً إلى الجُمهورية الرومانية فانتحلوا قوانينَها وقُضْبانَها السَّنْدَريَّة وحُلَلَها فلم يصبحوا من الرومان مع ذلك لِما كان من خضوعهم لسلطان مُؤَثِّراتهم الموروثة القوية.

ويقوم شأن الفيلسوف على البحث عما يبقى من المعتقدات القديمة تحت ستار التحولات الظاهرة، وأن يميِّز من خلال أمواج الآراء المتقلبة تلك الحركات التي تعيِّنها المعتقدات العامة وروح العرق.

ولولا ذلك المقياسُ لأمكن القولُ بأن الجماعاتِ تُغَيِّر من المعتقدات السياسية أو الدينية كثيرًا كما تريد، ويظهر أن التاريخ بأَسْره سياسيًّا كان أو دينيًّا أو فنيًّا أو أدبيًّا يؤيد هذا القول بالحقيقة.

ولْنَتَّخذ دَوْرًا قصيرًا مثلًا، أي الدورَ الممتد من سنة 1790 إلى سنة 1820، وهو يَعْدِل جيلًا لدوامه ثلاثين سنة، ففي هذا الدور نرى الجماعات، وقد كان مَلَكِيَّةً في البَداءة، أصبحت ثوريةً فإمبراطورية، ثمّ عادت إلى المَلَكية، وفي ذلك الدور نرى الجماعاتِ قد تطورت في الدين فانتقلت من الكاثوليكية إلى الإلحاد فإلى الاعتقاد بوجود الإله مع إنكار الوحي، ثمّ رَجَعَت إلى أشدِّ وجوه الكاثوليكية مغالاةً، وليست الجماعاتُ وحدَها هي التي عانت تلك التحولاتِ، بل عاناها زعماء هذه الجماعات أيضًا، ومن هؤلاء كِبار رجال العهد الذين كانوا أعداءَ الملوك الزُّرق ولم يريدوا إلهًا ولا رؤساء فغَدَوْا خُدَّامًا خُضَّعًا لنابليون ثمّ حَمَلُوا بخشوعٍ شموعًا في الاحتفالات أيام لويس الثامن عشر.

وما أكثر ما حَدَث من تحول في آراء الجماعات في السنوات السبعين التي عَقَبَتْ ذلك الدور، فقد أصبح ألبيون الغَدَّار (إنكلترا) حليفًا لفرنسا في عهد

وارث نابليون منذ أوائل هذا القرن، وحاربنا روسيا مرتين فُسرَّتْ كثيرًا بما أُصِبْنا به من الانكسار الأخير، ثمّ غَدَت صديقةً لنا بغتةً.

وأسرعُ من ذلك أيضًا ما يتجلى في الآداب والفنون والفلسفة من تعاقب الآراء، فقد ظهر المذهب الروائيُّ والمذهب الطبيعيُّ والمذهب التصوفيُّ إلخ، وماتت هذه المذاهب بالتتابع، والمتفننُ والكاتب اللذان يُهْتَف لهما اليوم يُزْدَريان في الغد ازدراءً عميقًا.

ولكنْ إذا ما حَلَّلْنا هذه التحولاتِ العميقةَ في الظاهر فماذا نرى؟ نرى أن جميع ما هو مخالفٌ من تلك التحولات للمعتقدات العامة ولمشاعر العِرْق لا يَتَّصِف بغير ديمومةٍ مؤقتة، فلا يَلْبث النهر المنحرف أن يعود إلى مجراه، وتكون الأفكار التي لا ترتبط في أيِّ معتقد عامّ ولا في أيٍّ من مشاعر العِرْق والتي لا تتصف بالثبات لهذا السبب خاضعةً لجميع المصادفات، وإن شِئْتَ فقُلْ خاضعةً لأقلِّ تحولٍ في البِيئة، وتكون تلك الأفكار مؤقتةً دومًا لأنها وليدة التلقين والعدوى، وهي تُولَدُ وتزول بسرعة كأكثبة الرمال التي تُكَوِّنها الريح على شاطئ البحر.

ومقدارُ ما في الجماعات من آراءٍ متقلبةٍ في أيامنا أعظمُ مما في أيِّ زمن، ولهذا ثلاثةُ أسبابٍ مختلفة:

فالسببُ الأول هو أن المعتقداتِ القديمةَ تَفْقِد سلطانَها بالتدريج، فعادت لا تُؤَثِّر كما في الماضي في الآراء العابرة فتمنحها بعضَ التوجيه، وما كان من امِّحَاءِ المعتقدات العامة فإنه يَفْسَح في المجال لطائفة من الآراء الخاصة التي لا ماضي لها ولا مستقبل.

والسببُ الثاني هو أن سلطان الجماعات يزيد فيَنْقُص ما يوازنه مقدارًا فمقدارًا فتستطيع أفكارُها الشديدة التقلب أن تَبْدُوَ طليقة.

والسببُ الثالث هو ما اتَّفَق للمطبوعات حديثًا من انتشار، فأَسْفَر هذا الانتشارُ عن عرْض أكثر الآراء تناقضًا على الأعين، وما يَصْدُر عن كلِّ واحد من تلك الآراء من تلقين لا يَلْبَث أن تَقْضِيَ عليه تلقيناتٌ معاكسة، ولا يَتَّفِق لأيِّ رأيٍ من الانتشار ما يَهْدِف إليه إذَنْ، وترى جميع الآراء محكومًا عليها بالأفول إذَنْ، وهي تموت قبل أن يَتِمَّ لها من الذيوع ما تصبح به عامَّةً إذَنْ.

وتَنْجُم عن تلك العلل المختلفة ظاهرةٌ حديثة في تاريخ العالم يَنْفرد بها الجيل الحاضر، وتلك الظاهرةُ هي عَجْز الحكومات عن توجيه الرأي العام.

كان تأثير الحكومات وبعضِ الكُتَّاب وعددٍ قليل من الجرائد في الماضي، وفي الماضي غيرِ البعيد، ناظمًا حقيقيًّا للرأي العام، واليومَ أضاع الكُتَّاب كلَّ نفوذ، وعادت الجرائد لا تفعل غيرَ ترديد صدى الرأي العام، وصار رجال الدولة لا يَرَوْن غيرَ اتباع الرأي العام بدلًا من قيادته، ومما يحدث أحيانًا أن ينقلب

خوف رجال الدولة من الرأي العام إلى هَوْلٍ فيذهبَ هذا بكلِّ ثباتٍ في سَيْرهم.

ومن ثمَّ ترى أن رأي الجماعات يتدرج إلى أن يكون ناظمَ السياسة الأعلى، واليوم يبلغ هذا الرأي من القوة ما يَفْرِض به محالفاتٍ كمحالفاتنا للروس التي نشأت عن حركة شعبية كما رأينا.

ومن أطرف ما يقع في أيامنا ما نُبْصِره من خضوع البابوات والملوك والقياصرة لمبدأ التزاور فيَعْرِضون رأيَهم في الموضوع وَفْقَ حكم الجماعات، وسابقًا أمكن القول بأن السياسة ليست أمرًا عاطفيًّا، فهل يمكن أن يقال ذلك في هذا الزمن الذي تهتدي فيه السياسةُ باندفاعات الجماعات المتقلبة الجاهلة للعقل والتابعةِ للعاطفة فقط؟

وانظرْ إلى الصِّحافة، وهي التي كانت دليلَ الرأي العام فيما مضى، تَجِدْها مُكْرَهةً على الانزواء أمام سلطان الجماعات كما تنزوي الحكومات، وللصِّحافة قدرةٌ عظيمةٌ في الحقيقة، وهي صاحبةٌ لهذه القدرة لأنها مرآة للآراء الشعبية ولِما لا ينقطع من تَقَلُّب هذه الآراء، وهي لأنها غَدَتْ وكالةَ استخبارٍ بسيطةً عَدَلَتْ عن فَرْض أيِّ فكرٍ أو أيِّ مذهب، وهي تَتَّبِع كلَّ تحولٌ في الرأي العام، وما كان من ضرورة المزاحمة فيَقْضِي عليها بذلك حَذَر افتقاد قرائها، وتوارت الصحف القديمةِ العظيمةٍ التي كانت ذاتَ نفوذٍ بالغٍ فكان الجيلُ الماضي يُصْغِي إليها بخشوع إصغاءَه إلى الآيات، أو أصبحت وُرَيْقاتِ أنباءٍ مُحاطَةً بالنوادر المُسَلِّيَة واللَّطائفِ المُحَبَّبة والإعلانات المالية، واليومَ ماذا يصبح أمرُ جريدةٍ تكون من الثَّراء ما تُفَسِّح معه لكُتَّابها مجالًا يُبْدون فيه آراءً شخصية؟ وماذا يكون لهذه الآراء من التأثير في قُرَّاء لا يطالبون بغير الأنباء والفكاهات ولا يُبْصرون خَلْف كلِّ نصيحة سوى المساومة؟ حتى إن النُّقَّاد أنفسَهم أصبحوا غيرَ قادرين على عَرْض كتابٍ أو روايةٍ تمثيلية، وذلك لِما يَجْلِبه من ضرر ولا يُوجِبه من نَفْع، والجرائدُ قد بلغت من الشعور بعدم فائدة كلِّ رأيٍ شخصيٍّ ما ألغت معه النقدَ الأدبيَّ على العموم مقتصرةً على ذكر اسم الكتاب وعلى نَشْر سطرين أو ثلاثة أسطرٍ كإعلان عنه، وقد يَقَعُ مثلُ ذلك بعد عشرين سنةٍ في أمر النقد التمثيليِّ.

وتَرَصُّدُ الرأي العام أصبح في أيامنا شُغْلَ الصِّحافة والحكوماتِ الشاغلَ، فَغَدَتْ لا ترى غيرَ معرفة ما يكون من تأثير هذه الحادثة أو تلك الخِطَّةِ الاشتراعية أو تلك الخُطبةِ فيه، وليس هذا بالأمر السهل لِما ليس هنالك من رأيٍ أشدَّ تقلبًا وأعظم تحولًا من رأي الجماعات، والجماعاتُ تُسْقِط في المساء من هتفت له في الصباح.

ونشأ عن فُقْدان توجيه الرأي العام وعن انحلال المعتقدات العامة تَفَتُّتٌ تامٌّ في ضروب اليقين وعدمُ اكتراثٍ زائدٌ في الجماعات والأفراد لِما لا يَمَسُّ

مصالحها المباشرة مسًّا ظاهرًا، وما كان للمسائل المذهبية، كالاشتراكية مثلًا، أن تَجْمَع حُمَاتَها المؤمنين إلّا من الطبقات الجاهلة كعُمَّال المناجم والمعامل، وقد أصبح ابن الطبقة الوسطى والعاملُ الذي هو على شيءٍ من الثَّقافة من المرتابين.

والتطورُ الذي تَمَّ منذ ثلاثين سنة على ذلك الوجه جالبٌ للنظر، وكانت الآراء في الدور السابق، أي في ذلك الدور البعيد منه قليلًا، ذاتَ وِجْهةٍ عامةٍ لاشتقاقها من بعض المعتقدات الأساسية، وكان المبدأُ المَلَكِيُّ يَمْنَح حَتْمًا بعضَ الأفكار المُقَرَّرة في التاريخ وفي العلوم بسبب مَلَكيته فقط، وكان المبدأُ الجُمهوريُّ يمنح حتمًا أفكارًا مناقِضةً لذلك مناقَضةً تامة، وكان المَلَكيُّ يرى أن الإنسان غيرُ منحدرٍ من القرد، وكان الجُمهوريُّ يرى أن الإنسان منحدر من القرد، وكان على المَلَكِيِّ أن يتكلم عن الثورة الفرنسية مُغاضِبًا، وكان على الجُمهوريّ أن يتكلم عنها محترِمًا، وكان يجب أن يُذْكَر بعض الأسماء بخشوعٍ كاسم رُوبِسْبِير واسم مارَا، وكانت أسماءٌ أخرى لا تُذْكَر إلّا مع الشتائم كأسماء قيصرَ وأُغُسْطُس ونابليون، حتى إن هذا الطِّراز الوضيع في التاريخ سَرَى إلى كلية السُّورْبون نفسها.

واليومَ يَفْقِد كلُّ رأيٍ نفوذَه بفعل الجَدَل والتحليل، ولا تَلْبَث أركانُه أن تتداعى فلا يبقى من الأفكار التي تستهوينا سوى القليل إلى الغاية، وصار عدم الاكتراث يستحوذ على الرجل المعاصر شيئًا فشيئًا.

ولا نَأسَ على ما تُصاب به الآراءُ من تَفَتُّتٍ شاملٍ، ولا مِراءَ في أن ذلك علامة انحطاطٍ في حياة الأمة، أجل، إن للعَرَّافِين والرسلِ والزعماء، وإن شِئْتَ فقُلْ للمُوقِنِين، من القدرة ما ليس للملاحدة والنُّقَّاد والأَخْلياء، ولكن لا نَنْسَ أنّه إذا ما تسَنَّى لرأيٍ من النفوذ ما يستطيع به أن يُفْرَض بفعل سلطان الجماعات العتيد لم يُعَتِّم هذا الرأي أن يكتسب من الجبروت ما ينحني أمامه الجميع، وهنالك يُغْلَق دور الجَدَل الحرِّ لطويل زمن، والجماعاتُ، وإن أمكن أن يكون لها سادةٌ مسالمون في بعض الأحيان كهِلْيُوغابال وطِيبِرْيوس في ساعاتٍ لهم، تراها مثلَهما ذاتَ أهواءٍ شديدةٍ أيضًا، وإذا قُدِّرَ لحضارةٍ أن تصبح قبضةَ الجماعاتِ وَقَعَتْ هذه الحضارةُ تحت رحمة كثيرٍ من المصادفات فلا تدوم زمنًا طويلًا، وإذا حدث ما يُؤَجِّل وقتَ انهيار هذه الحضارة فإن ذلك لا ينشأ إلّا عن تقلّب الآراء الكثير وعدمِ اكتراث الجماعات الزائد لجميع المعتقدات العامة.

الباب الثالث
تقسيم أنواع الجماعات ووصفها

الفصل الأول
تقسيم الجماعات

تقسيم الجماعات – (1) الجماعات المتباينة – كيف تختلف هذه الجماعات – تأثير العرق – تكون روح الجماعة ضعيفة بمقدار ما في روح العرق من قوة – تمثل روح العرق حال الحضارة وتمثل روح الجماعة حال الهمجية – (2) الجماعات المتجانسة – تقسيم الجماعات المتجانسة – الفرق والطوائف والطبقات.

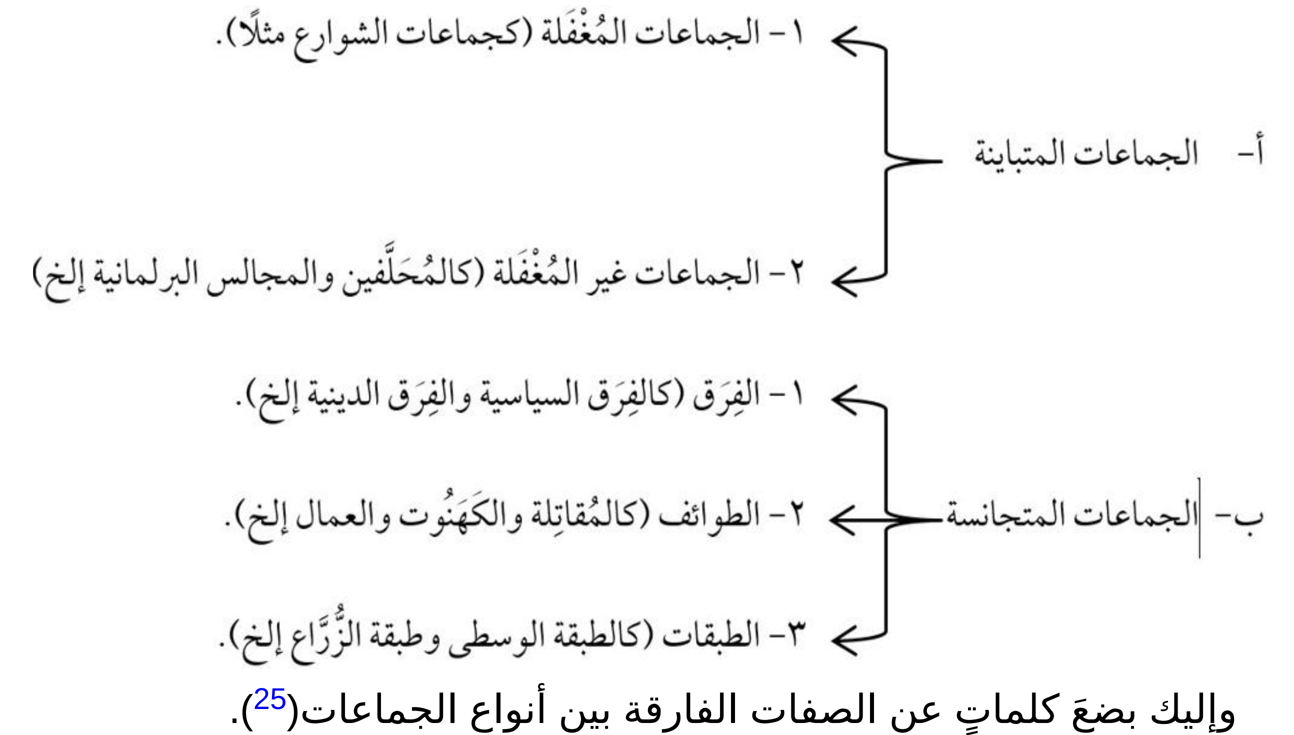
بيَّنا في هذا الكتاب الصفاتِ العامةَ للجماعات، وبَقِيَ علينا أن ندرس ما هو مَنْضُود فوق هذه الصفات العامة من الصفات الخاصة بمختلف أنواع الجماعات.

ولْنَأتِ بتقسيم مختصر للجماعات في بدء الأمر.

والزمرةُ البسيطة هي أول ما نتناوله، ويتجلى أدنى طور لهذه الزمرة عندما تكون مؤلفة من أشخاص منتسبين إلى أعراق مختلفة، وما في تلك الزمرة من رابطة وحيدة مشتركة فيقوم على إرادة رئيسها المحترمة بعضَ الاحترام، ويمكننا أن نَعُدَّ البرابرةَ المختلفي الأصول الذين أغاروا على الدولة الرومانية في عِدَّة قرون أمثلةً على تلك الزُّمَر.

وتبدو فوق تلك الزُّمَر غيرِ الملتحمة زُمَرٌ اكتسبت بفعل بعض العوامل صفاتٍ عامةً فألَّفَت عِرْقًا، وهذه الزُّمَر وإن كانت تتجلى فيها مُمَيِّزاتُ الجماعات، تهيمن عليها مُمَيِّزات العِرْق في كلِّ وقت.

وما يلاحظ في كلِّ أمةٍ من أنواع الجماعات فيمكن تقسيمُه كما يأتي:



وإليك بضعَ كلماتٍ عن الصفات الفارقة بين أنواع الجماعات([25]).

أ – الجماعات المتباينة

هذه الجماعات هي التي درسنا صفاتِها فيما تقدم، وهي تتألف من أفراد أيًّا كانوا وكيفما كانت مهنتهم وذكاؤهم.

ومما أثبتناه في هذا الكتاب أن نفسية الناس في الجماعة تختلف عن نفسيتهم وهم منفردون اختلافًا جوهريًّا، وأن الذكاء لا يحول دون هذا الاختلاف، ومما رأيناه أن الذكاء لا يُمَثِل أيَّ دورٍ في الجموع، وأن المشاعر اللاتَنَبُّهيَّة وحدَها هي التي تستطيع أن تُؤَثِّر فيها إذ ذاك.

وهنالك عاملٌ أساسيٌّ أي العِرْقُ، يؤدي إلى تقسيم الجماعات المتباينة تقسيمًا واضحًا، وإلى شأن العِرْق رَجَعْنا غيرَ مرةٍ فبَيَّنا أنّه أقوى عامل في صدور أفعال الناس، وتأثيرُ العِرْق يَتَجلى في أخلاق الجماعات أيضًا، فإذا ما تألفت جماعة من أفرادٍ أيًّا كانوا، على أن يكونوا كلُّهم من الإنكليز أو الصينيين مثلًا، اختلفت هذه الجماعة اختلافًا تامًّا عن جماعة أخرى مؤلفة من أفراد أيًّا كانوا، على أن يكونوا من عروق مختلفة كالروس والفرنسيين والإسبان إلخ.

ويبدو الاختلاف العميق الذي هو وليد المزاج النفسيِّ الموروث في طِراز شعور الناس وتفكيرِهم عندما تَجْمَع بعضُ الأحوال النادرة أناسًا من أمم مختلفة في جماعة واحدة على نِسَب متساوية تقريبًا مهما كانت المصالح التي تجمع بينهم مُتَّحِدةً، وما بَذله الاشتراكيون من المساعي في صَهْر مُمَثِّلي فريق العمال من كلِّ بلد في مؤتمرات كبيرة فقد أدَّى إلى أشدِّ الاختلافات على الدوام، فالجماعةُ اللاتينيةُ، مهما كانت ثَوْرِيَّة أو محافظة، تلجأ إلى الحكومة تحقيقًا لمطاليبها، وهي تسير إلى المركزية وإلى القيصرية في كلِّ وقت، والجماعةُ الإنكليزية أو الأمريكية هي بالعكس لا تَعْرِف الحكومةَ، وهي لا تعتمد على غير المبادرة الشخصية، والجماعةُ الفرنسية تَبْغِي المساواةَ قبل كلِّ شيء، والجماعةُ الإنكليزية تَبْغِي الحرية، وعن فروق العروق تنشأ جماعاتٌ مُنَوَّعَة تَنَوُّعَ الأمم.

إذَنْ، تسيطر روح العِرْق على روح الجماعة سيطرةً تامة، وروحُ العِرْق هي الرُّكن المتين الذي يُحَدِّد تقلباتِ الجماعة، وروحُ العِرْق كلما كانت قويةً كان أحطُّ أخلاق الجماعات أقلَّ بروزًا، وهذه هي سُنَّة جوهرية، وبيانُ الأمر أن الهمجيةَ أو العودة إلى الهمجية تتألف من حال الجماعة ومن سلطان الجماعات، وأن العِرْق باكتسابه روحًا متينة يَتَفلّت بالتدريج من سلطان الجماعات العاطلة من التبصر ويَخْرُج من طور الهمجية.

وإذا عَدَوْتَ العِرْقَ وجدتَ التقسيم المهمَّ للجماعات المتباينة يقوم على تفريق هذه الجماعات إلى جماعات مُغْفَلة كجماعات الشوارع وإلى جماعاتٍ غيرِ مُغْفَلة كالمجالس النيابية وكالمُحَلَّفين مثلًا، وإذ كان الشعورُ بالمسؤولية

صِفْرًا لدى الأولى ونامِيًا لدى الثانية كان لأعمال كلتا الجماعات اتجاهاتٌ مختلفة في الغالب.

ب – الجماعات المتجانسة

تشتمل الجماعات المتجانسة على الفِرَق والطوائف والطبقات.

فأما الفِرْقة فهي الدرجة الأولى في نظام الجماعات المتجانسة، وهي تحتوي أفرادًا مختلفين تربيةً ومِهَنًا، وبيئاتٍ في بعض الأحيان، فلا يَرْبِط بينهم سوى وَحدة المعتقدات، كالفِرَق الدينية والسياسية مثلًا.

وأما الطائفة فهي تُمَثل أعلى درجة في نظام الجماعات، فبينما ترى الفِرْقةَ تتألَّف من أفراد مختلفين مِهَنًا وتربيةً وبيئاتٍ في الغالب فلا يَجْمَع بينهم غيرُ وَحْدة المعتقدات ترى الطائفة لا تشتمل على غير أفراد ذوي مِهْنة واحدة ومن ثَمَّ ذوي تربية وبيئات واحدة تقريبًا، كالطوائف المقاتِلة والكهنوتية مثلًا.

وأما الطبقة فتتألف من أفراد مختلفي الأصول جَمَعَت بينهم بعض المصالح وبعض طُرُق الحياة والتربية المتشابهة كالطبقة الوسطى وطبقة الزُّراع إلخ، لا وَحْدَةُ المعتقدات كما بين أعضاء الفرقة، ولا وَحدةُ المِهَن كما بين أعضاء الطائفة.

وإذ إنني لا أبحث في هذا الكتاب عن غير الجماعات المتباينة فإنني لا أُفْرد كلامًا لغير بعض أنواع الجماعات المتجانسة التي اخْترتها كنماذج.

الفصل الثاني
الجماعات الجارمة

الجماعات الجارمة – قد تكون الجماعة جارمة قانونًا، لا نفسيًا – اللاشعور الصرف في أعمال الجماعات – أمثلة مختلفة – روح السبتمبريين – تعقلهم وشعورهم ووحشيتهم وأخلاقهم.

يظهر أن من الصعب أن تُوصَف الجماعة بالمجرمة بعد أن يَمْضِيَ وقتُ هياج تكون قد انقلبت فيه بفعل بعض التلقينات إلى آلات غير شاعرة، وتراني أحافظ على هذا الوصف الخاطئ مع ذلك لِما كان من اتخاذ بعض المباحث النفسية له، أَجَلْ، إن بعض أعمال الجماعات جارمٌ من حيث هو لا ريب، ولكن على أن تُعَدَّ هذه الأعمال كافتراس النَّمِر للهندوسيِّ بعد أن يكون قد تركه لِصغاره يَتَلهَّون بتمزيقه.

تنشأ جرائم الجماعات على العموم عن تلقين قَوِيّ، ويعتقد الأفراد الذين اشتركوا في اقترافها أنهم قاموا بواجب، وغيرُ هذا هو حال المجرم العاديِّ.

وتاريخُ ما ارتكبته الجماعات من الجرائم يُوضِح ما تقدم.

ومن الأمثلة البارزة على ذلك قَتْلُ محافظ سِجْن الباستيل مسيو دُولُوناي، فبعد أن تَمَّ الاستيلاء على هذا الحِصْن أحاطت جماعةٌ شديدةُ الهيجان بذلك المحافظ، فصار يَتَلقى الضَّرَبات من كلِّ جانب، وقد اقْتُرِح أن يُشْنَق أو أن يُضْرَب عُنُقه أو أن يُرْبَط بذيلِ فرس، وفيما كان محافظ السجن يدافع عن نفسه رَكَلَ أحدَ الحضور خطأً، فاقْتَرَح بعضهم أن يَقْطَع المضروبُ عُنُقَه فهتفت الجماعة لذلك الاقتراح في الحال.

«كان المضروبُ طاهيًا بلا عمل، وكان شِبْهَ أبْلَهَ فذهب إلى الباستيل ليرى ماذا يقع هنالك، ويَجِدُ أن الفعل وطنيٌّ ويعتقد أنه يستحقُّ وِسامًا بقتله ذلك الوحشَ ما دام هنالك رأيٌ أُجْمِعَ عليه، ويُسَلَّم سيفٌ إليه فيَضْرِب العُنُق العاريَ، ولكن السيف لم يَقْطَع لأنه غيرُ مُرْهَف، فيُخْرِج من جيبه سكينًا صغيرةً ذاتَ مقبضٍ أسودَ، فيُتِمُّ بها عملَه مُوَفَّقًا لِما كان من خِبْرته في تقطيع اللحوم كطَبَّاخ».

وهنا يَتَّضِح لك النظام المذكور آنفًا، وهو قائم على الخضوع لتلقين قويّ صادر عن جماعة وعلى اعتقاد القاتل أنّه أتى عملًا يُؤْجر عليه لِما كان من إجماع بني وطنه على استحسانه، فعملٌ كهذا وإن أمكن نَعْتُه بالآثم قانونًا، ليس إثمًا من الناحية النفسية.

والصفاتُ العامة للجماعات الجارمة هي عين الصفات التي أبصرناها لدى جميع الجماعات، وهي قابلية التَّلقُّن وسرعةُ التصديق والتقلبُ والتطرفُ في المشاعر الطيبة والمشاعر السيئة وإظهار بعض الأطوار الخُلقية إلخ.

وتَجِدُ جميعَ تلك الصفات مجتمعةً في إحدى الجماعات التي تَرَكَت أشأمَ ذكر في تاريخنا، أي في جماعة شهر سبتمبر، وتَجِدُ كبيرَ شَبَهٍ بين هذه الجماعة والجماعات التي قامت بمذبحة سان بارتلمي مع ذلك، ومن تاين أَقْتبس تفصيلَ قِصَّة تلك الجماعة، فهو الذي استنبطها من مُذَكِّرات ذلك الزمن.

لا نَعْرِف على الوجه الصحيح مَن الذي أَمَر أو حَرَّض على إخلاء السجون بقتل السجناء، وليس من المهمِّ أن نَعْلَم أن الآمر هو دانتون كما يحتمل أو غيرُه، وإنما الذي يهمُّنا هو أنّه وُجِدَ تلقينٌ قويٌّ تَلَقته الجماعة التي وُكِلَ إليها أمر القتل.

كان جيش القَتَلة مؤلفًا من نحو ثلاثمئة شخص، وكان هذا الجيش عنوانَ الجماعة المتباينة الكامل، وإذا عَدَوْت ما اشتمل عليه من المحترفين القليلين وَجَدْتَه مؤلفًا على الخصوص من أصحاب الحوانيت ومن صُنَّاع مختلف الحِرَف، أي من الحَذَّائين والقَفَّالين والحَلَّاقين والبَنَّائين والمستخدمين والعُمَلاء إلخ، ويُلَقَّن هؤلاء ويَغْدُون بفعل هذا التلقين كذلك الطاهي فيعتقدون أنهم يقومون بواجب وطنيٍّ، وينتحلون وظيفتين: وظيفةَ القُضاة ووظيفةَ الجَلَّادين، ولا يَعُدُّون أنفسهم من المجرمين أبدًا.

ويَشْعُرون بِعظَم شأنهم، ويبدؤون بتأليف ضَرْبٍ من الحكمة، وتَتَجَلى روح البساطة والإنصاف البسيط في الجماعة، ويُبْصِر عدد المتهمين الكبيرُ ويُحْكَم أولًا بقتل الأشراف والقسوس والضباط وخُدَّام الملك منهم، أي بقتل جميع الأفراد الذين تُتَّخَذ مِهْنتهم وحدَها دليلًا على الإجرام في نظر كلّ وطنيّ صادق، وذلك جُمْلَةً من غير احتياج إلى قرار خاص، ويُحْكَم على الآخرين بالسِّيمى أو بالشهرة، فلما اطمأنَّ شعور الجماعة الابتدائيُّ على هذا الوجه كان لها أن تبدأ بالقتل قانونًا، وأن تُطْلِقَ العِنان لغرائز التوحش التي أوضحتُ تكوينَها في مكان آخر والتي يُمكِن الجموعَ وحدَها أن تُنْمِيَها إلى أقصى حدّ، وتلك الغرائزُ لا تَحُول مع ذلك دون اقترانها في الجماعات بمشاعرَ مناقضةٍ أخرى كعاطفة التأثُّر التي تبلغ في تطرفها تلك القسوة.

«كان لأولئك ما للعامل الباريسيِّ من عطفٍ وَسيعٍ وإحساسٍ سريع، ومن ذلك أن أحد المتعاهدين عَلِمَ في السجن أن الموقوفين تركوا بلا ماء منذ ست وعشرين ساعةً فأراد أن يُبِيد البَوَّاب المُهْمِل، وكاد يفعل ذلك لولا شفاعةُ الموقوفين أنفسِهم، وإذا ما بُرِّئ سجينٌ (من قِبَل المحكمة المُرْتَجَلَة) قَبَّلَه جميع الناس من حَرَس وقَتَلة بحرارة وهتفوا له هُتافًا شديدًا»، ثمّ عادوا يقتلون الآخرين وما انفكَّ السرور يلازمهم في أثناء الذبح، فيرقصون ويُغَنُّون حول الجُثَث مُعِدِّين مقاعدَ «للسيدات» اللائي يُسْعِدُهُنَّ الحظُّ بمشاهدة قَتْل الأشراف، ولم يفتؤوا يُظهرون إنصافًا خاصًّا أيضًا، وآيةُ ذلك أن قاتلًا تَوَجع في السجن من أن السيدات لا يُشَاهِدْن القتلَ لوضعهن في مكان غير قُرِّيبٍ منه، وَمِنْ أن بعض الحضور وحدَه يتمتع بضرب الأشراف، فرُئيَ صوابُ هذه

الملاحظة، وقُرِّر أن يَمْشِيَ الضحايا الهُوَيْنا بين صَفيْن من القَتَلة فلا يستطيع هؤلاء أن يَضْرِبوا بغير مَتْن السيف مَدًّا لأَمَدِ التعذيب، وتُنْزَع ثياب الضحايا فيَغْدُون عُرَاةً تمامًا فيُمَزَّقون في نصف ساعة، ثمّ يُجْهَز عليهم ببقر بطونهم بعد أن يكون الجميع قد رأى ما حَدَث جيدًا.

وكان القَتَلةُ شديدي الأمانة مع ذلك، فيُظْهِرون من الفضائل ما ذكرنا وجودَه في الجماعات آنفًا، فيأتون إلى مِنْصَدات اللِّجان بنقود الضحايا وحُليِّهم.

وعلى الدوام كُنْتَ تَجِدُ في أفعالهم ما تتصف به الجماعات من وجوه التعقل الساذجة، ومن ذلك أن أولئك لم يكادوا يَفْرَغون من ذَبْح الألف والمئتين أو الألف والخمسمئة من أعداء الوطن حتى رأى أحدُهم، وقد قُبِلَ رأيُه حالًا، أن السجون الأخرى تشتمل على أناس من السائلين المُسِنِّين ومن الأفَّاقين ومن الأحداث الموقوفين، أي تشتمل على أفواهٍ لا خَيْرَ فيها، فيَحْسُن التخلصُ منهم، وذلك إلى أنّه كان يوجد بين هؤلاء أعداءٌ للشعب بالحقيقة كأرملة أحد الذاعفين المَدْعُوَّة دُولارُو، «فهي لا بدَّ من أن تكون حانقةً من سجنها، وهي لا بدَّ من أن تَحْرق باريس لو استطاعت ذلك، وهي لا بدَّ من أن تكون قد قالت هذا، وهي قد قالته لا رَيْبَ، فوجب أن تُكْنَسَ إذَن»، ويبدو الدليل واضحًا ويُقْتَل الجميعُ جُمْلةً، ومن هؤلاء نحو خمسين غلامًا كانت أعمارهم تَتَرجحُ بين السنة الثانيةَ عشرةَ والسنةِ السابعةَ عشرةَ، فذُبِحُوا لِما قِيل من إمكان ظهورهم أعداءً للأمة ذاتَ يومٍ ووجوبِ إبادتهم لهذا السبب.

ويدوم الذبح أسبوعًا، فلمّا تمَّ فكَّر القَتَلة في الراحة، وهم إذا اعتقدوا أنهم قاموا بأحسن خدمة للوطن طالبوا السلطاتِ بأن تكافئهم، حتى إن أكثرهم غيرةً رَغِب في نَيْل أوسمة.

وفي تاريخ ثورة سنة 1871 المعروفة بالكومون أمثلةٌ كثيرة من ذلك الطِّراز، ولا رَيْبَ في أن نُمُوَّ سلطان الجماعات واستخذاءَ السلطات لها سيؤديان إلى حدوث وقائعَ كثيرةٍ كالتي ذَكرنا.

الفصل الثالث
محلّفو محكمة الجنايات

محلّفو محكمة الجنايات – صفات المُحَلَّفين العامة – يدل الإحصاء على أن أحكامهم مستقلة عن تأليفهم – كيف يتأثر المُحَلَّفون – ضعف تأثير البرهان – طرق الإقناع التي يتخذها المحامون المشهورون – طبيعة الجرائم التي يبدو المُحَلَّفون أشداء أو متسامحين أمامها – فائدة نظام المُحَلَّفين والضرر الذي ينجم عن استبدال نظام القضاة به.

لا نستطيع أن ندرس في هذا الكتاب جميعَ أنواع المُحَلَّفين، فترانا نَبْحَث في أهمِّها: نَبْحَث في مُحَلَّفي محكمة الجنايات، ومن المُحَلَّفين يتألف أحسن مثالٍ للجماعات المتباينة غير المُغْفَلة، وفي المحلَّفين تتجلى قابلية التَّلقن وهَيْمنةُ العواطف اللاشعورية وضَعْفُ التَّأَثُّر بالمعقول ونفوذُ الزعماء إلخ، ونحن إذ نَبْحَث في أمر المُحَلَّفين يكون لدينا من الفُرْصة ما نلاحظ به نماذجَ الأغاليط التي يمكن أن يقترفها أناسٌ غيرُ عارفين بروح الجماعات.

وأولُ ما نَجِدُه في المُحَلَّفين من حيث الأحكامُ هو الدلالةُ على ضَعْف أهمية المستوى النفسيِّ لمختلف العناصر التي تتألف منها الجماعة، ومما رأيناه أن العقل لا يُمَثل أيَّ دور في المجالس الشُّورِيَّة التي يُطْلَب منها أن تُبْدِي رأيَها في مسألةٍ غيرِ ذات صبغة فنية، وأنه لا يَصْدُر عن اجتماع مؤلَّف من علماء ومتفننين أحكامٌ في الموضوعات العامة أرقى من أحكام أناس من البَنَّائين، وفي مختلف الأدوار كانت الإدارة تُعْنَى باختيار الأشخاص الذين يتألف المُحَلَّفون منهم فكانت تَجْمَعهم من بين الطبقات المُنَوَّرة كالأساتذة والموظفين والأدباء إلخ، واليومَ يتألف المُحَلَّفون على الخصوص من صغار الباعة وصِغار المستصنعين والمستخدمين، ومن دواعي دَهْشة الكُتَّاب المتخصصين أن دَلَّ الإحصاء في الحقيقة على أن أحكام المُحَلَّفين متشابهةٌ مهما كانت العناصر التي يتألفون منها، حتى إن القضاة أنفسهم اِضْطُرُّوا إلى الاعتراف بصحة هذا الأمر مهما بلغوا من مناصبة نظام المُحَلَّفين العداءَ، وإليك كيف يُعَبِّر رئيس محكمة الجنايات السابق مسيو بِيرَاردي غلاجُو عما في نفسه حَوْلَ هذا الموضوع، وذلك في مُذكِّراته، فقد قال:

«اليومَ يَتِمُّ اختيار المُحَلَّفين بالحقيقة من قِبَل أعضاء المجالس البلدية الذين يوافقون على هذا أو يرفضون ذلك تَبَعًا لِمَنازِعهم السياسية والانتخابية… واليومَ يتألف مُعْظم المختارين من تجار أقلَّ أهميةً ممن كانوا يُخْتارون وأدنى شأنًا من موظفي بعض الدوائر… وإذ كانت جميعُ الآراء تمتزج بجميع المِهَن في مَنْصِب القاضي، وإذ يحمل كثيرٌ من المُحلَّفين حرارةَ حديثي العهد بالإيمان، وإذ يَتَلاقى طَيِّبو النِّيَّة في أدنى المواضع، فإنك تَجِدُ روح المُحَلَّفين لم تتغير، فظلت أحكامهم كما كانت عليه».

والذي نُمْسِك به من تلك العبارة هو النتائجُ الصحيحة، لا الشروحُ التي هي ضعيفة إلى الغاية، ولا عَجَبَ من مِثْل هذا الضَّعف ما لاح لنا أن روح الجماعات، ومن ثَمَّ روح المُحَلَّفين، أمرٌ يجهله المحامون والقضاة في الغالب، ودليلي على ذلك ما ذكره ذلك المؤلف من أن أحد مشاهير المحامين لدى محكمة الجنايات، لاشو، كان يستعمل بانتظام حَقَّه في رَدِّ جميع الأذكياء من المُحَلَّفين، والحقُّ أن التجربة، والتجربةَ وحدَها، هي التي دَلَّت على عدم فائدة رَفْض القُضاة في نهاية الأمر، فترى النائب العامَّ والمحامين بباريسَ على الأقل قد عَدَلوا اليومَ عن ذلك عدولًا تامًّا، والواقعُ هو أن أحكام المُحَلَّفين لم تتغير كما لاحظ ذلك مسيو دي غلاجُو، «وهذه الأحكام ليست بالمُثْلَى ولا بالسُّوْءَى».

والمُحَلَّفون كجميع الجماعات يُؤخَذون بالعواطف، وقلما يُؤَثِّر فيهم بالمعقولات، ومن قَوْل أحد المحامين: «إنهم لا يَثْبُتون أمام امرأة تُرْضِع أو أمام صِغارٍ يَتامَى»، ومن قول مسيو دي غلاجُو: «إنه يكفي المرأةَ أن تكون مليحةً ليَعْطِف عليها المُحَلَّفون».

والمُحَلَّفون لا يَعْرِفون الرحمة تِجاه الجرائم التي يلوح إمكانُ إصابتها لهم، وهي التي تكون شديدة الخطر على المجتمع مع ذلك، والمُحَلَّفون يَبْدُون بالعكس رُحَماءَ تِجاه الجرائم العاطفية، ومن النادر أن يَبْدُوا أشداءَ على الأمهات اللائي يَقْتُلْن أطفالهن، وأندرُ من ذلك أن يَقْسُوا على فتاةٍ هجرها غاوِيها فرَمَتْه بالزَّاج، فالمُحَلَّفون يَشْعُرون بغريزتهم أن هذه الجرائم قليلة الخطر على المجتمع وأن نَفْعَ انتقام الفتاة المهجورة أكبرُ من ضَرِّه في بلدٍ لا يَحْمِي قانونُه الفتياتِ المهجوراتِ فيكون بذلك زجْرٌ مقدَّمٌ للغواة في المستقبل([26]).

والمُحَلَّفون يَبْهَرهم النفوذ كثيرًا كما يَبْهَر كلَّ جماعة، والمُحَلَّفون يَبْدُون، كما لاحَظَ دي غلاجُو، شديدي الأرستوقراطية في عواطفهم وإن كانوا كثيري الديموقراطية في تركيبهم، «فيتألف من الاسم والنَّسَب والغِنَى الكبير والشهرة والاستعانة بمحامٍ بعيد الصيت والأمور المميِّزةِ والأمور الزاهية عُدَّةٌ عظيمة في يد المتهمين».

وعلى المحامي الأريب أن يجعلَ همَّه مصروفًا إلى التأثير في مشاعر المُحَلَّفين، كما يُؤَثِّر في كلِّ جماعة، فلا يستند إلى المعقول إلّا قليلًا ولا يأتي بغير البراهين الابتدائية، وقد أجاد محامٍ إنكليزيٌّ بنجاحه أمام محكمة الجنايات تحليلَ هذه الطريقة فقال:

«إنه يرقُب المُحَلَّفين بدقة وهو يرافع، وهذا هو الحين المناسب، وفي الوجوه يَتَوسم عن حِذْقٍ وعادة بما يكون لكلِّ جملة وكلِّ كلمة من أثَر فيستنبط نتائجَه، وفي البَداءة يُميِّز الأعضاء الذين أصبحوا بجانبه، ويأتي من

الحركات ما يَطْمئنُّ به إلى انحيازهم إليه تمامًا، ثمّ ينتقل إلى الأعضاء الذين يلوح له إعراضُهم فيسعى في اكتناه سبب ازوِرارِهم عن المتهم، وهذا أشقُّ ما في عمله، فقد يكون هنالك من الأسباب الكثيرة، الخارجةِ عن حسِّ العدل، ما يؤدي إلى الحكم على المتهم».

وفي تلك الأسطر خلاصةٌ صائبة لهدف فنِّ الخَطابة، وهي تدلنا على عدم فائدة الخُطب التي تُعَدُّ مُقَدّمًا لِما يجب أن يُغَيَّر من عباراتها في كلِّ ثانية وَفْقَ ما يكون لها من التأثير.

وليس على الخطيب أن يستميل جميع المُحَلَّفين، وإنما يجب عليه أن يجتذب رؤساءهم الذين يُوَجِّهون الآخرين، قال المحامي الذي ذكرته آنفًا: «دَلَّتني التجارِب على أنّه يكفي اثنان أو ثلاثةٌ من ذوي النشاط لِجَذْب الباقين عند إصدار الحكم»، وهذان الاثنان، أو الثلاثةُ، هما اللذان يجب إقناعهما بتلقيناتٍ لَبِقة، وأولُ ما يجب أن يُصْنَع هو أن يُوقَع منهما مَوْقِع الرِّضا، فالرجلُ في الجماعة إذا ما اكتُسِب إعجابه ظُفِر بقناعته تقريبًا، فغدا مستعدًّا لعَدِّ ما يُعْرَض عليه من الأسباب أمرًا مقبولًا، وإليك الحكايةَ الآتية التي أقتبسها من كتاب مُمْتِع عن مسيو لاشو:

«من المعلوم أنّه كان في مرافعاته أمام محكمة الجنايات لا يُحَوِّل نظرَه عن مُحَلَّفيْن، أو ثلاثةِ مُحَلَّفين، يَعْرِف أو يُحِسُّ نفوذَهما مع صعوبة مِراسهما، فكان يَصِلُ على العموم إلى التغلب على هذين الجامحَيْن، ومما حدث ذاتَ مرةٍ أن وُجِد في الرِّيف فأبصر مُحَلَّفًا لا تَلِينُ له قناةٌ تِجاه ما كان يُلْقِي عليه من برهانه في ثلاثة أرباع الساعة، وكان هذا المُحَلَّف جالسًا في أول الصفِّ الثاني وكان السابع من المُحَلَّفين، وكان الوَضْع جالبًا لليأس، وفيما كان الأمر كذلك إذ قَطَع لاشو بَرْهنتَه الحارَّة وخاطب رئيس المحكمة بقوله: «ألا تستطيعون يا سيدي الرئيس أن تسْدُلوا السِّتار هنالك حيثُ الشمسُ قد أَعْشَت سيدي المُحَلَّف السابع؟»، فهنالك احمرَّ وجه المُحَلَّف السابع وتَبَسم وشَكَر فصار من أنصار الدفاع».

ومن الكُتَّاب فريقٌ كبيرٌ، ومنهم النوابغُ، قد هاجم نظام المُحَلَّفين بِشِدَّة في الزمن الأخير، مع أن المُحَلَّفين هم الموئلُ الوحيد الذي يَقِي من أغاليطَ كثيرةٍ تقترفها طائفة لا رقيبَ عليها([27])، ومن أولئك الكُتَّاب من يَوَدُّون جَمْع المُحَلَّفين من الطبقات المُنَوَّرة، ولكننا أثبتنا أن الأحكام في مثل هذه الحالة لا تكون إلّا مماثلةً لِما يَصْدُر في الوقت الحاضر، ومن أولئك الكُتَّاب من يستندون في دعواهم إلى الأغاليط التي تَصْدُر عن المُحَلَّفين فيرغبون في إلغاء المُحَلَّفين واستبدالِ قضاةٍ بهم، ولكنهم كيف يَنْسَون أن ما يُعَاب عليه المُحَلَّفون من الأغاليط هو مما يقترفه القضاة في بدء الأمر ما دام المتهم لا يُحَالُ إلى المُحَلَّفين إلّا بعد أن يُعَدَّ مذنبًا من قِبَل كثير من القضاة، أي من قِبَل قاضي التحقيق ونائب الجُمهورية ودائرة الاتهام؟ أفَلا يُرَى أن المتهم إذا ما

فَصَل في أمره قضاةٌ نهائيًّا بدلًا من المُحَلّفين خَسِرَ حَظّه الوحيد في إعلان براءته؟ ألا إن أغاليط المُحَلَّفين هي أغاليطُ القضاة كما ذكرنا، والقضاةُ وحدَهم، إذَن، هم الذين يجب أن يُلاموا عند النظر إلى الأغاليط القضائية الفظيعة كالحكم على الدكتور س... الذي تَعَقَّبه أحد قضاة التحقيق المحدودي العقل بناءً على شكوى فتاةٍ بَلْهاءَ اتَّهمَته فيها بأنه أسقط حَمْلَها في مقابل ثلاثين فرنكًا، وقد كاد هذا الطبيب يُرْسَل إلى سجن الأشغال الشاقة لولا انفجارُ الرأي العام الذي أسفر عن عفو رئيس الدولة عنه في الحال، وما كان من إعلان جميع بني وطن الطبيب لاستقامته فقد أَظْهَر فظاعة ذلك الخطأ، حتى إن القضاة أنفسَهم كانوا يَعْرِفون ذلك، والقضاةُ هؤلاء قد استحوذت عليهم روح طائفتهم مع ذلك فلم يَألُوا جُهْدًا في مَنْع إمضاء العفو عن ذلك الطبيب، ومن الطبيعيِّ أن يأخذ المُحَلَّفون بأقوال النيابة العامة في جميع الأمور التي تشتمل كذلك الأمر على دقائقَ فنيةٍ لا يَقْدِرون على إدراك شيءٍ منها ذاهبين إلى أن الأمر مما حقَّقه قضاة مُتَبَتِّلون إلى معرفة جميع الدقائق، فمن يكون مقترفو الخطأ الحقيقيون إذن: ألْمُحَلَّفون أم القضاة؟ فلنحافظْ على المُحَلَّفين كلَّ المحافظة، فمن المُحَلَّفين تتألف الجماعة الوحيدة التي لا يستطيع أيُّ فرد أن يقوم مقامها، والمُحَلَّفون وحدَهم يمكنهم أن يُخَفِّفوا شدَّة القانون الذي هو واحدٌ للجميع من حيث المبدأُ فيكون ذا عَمًى فلا يَعْرِف الأحوالَ الخاصة، وإذ إن القاضي شديدٌ حِرْفَةً فإنه يَفْرِض عينَ العقوبة على اللصِّ القاتل وعلى الفتاة المسكينة التي أدى هجرُ خادعِها لها وبؤسُها إلى قتل طفلها، على حين ترى المُحَلَّفين يَشْعُرون عن غريزةٍ بأن الفتاة التي أُغْوِيَت أقلُّ ذنبًا من الغاوي بمراحل، فهي جديرةٌ برأفتهم ما دام القانون لا يجازي الغاوي.

وإني، وقد عَرَفْت روحَ الطوائف وروحَ الجماعات الأخرى، لا أرى ما يَحْفِزني إلى عدم تفضيل المُحَلَّفين على القضاة إذا ما اتُّهِمْتُ بجُرْم على غير حقّ، فبالمُحَلَّفين لي كبيرُ أملٍ بالبراءة، وبالقُضاة لي أملٌ قليلٌ بها، ولْنَحْذَر سلطانَ الجماعات، ولكن ليكن حَذَرُنا من بعض الطوائف أكثرَ من ذلك بدرجات، فقد يمكن إقناع الجماعات، مع أن الطوائف لا تَلِينُ أبدًا.

الفصل الرابع
الجماعات الانتخابية

الصفات العامة للجماعات الانتخابية – كيف يقع إقناع هذه الجماعات – الصفات التي يجب أن تكون في المرشح – ضرورة النفوذ – السبب في قلة انتخاب العمال والفلاحين للمرشحين منهم – سلطان الألفاظ والصيغ على الناخب – المظهر العام للمناقشات الانتخابية – كيف تتكون آراء الناخب – سلطان اللجان – اللجان تمثل أشد صور الطغيان – لجان الثورة الفرنسية – لا يمكن أن يستبدل بالتصويت العام شيء آخر مع ضعف قيمته النفسية – السبب في تماثل الأصوات حتى عند قصر حق التصويت على طبقة معينة من أبناء الوطن – معنى التصويت العام في جميع البلدان.

تتألف جماعات متباينة من الجماعات الانتخابية، أي من الزُّمَر التي تُدْعَى إلى انتخاب من يقومون ببعض الوظائف، بَيْد أن هذه الجماعات، إذ كانت لا تسير إلّا في نِطاقٍ مُعَيَّن كاختيار أناس من مرشحين كثيرين، لا يُرَى فيها سوى بعض الصفات التي تَقَدَّم بيانها، وأظهرُ ما يَتَجلى فيها على الخصوص هو ضَعْفُ القدرة على التعقل وفُقْدان روح النقد وسرعة الغضب وسرعة التصديق والسذاجة، ومما يُبْصَر في قراراتها نفوذُ الزعماء وشأنُ العوامل المذكورة آنفًا، وهي: التصديق والتكرار والنفوذ والعَدْوى.

ولنبحث في كيفية إغوائها، وإذا ما تَبَدَّت لنا أنجحُ الوسائل تَجَلَّت روحها بوضوح.

والنفوذُ هو الصفة الأولى التي يجب أن يَتحَلى بها المرشح، ولا يمكن أن يقوم مقام النفوذ الشخصيِّ غيرُ نفوذ الغِنَى، حتى النبوغُ حتى العبقريةُ ليسا عنصرَيْ نجاح.

وضرورةُ تَحَلِّي المرشح بالنفوذ، ومن ثَمَّ قدرتُه على فَرْض نفسه بلا جِدال، أمرٌ ذو أهمية، وإذا كان الناخبون المؤلَّفون من عُمَّال وفلاحين لا يختارون منهم من يُمَثِّلهم إلّا نادرًا فلأن الأشخاص الذين يظهرون منهم لا يتمتعون بأيّ نفوذ لديهم، وهم إذا ما انتخبوا عِدْلًا لهم فلأسباب ثانوية، كأن يَوَدُّوا معارضةَ رجل عالٍ، ربِّ عملٍ قويّ، يخضع له الناخب في كلِّ يوم فيُخَيَّل إلى هذا الناخب أنه يصبح سيدًا على ذلك الرجل ذات حين.

غير أن النفوذ وحدَه لا يكفي لنجاح المرشح، فالناخبُ يودُّ أن تُدَارَى شَهَواتُه وانتفاخاته، فعلى المُرَشَّح أن يُتْخمه بأشدِّ ضروب المَلَق مخالفةً للصواب وألا يتردَّدَ في أن يسوق إليه أكثر الوعود وهمًا، ومما لا يمكن أمام العمال أن يُسَبَّ أربابُ عملهم وأن يُهْتَك سِتْرهم كثيرًا، وأما المرشح المنافس فإنه يُسْعَى في التغلب عليه بأن يوصف من طريق التوكيد والتكرار والعدوى بأنه أخسُّ الآثمين، وأن ارتكابَه لكثيرٍ من الجرائم أمرٌ يَعْرِفه كلُّ واحد، ولا فائدة في دَعْم ذلك بالبرهان، والخصمُ إذا كان سَيِّئَ الاطلاع على روح الجماعات

حاولَ تبرئة نفسه بالأدلة، بدلًا من أن يَدْحَض البهتان الموكّدَ ببهتان مُوَكّد آخر، فلا يكون له بتلك التبرئة أيُّ حظ في النجاح.

ويجب ألّا يكونَ البرنامج الذي يكتبه المرشح بالغَ الصراحة، لتَمَكن خصومه من اتخاذه حُجَّةً عليه في المستقبل، ولكنه لا يُعَدُّ مبالغًا في برنامجه الشَفَويِّ مهما كان، ففي هذا البرنامج يمكنه أن يَعِدَ غيرَ خائف بأعظم الإصلاحات، وذلك لِما يكون لهذه المبالغات من أثر كبير في الساعة الراهنة، لا في المستقبل حين لا تكون مُلْزِمةً، والحقُّ أن الناخب لا يَشْغَل بالَه بعد ذلك في معرفته: هل قام المنتخَب بما هُتِف له من العهود فانْتُخِب من أجْله على ما يُفْتَرض؟

وهنا يُسَلَّم بجميع عوامل الإقناع المذكورة آنفًا، ونَجِد هذه العوامل أيضًا في تأثير الألفاظ والصِّيَغ التي بَيَّنا سلطانها القويَّ، والخطيبُ الذي يَعْرِف كيف يتصرف فيها يُسَيِّر الجماعاتِ كما يشاء، وينشأ عن مثل الكلمات: رأسِ المال القبيح والمُسْتَغِلِّين الأدنياء والعاملِ الباهر وشيوعِ الثَّرَوات إلخ، مِثْلُ ذلك الأثر على الدوام وإن غدت مبتذلةً، ولكن المرشح إذا ما استطاع أن يكتشف صيغةً جديدةً خالية من معنى محدود، ومن ثَمَّ ملائمة لمختلف الآمال، كان النجاح حليفه لا ريب، وفي سنة 1875 اشتعلت الثورة الإسبانية بفعل إحدى تلك الكلمات الساحرة ذات المعنى المُعَقَّد والتي يُمْكِن كلَّ واحد أن يفسرها وَفْق ما يرجو، وقد قَصَّ أحد كُتَّاب ذلك الحين خبر تكوينها بعباراتٍ جديرة بالنقل، قال ذلك الكاتب:

«وَجَدَ الجَذْرِيُّون أن الجُمهورية المُوَحَّدة مَلَكِيَّةٌ مُقنَّعة فرأى مجلسُ الكورتس أن يُرْضِيَهم فأعلن الجُمهورية الاتحادية بالإجماع من غير أن يُجْرُؤ أحد من المُصَوِّتين على بيان ما يدلُّ عليه موضوع التصويت، بَيْد أن هذه الصيغة سَحَرَت جميع الناس، فكانت حُمَيَّا، وكانت نَشْوَةٌ، والناسُ قالوا إن عهد الفضيلة والسعادة قد فُتِح في الأرض، ويأبَى خصم أحد الجُمهوريين أن يُلَقَّب هذا الجُمهوريَّ بالاتحاديِّ فيرى هذا الجُمهوريُّ في ذلك سُبَّةً فظيعة، وكان الناس إذا ما تلاقَوْا في الشوارع سَلَّم بعضهم على بعض بقوله: أُحَيِّيك بتحية الجُمهورية الاتحادية، ثمّ يبدأ بترتيل أناشيد الجُمُوع المُقَدَّس واستقلالِ الجنديِّ، وماذا كان معنى «الجُمهورية الاتحادية»؟ ذهب بعضهم إلى أنه يَعْني تَحَرُّرَ الولايات وقيامَ نظم على نمط نُظُم الولايات المتحدة أو اللامركزية الإدارية، ورأى آخرون أن معنى ذلك هو إبطال كلِّ سلطة والبدءُ بالتصفية الاجتماعية الكبرى في أقرب وقت، وكان اشتراكيو برشلونة والأندلس يَدْعُون إلى سيادة البلديات فيذهبون إلى قيام عشرة آلاف مدينة مستقلة في إسبانيا غيرِ منقادةٍ لسوى نفسها، وذلك مع إلغاء الجيش والشُّرطة، والناسُ لم يلبثوا أن رَأَوا الفتنة قد اشتعلت في ولايات الجَنوب فسَرَتْ من مدينةٍ إلى مدينة ومن قريةٍ إلى قرية، وكانت كلُّ بلدية إذا ما أعلنت استقلالَها بدأت بتخريب

أسلاكِ البرق والخطوط الحديدية قطعًا لكلِّ صلة بجاراتها وبمدريد، ولم تَكَدْ تَرَى كُورَةً خبيثة لم تصنع لنفسها مطبخًا مستقلًّا، وهكذا فَسَّح النظامُ الاتحاديُّ مجالًا للنظام الإقطاعيِّ الجائر الحارق القاتل، وهكذا احْتُفل في كلِّ مكانٍ بأعمالٍ داعرة دامية».

وأما ضَعْف تأثير البراهين في روح الناخبين فلا يجهله سوى الذين لا علم لهم بما يقع في الاجتماعات الانتخابية حيث يتبادل الناسُ ضروبَ التوكيد والشتائم واللَّطَمات لا المعقولاتِ، وإذا سادَ السُّكونُ ذاتَ ثانية فلأن أحدَ الحُضُورِ العُسْرِ يُخْبِر بأنه سيضع للمرشح سؤالًا من الأسئلة المُضْنِية التي يُسَرُّ بها المستمعون على الدوام، غير أن رِضا المعارضين لا يدوم زمنًا طويلًا، فلا تُعتِّم نباحاتُ مخالفي السائل أن تَخْنُق صوتَه. ويمكن عَدُّ الأمر الآتي الذي أنقله من الجرائد اليومية من بين مئات الأمور المماثلة مثالًا للاجتماعات العامة، وهو:

«إن الناظم قد رجا من الحاضرين أن يُعَيِّنوا رئيسًا، فهَبَّت العاصفة، وقَفَز الفوضويون إلى الميدان حتى يستولُوا على المكتب عَنْوَةً، ويدافع الاشتراكيون عنه بعنف، وكان اصطدامٌ، وكان تنابذٌ بالتجسسِ وببيعِ الضمائر إلخ... ويَخْرُج أحد الحُضُور من القاعة مخدوشَ العين».

«ويستقرُّ أمر المكتب في نهاية الأمر بين الشَّغَب وتتم الرئاسة للرفيق س».

ويَحْمِل الخطيب على الاشتراكية بسرعة فيقاطعه هؤلاء بقولهم صاخبين:

«أنت أبله! أنت لصٌّ! أنت نَذْل!» وما إلى ذلك من الأوصاف التي يجيب الرفيق س... عنها بعَرْض نظرية قائلة إن الاشتراكيين من «الحَمْقَى» أو من «المُهَرِّجين».

«... عقد الحزب الموالي لألمانيا مساء أمسِ اجتماعًا عظيمًا في قاعة التجارة الواقعة بشارع فوبورغ دُوتانْبِل، وذلك تمهيدًا لعيد العمال في اليوم الأول من شهر مايو»، وكانت كلمة النظام فيه: «الهدوء والسكون».

«ويصف الرفيق ج... الاشتراكيين بالحَمْقَى والمخادعين».

«وما كادت تانك الكلمتان تَخْرُجان من فِيه حتى تبادل الخطباءُ والحُضور الشتائمَ واشتركت الكراسي والمقاعدُ والموائد في الخصام إلخ، إلخ».

ولا تَظُنَّ أن طِراز النِّقاش ذلك خاصٌّ بطبقة مُعَيَّنة من الناخبين، وأنه نتيجة مقام هذه الطبقة الاجتماعيِّ، فالنِّقاشُ يكتسب ذلك الشكلَ بسهولة في جميع المجالس المُغْفَلة، ولو كانت مؤلفةً من مثقَّفين فقط، وقد أَثْبَتُّ أن الناس في الجماعة يتماثلون في مزاجهم النفسيِّ، ولدينا دليلٌ على ذلك في كلِّ حين، وإليك، مثالًا على ذلك، نُبْذةً مما وقع في اجتماع مؤلف من طلاب دون غيرهم.

«كان الهياج يزيد كلما أرخى الليلُ سُدُولَه، ولا أعتقد أن خطيبًا استطاع أن يقول جملتين من غير أن يُعْترض له، وكنتَ تسمع في كلِّ ثانية صُراخًا يعلو من هنا أو هنالك أو من جميع الجهات، وكنتَ تسمع هُتافًا، وكنتَ تسمع صفيرًا، وكانت تَقَعُ بين جميع الحاضرين مناقشاتٌ عنيفة، وكانت العِصِيُّ تُهَزُّ مُهَدِّدةً، وكان الصُّراخُ يَعْقِب المقاطعين فيقال: «إلى الباب! إلى المِنْبر!».

«ويَصِفُ مسيو س... الاجتماعَ بالقبيح والنَّذْل والمَسِيخ والساقط والمُلَوَّث واللئيم، ويُصَرِّح بأنه يريد تقويضه إلخ، إلخ...».

وهنا يُسْأل: كيف يُمْكِن الناخبَ أن يُكَوِّن رأيه في مثل تلك الأحوال؟ ولكنَّ وَضْع مثل هذا السؤال يعني انخداعًا غريبًا في مقدار ما تتمتع به الجماعة من الحرية، فما لدى الجماعات من آراء يكون مفروضًا عليها، وليس عند الجماعات من آراءٍ مُبَرْهَنة، وتظلُّ تلك الآراء وأصوات الناخبين قبضةَ اللجان الانتخابية التي يكون زعماؤها في الغالب من تجار الخمر الكثيري النفوذ لدى مَن يبيعونهم بنَسِيئةٍ من العمال، قال أحد أنصار الديموقراطية المَقاديم مسيو شِيرِير: «أتعلمون ما هي لَجْنة الانتخابات؟ إنها مِفْتاح نُظُمنا وأهمُّ جزء في جهازنا السياسيِّ، واللِّجان هي التي تهيمن على فرنسا في الوقت الحاضر(28)».

ولا يصعب التأثير في اللِّجان مع ذلك ما دام المرشح مقبولًا وذا مواردَ كافيةٍ، فقد اعترف المتبرعون أن ثلاثةَ ملايينَ فرنكٍ كَفَتْ لانتخاب الجنرال بُولَانْجِيه في دوائرَ كثيرةٍ.

تلك هي روح الجماعات الانتخابية، وهي مماثلة لروح الجماعات الأخرى، وهي ليست بالأحسنِ منها ولا بالأردأ.

ولا أستنبط مما تقدم أيةَ نتيجةٍ ضدَّ التصويت العام، ولو فُوِّض إليَّ أن أُقَرِّر مصيره لأبقيته كما هو لأسباب عملية ناشئة عن بحثنا في روح الجماعات نَعْرِضُها بعد أن نذكر مساوئه.

إن مساوئ التصويت العام هي من الوضوح ما لا يجوز إنكارُها معه، ومما لا مِرَاءَ فيه أن الحضاراتِ هي من صنع أناس قليلين من ذوي النفوس العالية تتألف منهم ذروة هَرَم تَتَّسِع طبقاته كلما نَقَصَت القيمةُ الذهنية فتُمَثل هذه الطبقاتُ طبقاتِ الشعب البعيدةَ الغَوْر، ومما لا مِراء فيه أن عظمة الحضارة لا تُنَاط بتصويت العناصر الدنيا التي لا تَنِمُّ على غير العدد، ومما لا مِراء فيه أيضًا أن تصويت الجماعات ذو خَطَر في الغالب، فقد أوجب غزوَ الأجنبيِّ لبلادنا عِدَّةَ مرات، ولو تَمَّ النصر للاشتراكية لكلفتنا أهواء السيادة الشعبية ثمنًا أغلى من ذلك بدرجات لا رَيْب.

بَيْد أن تلك الاعتراضاتِ الوجيهةَ نظريًّا تَفْقِد قوتها عمليًّا إذا ما ذُكِرَ ما للآراء التي تتحول إلى عقائدَ من سلطان قويّ، أجَلْ، إن العقيدة القائلة بسيادة

الجماعات لا يدافَع عنها فلسفيًّا كما أنّه لا يدافَع عن العقائد الدينية في القرون الوسطى، غير أن لتلك العقيدة من القدرة المطلقة في أيامنا مثلَ ما كان لهذه العقائد في غابر الأزمان، وتلك العقيدةُ لا تهاجَم، إذَنْ، كما تَعَذر مهاجمة عقائدنا الدينية فيما مضى، ولنفترضْ أن أحد أحرار الفكر نُقِل بقدرةٍ سحرية إلى القرون الوسطى، أفتَظنون أنّه يحاول إذ ذاك مناهضةَ ما يكون أمامه من السلطان المطلق للمبادئ الدينية؟ وهو إذا ما مَثُل أمام قاضٍ يريد حَرْقَه لما عُزِيَ إليه من معاهدته الشيطانَ أو ملازمتِه مجتمعَ سَحَرة في الليل فهل يُفَكِّر آنئذٍ في الجِدال حَوْلَ وجود الشيطان أو وجود مجتمعَ سَحَرةٍ في الليل؟ ولا جِدالَ مع معتقدات الجماعات كما أنه لا جِدال مع العواصف، وما لعقيدة التصويت العام من السلطان فيَعْدِل سلطانَ العقائد الدينية في الماضي، ويذكرها الخطباء والكُتَّاب بما لم يَعْرِفه لويس الرابع عشر من الاحترام والتملق، ويجب لذلك أن يُسار معها كما يُسار مع جميع العقائد الدينية، والزمانُ وحدَه هو الذي يَعْمَل فيها عملَه.

ومن غير المفيد محاولةُ زعزعة تلك العقيدة ما وُجِدَت أسباب ظاهرة تُؤَيِّدها، ومن الإصابة قول تُوكْفِيل: «لا يؤمن بعضُ الناس ببعض في أزمنة المساواة لتشابههم، غير أن هذا التشابه يمنحهم ثِقَةً لا حدَّ لها بحكم الجُمهور تقريبًا، وذلك لأنهم لا يَرَوْن من المعقول ألَّا تكون الحقيقة بجانب العدد الأكبر، ومن هذا العدد أناسٌ تَساوَوْا بصيرةً».

والآن أيجب أن يُفْتَرض أن الانتخاب المقصور على أصحاب الأهليات يُصْلِحُ تصويت الجماعات؟ لا أُسَلِّم بهذا القول ثانيةً، وذلك للأسباب التي ذكرتها فيما تقدم عن الانحطاط الذهنيِّ في الجماعات مهما كان تركيبها، وتراني أُكَرِّر قولي إن الناس في الجماعة يَتَساوَوْن على الدوام، ولا يكون تصويتُ أعضاء الأكاديمية الأربعين في المسائل العامة أفضلَ من تصويت أربعين سَقَّاءً فيها، ولا أعتقد أن أيَّ صوت من الأصوات التي وقع اللومُ عليها في الاقتراع العام لإعادة الإمبراطورية مثلًا يختلف عما حَدَث لو كان المُصَوِّتون قد جُمِعوا من رجال العلم والأدب فقط، فلا يَمْنَح كونُ الرجل عارفًا باليونانية أو الرياضيات أو كونُه مِعْماريًّا أو بَيْطارًا أو طبيبًا أو محاميًا هذا الرجلَ بصيرةً خاصة في المسائل العاطفية، ومن المعلوم أن مُعْظم رجال الاقتصاد عندنا من المثقفين والأساتذة وأعضاء الأكاديمية، أفَتَجدهم متفقين على مسألة عامة كنظام الحماية مثلًا؟ ألا إن جميع الجهالات تتساوى أمام جميع المسائل الاجتماعية المملوءة بما لا حَدَّ له من المجهولات والتي يسيطر عليها المنطق الدينيُّ أو المنطق العاطفيُّ.

إذَنْ، لو كانت جماعة الناخبين مؤلفةً من أناس مُكْتظِّين علمًا ما كانت أصواتُهم أحسنَ من أصوات الناخبين في الوقت الحاضر، وهم يهتدون على

الخصوص بمشاعرهم وروح حزبهم، ولا تزول بذلك واحدة من المصاعب الحاضرة، ونعاني بذلك طغيانَ الطوائفِ الثقيلَ لا ريب.

وتصويتُ الجماعات، عامًّا كان أو محصورًا، وجمهوريةً كانت البلادُ التي تقول به أو مَلَكيةً، وفي فرنسا طُبِّق أو في بلجيكا أو في بلاد اليونان أو في البرتغال أو في إسبانيا، تَجِدُه متشابهًا في كلِّ مكان، وهو يُعَبِّر في الغالب عن آمال العِرْق واحتياجاته تعبيرًا لاشعوريًّا، ومُعَدَّلُ الناخبين المتوسطُ في كلِّ أمة يَنِمُّ على المُعَدَّل المتوسط لروح عِرْقها، ويكاد هذا المُعَدَّل أن يكون واحدًا في الجيل بعد الجيل.

وهكذا نعود مرةً أخرى إلى ذلك المبدأ الأساسيِّ: إلى مبدأ العِرْق الذي لاقَيْناه في الغالب، وإلى المبدأ الآخر المشتقِّ من الأول والقائل إن شأن النُّظُم والحكومات في حياة الأمم ضعيفٌ إلى الغاية، والأممُ مُسَيَّرة بروح عِرْقها على الخصوص، أي بالرواسب الموروثة التي تتألف تلك الروح من مجموعها، والشعبُ وشبكةُ الضرورات اليومية هما السيدان الخَفِيَّان اللذان يهيمنان على مصايرنا.

الفصل الخامس
المجالس البرلمانية

الجماعات البرلمانية تمثل معظم الصفات المشتركة بين الجماعات المتباينة غير المغفلة – سذاجة الآراء – قابلية التلقن وحدود هذه القابلية – الآراء الثابتة والآراء المتحولة – السبب في أن التردد هو الغالب – شأن الزعماء – سبب نفوذهم – هم السادة الحقيقيون للمجالس التي تكون الأصوات فيها أصوات أقلية صغيرة – ما يمارسونه من السلطان المطلق – عناصر فنهم الخطابي – الألفاظ والصور – الضرورة النفسية تقضي بأن يكون الزعماء من المؤمنين القصيري البصر على العموم – يتعذر على الخطيب بلا نفوذ أن يحمل الآخرين على قبول براهينه – غلوّ المشاعر الطيبة أو السيئة في المجالس – آليتها في بعض الأحيان – جلسات مجلس العهد – الأحوال التي تفقد المجالس فيها صفات الجماعات – تأثير المتخصصين في المسائل الفنية – محاسن النظام البرلماني ومساوئه في جميع البلدان – هو ملائم لاحتياجات العصر الحاضر، ولكنه يؤدي إلى تبذير الأموال وتضييق جميع الحريات بالتدريج – خلاصة الكتاب.

المجالسُ البرلمانية تُمَثِّل الجماعاتِ المتباينةَ غيرَ المُغْفَلة، وهذه المجالسُ تتشابه كثيرًا بأوصافها على ما في جَمْعها من اختلاف بحسب الأزمنة والأمم، وهنالك يبدو تأثير العِرْق في تخفيف تلك الصفات أو إفراطها، لا في منع ظهورها، وتَجِدُ كبيرَ شَبَهٍ بين مناقشات المجالس البرلمانية وتصويتها في أشد البلدان اختلافًا كمجالس بلاد اليونان وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وفرنسا وأمريكا، وتتماثل المصاعب التي تلاقيها الحكومات في هذه البلدان.

والنظامُ البرلمانيُّ هو مع ذلك خلاصةُ خيال الأمم المتمدنة الحديثة، وهو يعبِّر عن الفكر الخاطئ نفسيًّا والمُسَلَّم به عمومًا والقائلِ إن أناسًا كثيرين إذا ما اجتمعوا غَدَوْا أقدر من أناسٍ قليلين على إصدار قرار حكيم مستقلّ في موضوعٍ ما.

وفي المجالس البرلمانية نَجِدُ الصفاتِ العامةَ المُميِّزة للجماعات من بساطة الأفكار وسرعة الغضب وقابلية التَّلَقُّن وغُلُوِّ المشاعر ونفوذ الزعماء الكبير، بَيْدَ أن تركيب الجماعات البرلمانية الخاصَّ يوجب اتصافها ببعض الفروق، وهذا ما نَنُصُّ عليه بعد قليل.

وبساطةُ الآراء هي من أبرز صفات الجماعات البرلمانية، وتَجِد لدى جميع الأحزاب في الأمم اللاتينية على الخصوص ميلًا ثابتًا إلى حلِّ أشدِّ المُعْضِلات الاجتماعية تَعَقدًا بأشدِّ المبادئ المُجَرَّدة بساطةً وبقوانينَ عامةٍ يُرَى تطبيقها على جميع الأحوال، ومن الطبيعيِّ أن تختلف المبادئ باختلاف الأحزاب، ولكن وجود الأفراد في جماعة يَحْفِز هؤلاء الأفراد دَوْمًا إلى المغالاة في قيمة تلك المبادئ والذهابِ إلى أقصى ما تُؤَدِّي إليه من النتائج، والبرلماناتُ أيضًا تُمَثِّل الآراء المتطرفة بوجه خاصّ.

وأكملُ مثال على بساطة المجالس مما حَقَّقه يعاقبة ثورتنا الكبرى، فاليعاقبة كلُّهم إذ كانوا من النظريين والمناطقة، وأدمغتُهم إذ كانت مشحونةً بالكُلِّيات المبهمة، صَرَفُوا هَمَّهم إلى تطبيق المبادئ المقرَّرة غير مبالين بالحوادث، فكان من الصواب أن قيل إنهم جاوزوا الثورة الفرنسية من غير أن يَرَوْها، وهم لِما كان لديهم من قليلِ معتقداتٍ خُيِّل إليهم تجديدُ المجتمع بأسْره والرجوعُ بالحضارة إلى الطور الذي هو أقدم من دور التطور الاجتماعيِّ بمراحل، وهم قد وُجِدَ ما عندهم من الوسائل لتحقيق هذا الخيال مصطبغًا بصِبْغة البساطة المطلقة أيضًا، وهم قد اقتصروا بالحقيقة على تقويض جميع العوائق التي كانت تُزْعِجهم بعنف، على أن الجميع، من جِيرُوندِيين ومُونْتانْيار وتِرْميدُوريين إلخ، كان مُشْبَعًا من تلك الروح.

والجماعاتُ البرلمانية شديدةُ التَّلقُّن، والتلقين يصدر عن الزعماء النافذين كما في كلِّ وقت، غير أنك تَرَى لقابلية التَّلَقّن في المجالس البرلمانية حدودًا شديدةَ الوضوح جديرةً بالذكر.

تَجِدُ لدى كلِّ عضو من أعضاء المجلس آراءً مقرَّرَةً في المسائل المحلية فلا يزعزعها أيُّ برهان كان، وما كانت مواهب دِيموسْتِين لو بُعِثَ لِتُغَيِّر صوت نائب في بعض المسائل التي تُعَبِّر عن رَغَبات الناخبين النافذين كنظام الحماية أو امتياز مُقَطِّري المُسْكرات، فما صَدَر عن هؤلاء الناخبين من تلقين سابق هو من القوة ما يوجب إبطالَ عمل كلِّ تلقينٍ آخرَ وما يؤدي إلى ثبات مطلق في الرأي([29]).

ويتوارى ثبات الرأي في المسائل العامة كإسقاط وزارةٍ أو تقرير ضريبةٍ إلخ، ويكون لتلقينات الزعماء تأثير، ولكنَّ هذا لا يَحْدُث كما في الجماعة العادية من كلِّ وجه، فلكلِّ حزب زعماؤُه الذين يمارسون نفوذًا متساويًا في بعض الأحيان، فتتجاذبُ النائبَ تلقيناتٌ متناقضة لهذا السبب فيغدو كثيرَ التردد حتمًا، ومن ذلك أنك ترى في الغالب اقتراعًا متهادمًا في ربع ساعة بإضافة مادة إلى القانون المسنون ناقضةٍ له، كأنْ يُوضَع قانون يُحَرِّم على أرباب الصِّناعات اختيارَ العُمَّال وتسريحَهم وأن يُلْغَى هذا الحكمُ بتعديلٍ لاحق.

وبذلك نُفَسِّر سبب إبداء المجلس في كلِّ دَوْرة اشتراعية آراءً كثيرةَ الثبات وأخرى كثيرةَ التقلب، وإذا نظرتَ إلى الأساس وَجَدت التقلّبَ يسود المسائلَ العامة لكَثْرتها ووَجَدت أن الخوف من الناخب هو الذي يُمْلي ذلك التقلّب، فللناخب تلقينٌ خفيٌّ ينتهي إلى موازنة نفوذ الزعماء على الدوام.

والزعماء مع ذلك هم السادة الحقيقيون في المناقشات التي لا يكون لأعضاء المجلس فيها آراءٌ مُقَرَّرة من قَبْل.

وضرورةُ الزعماء أمرٌ واضح ما دمنا نَجِدُهم في جميع البلدان حاملين لاسم رؤساء الأحزاب، وأولئك الزعماء هم سادة المجالس الحقيقيون، ولا غُنْيةَ

للناس في الجماعة عن سَيِّد، ولهذا لا تُمَثل أصواتُ المجالس غيرَ آراء أقليةٍ صغيرة على العموم.

وأعودُ فأقول إن من القليل أن يُؤَثِّر الزعماء ببراهينهم وإن من الكثير أن يُؤَثِّروا بنفوذهم، والزعماءُ إذا ما جُرِّدوا من نفوذهم بفعل إحدى الأحوال أصبحوا غير مُؤَثِّرين.

ونفوذُ الزعماء شخصيٌّ، وهو لا يرتبط في الاسم ولا في الشهرة، وقد تكلم مسيو جُول سِيمُون عن أكابر الرجال في مجلس سنة 1848 الذي كان عضوًا فيه فأتى بأمثلةٍ طريفةٍ على ذلك، قال جُول سِيمُون:

«لم يكن لويس نابليون شيئًا مذكورًا قبل أن يصبح صاحب الحكم».

«وصَعِد فيكتور هوغو المِنْبرَ فلم يُكْتب له نجاح، وقد اسْتُمع إليه كما كان يُسْتمع إلى فيليكس بايا، ولم يُهْتَفْ له مثلَه، ومن قول فُولَا بِل لي، وذلك حين حديثه عن فيليكس بايا: «إنني لا أُحِبُّ أفكاره، ولكنه من أعاظم كُتَّاب فرنسا وأكبر خطبائها»، ولم يكن لذي النفس القوية النادرة إدغار كينه شأن يُذْكر، وإدغار كينه هذا أَتَى عليه حينٌ كان فيه ذا حُظْوة لدى الشعب قبل افتتاح المجلس، فلما دخل هذا المجلسَ لم يَبْقَ له شيء من ذلك».

«والمجالسُ السياسية هي بُقْعةُ الأرض التي يَضْعُف فيها الشعور بنور العبقرية أكثر مما في سواها، وفي المجالس السياسية لا يُبَالَى بغير البلاغة الملائمة لمقتضى الزمان والمكان وبغير الخِدَم التي تُؤَدَّي إلى الأحزاب، لا إلى الوطن، وما حَدَث من تَحِيَّةٍ للامارْتِينَ في سنة 1848 ولتِيارَ في سنة 1871 فكان وليدَ المصلحة المُلِحَّة الشديدة، فبعد أن زال الخطر شُفِيَ من الشُّكْران والفَزَع معًا».

نقلتُ ذلك القولَ لِما اشتمل عليه من وقائعَ، لا من أَجْل ما احتواه من شروح هزيلة نفسيًّا، والجماعةُ إذا ما عَرَفَت للزعماء ما قَدَّموه من الخِدَم إلى الوطن أو إلى الأحزاب فَقَدَت صِفَة الجماعة، فالجماعة تعاني نفوذ الزعيم من غير أن يَدْخُل في سلوكها ذلك أيُّ حساب لمنفعةٍ أو معروف.

والزعيمُ إذا كان ذا نفوذٍ كافٍ تَمتَّع بسلطان مطلق تقريبًا، وليس بمجهولٍ أمرُ ذلك التأثير العظيم الذي زاوله نائب مشهور في سنوات كثيرة بفضل نفوذه ثمّ خَسِره، ذات حين، على أَثَر بعض الحوادث المالية، وقد كانت إشارةٌ بسيطة منه تكفي لإسقاط الوزارات، وإليك كيف أوضَح أحدُ الكتَّاب مَدَى تأثيره في الأسطر الآتية:

«إننا مدينون لمسيو ك… باشتراء تُونْكِين بثلاثة أضعاف ما كانت تساويه، وبأننا لم نَضَعْ في مدَغَشْقَر سوى قدم غير ثابتة، وبأننا حُرِمْنا إمبراطوريةً في نيجِر الأدنى، وبأننا أضعنا مقامنا الممتازَ في مصرَ، ألا إن نظرياتِ مسيو ك… أفقدتنا من الأملاك أكثرَ مما أفقدتنا إياه بلايا نابليون الأولِ».

ولا ينبغي لنا أن نُكْثِر من لَوْم ذلك الزعيم، فهو، وإن كَلَّفَنا ثمنًا غاليًا كما هو واضح، لم يقم مُعْظَمُ نفوذه على غير اتِّباعه الرأيَ العامَّ الذي لم يكن وَضْعه تِجاه الاستعمار كما هو عليه في هذه الأيام، ومن النادر أن يَسْبِق الزعيمُ الرأيَ العامَّ، والزعيمُ يقتصر على انتحال أغاليط الرأي العام في الغالب.

ووسائلُ الإقناع التي يتخذها الزعماء بعد النفوذ هي العوامل التي أحصيناها آنفًا غيرَ مرة، والزعيمُ لكي يستعمل هذه الوسائلَ بحِذْقٍ لا بُدَّ له من أن يَنْفُذ في روح الجماعات نفوذًا غيرَ شعوريّ على الأقل، وأن يَعْرِف كيف يخاطبُها، وأن يَعْلَم على الخصوص ما للألفاظ والصِّيَغ والصُّوَر من تأثيرٍ ساحر، ولا بدَّ له من أن يكون قابضًا على ناصية فصاحةٍ خاصة مؤلَّفة من توكيدات عنيفة وصُوَر مؤثِّرة تحيط بها براهينُ مُجْمَلةٌ، وفصاحةٌ من هذا الطِّراز مما يشاهَد في جميع المجالس، حتى في البرلمان الإنكليزيِّ الذي هو أكثر المجالس اتِّزانًا.

قال الفيلسوف الإنكليزيُّ مِينُ: «لا يمكننا أن نقرأ باستمرارٍ مباحثاتِ مجلس النواب الذي تقوم جميع مناقشاته على تبادل الكليات الضعيفة والشخصيات الصائلة، ولهذا النوع من الصِّيَغ العامة تأثيرٌ كبير في خيال الديموقراطية الصِّرفة، ومما يَسْهُل في كلِّ وقتٍ أن تُحْمَل جماعةٌ على قبول طائفة من المزاعم العامة التي تُعْرَض بعباراتٍ مُؤَثِّرة وإن لم تُحَقَّق قَطُّ، وإن لم يُكْتب لها أيُّ تحقيق في المستقبل على ما يحتمل».

ولا مبالغةَ في أهمية «العبارات المؤثِّرة» المذكورة آنفًا، وقد أسهبنا غيرَ مرةٍ في بيان القدرة الخاصة للألفاظ والصِّيَغ المنتخبة التي تثير صورًا مؤثِّرة، والجملةُ الآتية التي نقتطفها من خُطبة زعيم في المجالس هي نَمُوذَجٌ حسن لذلك:

«يوم تَنْقُل السفينة الواحدة إلى أرض المَنْفَى الحُمِّيَّة مُحْتَرِفَ السياسة المُرِيبَ والفوضويَّ السفاكَ تبصرهما يتحادثان فيكونان مظهرين مُتِمَّيْن لنظام اجتماعيّ واحد».

والصورةُ التي أُثيرت على ذلك الوجه واضحةٌ جالبة للنظر، وقد شَعَر جميع خصوم الخطيب بأنهم مُهَدَّدون بها، فأبصروا من فَوْرهم البلادَ الحُمِّيَّة والسفينة التي قد تنقلهم إليها، وذلك لأنهم من محترفي السياسة الذين لم تُحَدَّد فِرْقتهم، وهم يَشْعُرون بالخوف الأصمِّ الذي كان رجال العهد يَشْعُرون به، أي الرجالُ الذين كانت المِقْصَلة تُهَدِّد رقابَهم بفعل خُطَب رُوبِسْبير المبهمة فيذعنون له عن خوفٍ على الدوام.

ومن مصلحة الزعماء أن يأتوا بمبالغاتٍ لا يُصَدِّقها العقل، وقد استطاع الخطيب الذي استشهدتُ بعبارته الآنفة الذكر أن يُؤَكِّد من غير أن يُثيرَ كبيرَ احتجاجاتٍ أن أرباب المصارف والقسوسَ كانوا يَستأجرون قاذفي القنابل

وأن مديري الشركات الكبرى المالية يستحقون مثلَ عقوبات الفوضويين، فوسائلُ مثلُ هذه مما يُؤَثِّر في الجماعات دَوْمًا، وليس التوكيد تَطَرُّفًا، وليس التقريع تهديدًا، ولا شيءَ يُرْهِب السامعين مثلُهما مع ذلك، والسامعون يَخْشَوْن أن يُعَدُّوا من الخائنين أو من الشركاء في الذنب إذا ما احتجوا على ذلك.

وتلك البلاغة الخاصة قد سيطرت على جميع المجالس كما قلتُ منذ هُنَيْهة، وهي تشتدُّ في الأدوار الحَرِجة، ولنا في مطالعة خُطَب كِبار الخطباء أيام الثورة الفرنسية فوائدُ كثيرةٌ من هذه الناحية، وهؤلاء كانوا يَرَوْن أن يقطعوا كلامهم في كلِّ ثانية تشنيعًا للجُرْم وتعظيمًا للفضيلة، ثمّ كانوا يَصُبُّون اللَّعَنات على الطُّغاة ويُقْسِمون على العيش أحرارًا أو يموتوا، وكان الحُضُور يَقِفُون ويُصَفِّقون هائجين، فإذا ما هَدَؤوا جَلَسوا.

وقد يكون الزعيم ذكيًّا متعلمًا في بعض الأحيان، ولكن ضَرَّ هذا يكون أكبرَ من نَفْعه له على العموم، وذلك لأن الذكاء بإثباته تَعَقُّدَ الأمور وقبولِه الإيضاحَ والتَّفَهمَ يؤدي إلى التسامح ويَثْلِمُ ما هو ضروريٌّ للرسل من حِدَّة العقائد وشِدَّتها، وكان كِبار الزعماء في كلِّ جيل، ولا سيما زعماءُ الثورة الفرنسية، محدودي العقل وكانوا ذوي تأثير بالغ مع ذلك.

وانْظُرْ إلى خُطَب رُوبِسْبير الذي كان أشهرَهم تَقَعْ في حَيْرةٍ من عدم ارتباطها، وأنت حين تقرؤها لا تَجِد فيها إيضاحًا شافيًا لِما اتَّفَق لهذا الجَبَّار القَوِيِّ من شأن عريض.

«هي مواردُ مطروقةٌ وشَقْشَقةُ فصاحةٍ تعليمية وثرثرةُ ثقافةٍ لاتينية اتخذتْها نفسٌ طِفْليَّةٌ ساذجةٌ يلوح أنها تقتصر على الهجوم أو الدفاع على قول التلاميذ: «هلمَّ إليَّ إذَنْ!»، هي عاطلةٌ من الفكر والتدبير، هي لا لَوْن لها، هي ضَجَرٌ في زوبعة، والقارئُ إذا ما فَرَغ منها فَعَل مُضْطَرًّا كما كان يفعل الرجل الأنيس كاميل ديمولان فقال: أفّ!».

ومن المُفْزِع أن يُفَكَّر في القوة التي يَمُنُّ بها الاعتقاد القويُّ الممزوج بضعف العقل على الرجل ذي النفوذ، وهذه الأحوالُ ضروريةٌ مع ذلك للاستهانة بالعوائق ومَضاءِ العزيمة، والجماعاتُ تَعْرِف بالغريزة من تحتاج إليهم من السادة في أولئك المؤمنين الصارمين.

ونجاحُ الخُطبة في المجلس البرلمانيِّ رهينٌ بنفوذ الخطيب وحدَه تقريبًا، لا بالأدلة التي يُدْلي بها.

ولا حَظَّ للخطيب المجهول الذي يأتي بِخُطْبة مملوءة بأحسن البراهين، وبالبراهين فقط، في أن يُصْغَى إليه على الأقل، وإليك كيف يَصِفُ النائب السابق مسيو ديكوب حالَ المشترع العاطل من النفوذ في الأسطر الآتية:

«إذا ما استوى المشترعُ على المِنْبر أخرج من محفظته إضْبارَةً وبسطها أمامه مُرَتَّبةً وبدأ مطمئنًّا».

«هو يُعَلِّل نفسه بأن يُدْخِل إلى روح السامعين ما يَجِيش في صدره من الاعتقاد، هو قد وَزَن براهينه غيرَ مرة، هو قد أَتْخِم بالأرقام والأدلة، هو واثقٌ بأن يكون الحقُّ في جانبه، هو يرى أن كلَّ معارضة أمام بيانه الساطع لا تُجْدي نفعًا، هو يبدأ معتمدًا على صواب قوله وعلى نِيَّة زملائه الذين لا يطلبون غيرَ الركوع أمام الحقيقة».

«هو يَتَكلَّم، ولسُرْعان ما تأخذه الدهشة من اضطراب القاعة ومن الضجَّة المزعجة التي تتصاعد، وكيف لا يسود السكون؟ وما هو السبب في هذا الإعراض العامِّ؟ وفِيمَ يُفَكِّر أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم؟ وما هو الحافز السريع الذي يَحْمِل ذلك النائبَ على مغادرة مكانه؟».

«ويعلو القلقُ جبينَه ويُقَطِّب ويَسْكُت، ويُشَجِّعه الرئيسُ فيعود إلى الكلام بصوتٍ عالٍ، ويزيد عدم الاستماع إليه فيعلو صوته ويَضْطرب، ويزيدُ الضوضاء حَوْلَه، فلا يَسْمَع صوت نفسه ويسكت مرةً أخرى، ثمّ يخشى أن يؤديَ صَمْته إلى المطالبة بالإقفال فيعودُ إلى الكلام فيغدو الصَّخَب أمرًا لا يُطاق».

والمجالسُ البرلمانية إذا بلغت درجةً مُعَينة من الهياج أصبحت مماثلة للجماعات المتباينة العادية، فاتَّصَفَت مشاعرها بالتطرف، وهنالك تنطلق إلى أعمال البطُولة أو إلى أسوأ المظالم، وهنالك لا يكون الفرد هو إياه فيُوافِق على أشدِّ التدابير مناقضةً لمصالحه الشخصية.

ويدلنا تاريخ الثورة الفرنسية على درجة ما تبلغه المجالس من عدم الشعور ومن معاناة التلقينات المناقضة لمصالحها، ومن ذلك أن من التضحيات العظيمة ما كان من تَنَزُّل الأشراف عن امتيازاتهم غيرَ مُتَرَدِّدين في ليلة المجلس التأسيسيِّ الشهيرة، ومن ذلك أن مما كان يُهَدِّد رجال مجلس العهد بالموت تَنَزُّلَهم عن حَصَانتها وأنهم تَنَزَّلوا عنها بالفعل غيرَ خائفين من إبادة بعضهم لبعض، وذلك مع علمهم أن الإعدام سيكون نصيبَهم في الغد كما هو نصيب زملائهم الآن، وهم، وقد بلغوا تلك الدرجةَ من الآلِيَّةِ التامة التي وصفتُها فيما تقدم، لم يَحُلْ أيُّ عامل دون إذعانهم للتلقينات التي كانت تُنَوِّمهم، ونرى العبارةَ الآتيةَ التي نقتطفها من مذكرات أحدهم، بِلُّوفارين، قاطعةً في ذلك، وتلك العبارة هي: «إننا في الغالب لم نكن لنريد المُقَرَّراتِ التي نُلام عليها قبل اتخاذها بيوم أو يومين، وإنما الأزمةُ وحدَها هي التي كانت تَفْرِضها»، فلا قولَ أكثر صوابًا من هذا القول.

وقد تَجَلَّت ظاهراتُ عدم الشعور عينُها في جميع جَلَسات مجلس العهد الهائجة، قال تاين:

«لقد أجاز رجالُ مجلس العهد وَسَنُّوا ما كانوا يكرهونه من الجرائم وقتلِ الأبرياء وسفكِ دماء الأصدقاء فضلًا عن الجهالات والحماقات، وفي مجلس العهد انضمَّ اليمين إلى الشمال فأجمع هذا المجلس وهو يَهْتِفُ هُتافًا شديدًا على إرسال رئيسه الطبيعيِّ ومُوجِدِ الثورة الفرنسية وقائدِها دانتونَ إلى المِقْصَلة، وفي مجلس العهد انضمَّ اليمين إلى الشمال فوافق هذا المجلس وهو يَهْتِفُ هُتافًا شديدًا على أسوأ مراسيم الحكومة الثَّوْرِيَّة، وأجمع مجلسُ العهد، وهو يَهْتِفُ هُتافَ الإعجاب والحماسة، وهو يُعْرِب عن عظيم مَيْله إلى كُولُودِيرْبوا وكُوتُون ورُوبِسْبِير، على تجديد انتخاب الحكومة السَّفَّاحة تجديدًا غريزيًّا مُكَرَّرًا، وعلى شَدِّ عَضُد هذه الحكومة التي كان البِلِينُ (السهلُ) يَمْقُتها لأنها سَفَّاحة والتي كان المُونْتانُ (الجبلُ) يَمْقُتها لأنها كانت تَحْصِده، وهكذا أعان البِلِينُ والمُونْتَانُ، أي الأكثريةُ والأقلية، على انتحارهما في نهاية الأمر، وهكذا مَدَّ جميع مجلس العهد عُنُقَه في اليوم الثاني والعشرين من شهر برِيْريال (الشهر التاسع من السنة الجُمهورية)، وهكذا مَدَّ مجلس العهد عُنُقَه أيضًا في الربع الأول من الساعة التي عَقَبَت خُطبةَ رُوبِسْبِير في اليوم الثامن من شهر تِرْمِيدُور (الشهر الحادي عشر من السنة الجُمهورية)».

وقد يبدو ذلك الوصف قاتمًا، ولكنه صحيح على كل حال، ومثلُ تلك الصفات ما تبديه المجالس البرلمانية التي تُهَيَّج وتُنَوَّم بما فيه الكفاية، فتغدو هذه المجالس قطيعًا متحركًا سائرًا مع كلِّ دافع، ومن أبرز الأوصاف ما وَصَف به مجلسَ سنة 1848 عُضْوُ البرلمان مسيو سبُولِّر الذي لا ريب في إيمانه الديموقراطيِّ فأنقُله من المجلة الأدبية، ففي هذا الوصف تَجِدُ جميع المشاعر المتطرفة التي ذكرتُ وجودها في الجماعات، وتَجِدُ ذلك الإفراطَ في التقلب الذي يُنْتقل به بين ثانية وثانية إلى أشدِّ المشاعر اختلافًا، قال مسيو سبُولِّر:

«أسفرت ضروب الانقسام والحسد والارتياب والثقة العمياء وما لا حَدَّ له من الآمال عن سَوْق الحزب الجُمْهوري إلى هلاكه، وما كان يساوي سذاجةَ هذا الحزب وسلامةَ نِيَّته غيرُ تَحَذُّره الشامل، وهذا الحزب كان لا يَفْقَه لشَرْعيَّة الأمور ولا للنظام معنًى، وكان كالفَلَّاح والوليد في المخاوف والأوهام، فيتبارى ما في الرِّيفيِّ والصبيِّ من السكون والجَزَع ومن القسوة والدَّعَة، وهذا هو شأن المزاج الذي لم يُهَذَّب والتربيةِ التي لم تُوجَدْ، ولا يُحَيِّرهما شيء ويَقلَقان من كلِّ شيء، وهما يرتعشان ويَفْزعان ويُقْدِمان ويَشْجُعان فيقتحمان النيران، ولكنهما أمام الظلِّ يَرْتدان».

«وهما لا يَعْرِفان المعلولاتِ ولا ما بين الأمور من علاقات، وهما سريعان في الفتور سرعتَهما في الحماسات، وهما موضعُ كلِّ ذُعر، وهما في عُلُوّ أو هبوط، ولا يكونان فيما يجب من مرتبةٍ أو ما يناسب من مَنْزِلة، وهما أَمْيع من الماء فينعكس عليهما جميع الألوان، وتراهما في جميع الأشكال يَبْدُوان، فما رجاؤُك في حكومة تقوم عليهما؟».

ومن حسن الحظَ أنْ كانت جميع الأوصاف التي ذكرنا وجودَها في المجالس البرلمانية لا تبدو على الدوام، وهذه المجالس لا تكون من الجماعات إلّا في بعض الأوقات، ويحافظ أفراد هذه المجالس على شخصياتهم في غير حالة، فتكون القوانين الفنية التي تَصْدُر عنها صالحةً، أجَلْ، إن هذه القوانين الفنية يُعِدُّها متخصص في سكون غرفته، وإنها من عَمَل الفرد بالحقيقة، لا من عمل المجالس، وإنها أحسن القوانين بحكم الطبيعة، وإن هذه القوانينَ لا تكون مُضِرَّة إلّا إذا تَسَرَّبَت فيها سلسلةٌ من التعديلات السيئة فجعلتها من صُنْع الجماعة، وإن عَمَل الجماعة أحطُّ من عمل الشخص المنفرد دَوْمًا وفي كل مكان، وإن المتخصصين وحدَهم هم الذين يُنقِذون المجالس من اتخاذ ما هو مُشَوَّش من التدابير، وإن هؤلاء المتخصصين إذ يَغْدُون زعماءَ لحينٍ لا تُؤَثِّر المجالس فيهم، وهم يصبحون في المجالس من المُؤَثِّرين.

وعلى ما في سير المجالس البرلمانية من مصاعبَ كثيرةٍ ترى هذه المجالسَ أحسنَ وسيلة وَجَدَتها الأمم لتحكم نفسَها بنفسها وللتخلص من نِيرِ الاستبداد الفرديِّ ما استطاعت، وتلك المجالسُ هي في الحقيقة مثالُ الحكومة الأقومُ لدى الفلاسفة والمفكرين والكُتَّاب والمتفننين والعلماء على الأقل، أي لدى أولئك الذين يُؤَلِّفون ذُروةَ الحضارة.

ولا يتجلى في المجالس البرلمانية سوى خَطَرَيْن، وهما تبذيرُ الأموال الاقتساريُّ والتدرجُ إلى تقييد الحريات الفردية.

فأما الخطر الأول فهو نتيجة قسرية لمطاليب الجماعات الانتخابية وعدم تبصرها، وبيانُ الأمر أن عضوًا في المجلس إذا ما اقترح اتخاذَ قرار ملائم في الظاهر للمبادئ الديموقراطية، كتعيين رواتب تقاعدٍ لجميع العُمَّال وزيادةِ رواتبِ عُمَّال الطرق والمعلمين إلخ، لم يَجْرُؤ النواب الآخرون، وقد ساورهم الخَوْفُ من الناخبين، أن يستخفُّوا بمصالح هؤلاء فيرفضون التدبيرَ المقترَح، والنوابُ يَعْلَمون على الخصوص أن ذلك يُثْقِل كاهل الميزانية ويوجب فَرْضَ ضرائبَ جديدةٍ، والنوابُ يتعذر عليهم مع ذلك أن يترددوا في الموافقة على ذلك، والنوابُ بينما يُبْصرون بُعْد نتائج زيادة النفقات ولا يَرَوْن فيها ما يزعجهم شخصيًّا تَجِدُهم يَرَوْن اقتراب اليوم الذي تظهر فيه نتائجُ الرفض، أي اليومِ الذي يُضْطَرُّون فيه إلى المُثُول بين يدي الناخب.

وإلى تلك العلة الأولى في زيادة النفقات تضافُ عِلَّة أخرى لا تَقِلُّ عنها تَجَبُّرًا، وهي ضرورةُ منح النفقات ذاتِ النفع المحليِّ المَحْض، فلا يجوز لنائب أن يَرُدَّ ذلك لِما تَنِمُّ عليه من رَغَبات الناخبين أيضًا، ولا يستطيع أيُّ نائب أن ينال ما تحتاج إليه دائرته الانتخابية إلّا إذا وافق على ما يبديه زملاؤه من مطاليب تَعْدِل مطاليبه([30]).

وأما ثاني الخطرين المذكورين آنفًا، وهو تقييدُ الحريات القسريُّ من قِبَل المجالس البرلمانية، فأقلُّ وضوحًا في الظاهر وأشدُّ حقيقةً في الواقع، ومصدرُ هذا التقييد هو ما لا يُحْصيه عَدٌّ من القوانين المُحَدِّدة للحرية دَوْمًا والتي لا تُبْصِر البرلماناتُ نتائجَها إلّا بَصَرًا سيئًا بفعل روحها الساذجة التي تعتقد بها أنها مُضْطَرة إلى الموافقة عليها.

ولا مَفَرّ من هذا الخطر، حتى إن انكلترا نفسَها لم تُوَفَّق للإفلات منه مع أنها تتمتع بأكمل نظام برلمانيّ ومع أن النائب فيها أكثرُ النواب استقلالًا عن الناخبين، ومما أَثْبَته هِرْبِرْت سبِنْسِر في كتاب قديم له أنّه لا بُدَّ من أن يَعْقِب زيادةَ الحرية الظاهرة نقصٌ في الحرية الحقيقية، ويعود سبِنْسِر في كتابه «الفرد والدولة» إلى هذا الموضوع فيُعْرب عما في نفسه حول البرلمان الإنكليزي كما يأتي:

«سلك الاشتراعُ تلك السبيلَ منذ ذلك الدور، وكَثُرَت التدابير الاستبدادية بسرعة فأدَّت باستمرار إلى تقييد الحريات الفردية على وجهين وهما: إن أنظمةً كثيرة تُوضَعُ في كلِّ سنة فتَفْرِض على ابن البلاد من الزواجر ما كان طليقًا منه طلاقًا تامًّا فيما مَضَى، وتُكْرِهه على إنجاز أعمال كان يمكنه أن يقوم بها أو لا يقوم بها كما يشاء، وأنه فُرِض من الضرائب العامة، والضرائبِ المحلية على الخصوص، ما يُثْقِل الكواهلَ شيئًا فشيئًا فيُقَيد حريةَ الفرد أكثرَ من قبل بتقليله مقدار مكاسبه التي يستطيع أن ينفقها كما يريد وبزيادته مقدارَ ما يُؤْخَذ من هذه المكاسب ليُنْفَق وَفْقَ هوى الوكلاء العامِّين».

ويتجلى تقييد الحريات التدريجيُّ ذلك في جميع البلدان على شكل خاصّ لم يُشِرْ إليه هِرْبِرْت سبِنْسِر، وهو أن زيادة التدابير الاشتراعية المقيِّدةِ للحريات باطِّرادٍ تؤدي إلى زيادة عدد الموظفين المفوض إليهم أمرُ تطبيقها وإلى زيادة سلطان هؤلاء الموظفين ونفوذهم، وهكذا يميل هؤلاء الموظفون إلى أن يكونوا سادة البلدان المتمدنة الحقيقيين، ويتفاقم سلطان الموظفين بما يعتور الحكوماتِ من تبديل مستمر، والطائفةُ الإدارية، وهي تتفلت من تلك التغييرات، تَتَّصف بعدم المسؤولية وبعدم الشخصية وبالدَّيمومة، والحقُّ أنك لا تَجِدُ بين أنواع الاستبداد ما هو أثقل من الاستبداد الذي تجتمع فيه هذه الصفات الثلاث.

ويُؤَدِّي سَنُّ القوانين والأنظمة المقيدة للحريات باستمرار، والتي تحيط أدقَّ شؤون الحياة بسياج من الشكليات البيزنطية، إلى تضييق النطاق الذي يستطيع أبناء الوطن أن يسيروا ضمنه، والأممُ تَرْضَى بأثقل العوائق كلَّ يوم حينما تذهب ضحيةَ الوَهْم القائل إن كثرة القوانين تجعل المساواةَ والحرية في مَأْمَن.

والأممُ لا تُسَلِّم بتلك العوائق من غير عقاب، فهي بعد أن تتعود على احتمالَ كلِّ نِيرٍ لم تُعَتِّم أن تبحث عن الانْهيار فتَفْقِدَ بذلك كلَّ مبادرة وكلَّ نشاط، وتغدو بذلك ظلالًا فارغةً وآلاتٍ مُنْفعلةً غيرَ فاعلةٍ، وتصير بذلك عاطلة من الإرادة والصَّلابة والقوة.

ولكن الإنسان إذا عاد لا يَجِدُ الحوافزَ في نفسه يبحث عنها في غيره، وأهلُ البلاد إذا ما زاد عدم اكتراثهم وعدم قدرتهم عَظُمَ شأن حكوماتهم بحكم الضرورة، وذلك لِما يجب على هذه الحكومات إذ ذاك من انتحال ما أضاعه الأفراد من روح المبادرة والإقدام والعمل ولِما تُضْطَر إليه من فعل كلِّ شيء وإدارة كل شيء وتوجيه كلِّ شيء، وهنالك تصبح الدولةُ إلهًا قادرًا على كلِّ شيء، بَيْد أن التجرِبة تدلُّ على أن قدرةً مثلَ هذا الإله لا تدوم ولا تكون قويةً أبدًا.

ويظهر أن تقييد جميع الحريات التدريجيِّ لدى بعض الأمم، مع وَهْمِ الأمم في تمتعها بها، ينشأ عن هَرَمها كما ينشأ عن أيِّ نظام، وذلك التقييدُ هو نذير الانحطاط الذي لم تَسْطِع حضارةٌ أن تتفلت منه حتى الآن.

وإذا ما نُظِر إلى الأمر من ناحية معارف الماضي ومن جهة العلائم التي تبدو من كلِّ مكان وُجِدَ أن حضارتِنا الحديثة بلغت دور أقصى الهَرَم الذي يَسْبِق الانحطاط، ويظهر أنه لا بدَّ لجميع الأمم من أن تَرِدَ مَوْرد بعض التطورات ما دمنا نرى التاريخ يُكَرِّر مجراها في الغالب.

ومن السهل أن نُبَيّن بإيجازٍ وجوهَ تلك التطورات، وبتلخيصها نختم هذا الكتاب:

إذا ما رَجَعْنا البصرَ إلى العناصر الكبيرة في تكوين عظمة الحضارات التي ظهرت قبل حضاراتنا فماذا نرى؟

نرى في فجر تلك الحضارات أخلاطًا من الناس قد جمعتهم مصادفات الهجرة والمغازي والفتوحات، ولم يكن ليَجْمَع بين أولئك الناس المختلفين دمًا ولغةً واعتقادًا غيرُ سلطةِ رئيس لا تكاد تكون معترفًا بها، وفي تلك الزُّمَر المختلطة تَجِدُ ما في الجماعات من الصفات النفسية إلى أعلى حَدّ، أي تَجِدُ فيها الارتباطَ الموقت والبطولةَ وضروب الضَّعْف والاندفاعَ والعُنْف، ولا تَجِدُ فيها شيئًا ثابتًا، فهي أقوامٌ من البرابرة.

ثمّ أتَمَّ الزمان عمله، فكان لوَحدة البِيئة ولتكرار التوالد وضرورةِ العيش المشترك تأثيرٌ بطيء، وتبدأ زمرةُ الزُّمَر المتباينة تتمازج وتُؤَلِّف عِرْقًا، أي مجموعةً ذاتَ صفاتٍ ومشاعرَ مشتركةٍ تُثَبِّتها الوراثة بالتدريج، وتغدو الجماعة أمّةً ويَحِين لهذه الأمة أن تَخْرُج من طور الهمجية.

ومع ذلك لا تخرج الأمة من ذلك الطور إلّا بنيلها مثلًا عاليًا بعد جهود طويلة واصطراعاتٍ مكرَّرة وما لا يُحْصَى من عَوْدٍ إلى بدء، وليست طبيعةُ المثل

الأعلى بالذي يُهِمُّ فالمثلُ الأعلى يكفي لمَنْح أفراد العِرْق الذين هم في دور التكوين وَحدةً تامة من المشاعر والأفكار سواءٌ أكان المثل الأعلى عبادةَ روما أم قدرةَ أثينا أم نصرَ اللّه.

وهنالك قد تظهر حضارة جديدة مع نظمها ومعتقداتها وفنونها، وذلك بأن ينجذب العِرْق إلى خياله فينالَ بالتدريج كلَّ ما يَهَب النورَ والقوة والعظمة، أجَلْ، يصبح العِرْق جماعةً في بعض الأوقات لا ريب، بَيْد أنّه يوجد خَلْفَ الصفات المتقلبة في الجماعات ذلك الأساسُ المتين، أي روحُ العِرْق التي تُحَدِّد تقلباتِ الأمة وتُنَظِّم المصادفات.

والزمانُ بعد أن يُتِمَّ عملَه الإبداعيَّ يبدأُ عملَه التخريبيَّ الذي لا يتَفَلت منه الناسُ ولا الآلهة، وبيانُ الأمر أن الحضارة إذا بلغت درجة من العظمة والتعقد عادت لا تنمو، وهي إذا ما وقفَ نُمُوّها حُكِم عليها بالأفول السريع، فلم تُعَتِّم ساعةُ الهرم أن تَدُقّ.

وآيةُ تلك الساعة هي ضَعْف المثل الأعلى الذي تستند إليه روح العِرْق، وكلما ذَوَى هذا المثل الأعلى أخذت الصروح الدينية والسياسية والاجتماعية تَرْتَجُّ.

والعِرْقُ إذا ما اضمحلَّ مثله الأعلى بالتدريج خَسِر عِلّةَ التحامه ووَحدتِه وقوتِه شيئًا فشيئًا، والفردُ قد ينمو شخصيةً وذكاءً، غير أن هذا يكون في وقت يُسْتبدل فيه بأَثَرة العِرْق المشتركة كبيرُ نموٍّ في الأَثَرة الفردية مع انحطاطٍ في الخُلق ونقصٍ في القدرة على العمل، ولا يُعَتِّم ما تتألف منه الأمة والوَحدة والكتلة أن يصبح جَمْعَ أفرادٍ غيرَ ملتحم فتُمْسِكه التقاليد والنُّظُم إمساكًا مصنوعًا لزمنٍ قليل، والناسُ متى فَرَّقَت بينهم مصالحُهم ورَغَباتهم فغَدَوْا عاجزين عن حُكْم أنفسهم بحثوا عمن يديرهم في أدقِّ أعمالهم فتمارس الدولةُ إذ ذاك نفوذَها المهمَّ.

والعِرْقُ إذا فَقَد مثله الأعلى القديمَ فَقَد رُوحَه أيضًا، فعاد نَقْعًا من الأفراد ورَجَع إلى ما كان عليه في بدء أمره، أي صار جماعةً، وتَجَلَّت فيه جميع الصفات الموقتة التي لا ثَباتَ لها ولا مستقبل، وهنالك تصبح الحضارةُ عاطلةً من أيِّ استقرار وتَقَعُ تحت رحمة جميع المصادفات، وتَرَى العامَّةَ مَلِكةَ الناس وترى البرابرةَ يتقدمون، أجَلْ، قد تبدو الحضارة ساطعةً لِما تُبْصِر من محافظتها على المظهر الخارجيِّ الذي هو وليدُ ماضٍ طويل، بَيْد أن هذا بناءٌ نَخِر لا يَدْعَمه شيءٌ فسينهار عند أول عاصفة.

فانتقالٌ من الهمجية إلى الحضارة سعيًا وراءَ خيالٍ، ثمّ هبوطٌ فموتٌ عند خُسْران هذا الخيال لسلطانه، ذلك هو دورُ حياة الأمم.

الفهرس

Contents

Notes

[←1]

موسوليني.

[←2]

لم تكن معرفة أدق مستشاريه أحسن من تلك، فقد كتب تاليران يقول له: «إن إسبانيا ستقبل جنوده قبول المنقذين»، وإسبانيا هذه قد استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الضارية، فكان يسهل على عالم نفسي مطلع على غرائز هذا الشعب الموروثة أن يبصر ذلك.

[←3]

لم يعنَ العلماء الذين تناولوا بالدرس روح الجماعات إلّا بالبحث فيها من الناحية الإجرامية كما قلت ذلك آنفًا، وإذ إنني لم أخصص لهذه الناحية سوى فصل قصير فإنني أحيل القارئ على دراسات مسيو تارد وعلى رسالة مسيو سيغل التي سماها «الجماعات المجرمة»، ولم تشتمل رسالة «الجماعات المجرمة» هذه على أيّ فكر شخصي لمؤلفها، بل تحتوي مجموعة من الوقائع العزيزة على علماء النفس، على أن النتائج التي انتهيت إليها عن إجرام الجماعات وخلقها تخالف ما وصل إليه ذانك الكاتبان من النتائج مخالفة تامة.

وتجد في كتبي الكثيرة، ولا سيما كتابي «روح الاشتراكية»، بعض النتائج للسنن التي تهيمن على روح الجماعات، ويمكن الانتفاع بهذه النتائج في مختلف الموضوعات مع ذلك، ومن ذلك أن مدير المعهد الموسيقي الملكي في بروكسل، مسيو أ. جيفار، وجد، حديثًا، تطبيقًا مهمًّا للسنن التي عرضناها فأصاب في وصفها بفن الجماعات، وذلك في مذكرة وضعها عن الموسيقى، ومما جاء في كتاب أرسله إلى هذا الأستاذ المفضال مع نسخة من مذكرته: «إن كتابيك هما اللذان وجدت بهما حل مسألة كنت أعده أمرًا متعذرًا، وتلك المسألة هي الاستعداد العجيب لدى كلّ جماعة في تذوّق أية قطعة موسيقية حديثة أو قديمة، وطنية أو أجنبية، بسيطة أو مركبة، وذلك على أن تكون حسنة الإيقاع وأن يقوم بها موقعون يديرهم رئيس حمس». ومما أجاد بيانه مسيو جيفار السبب «في أن مستمعين غريبين عن كلّ ثقافة فنية يلمون في بعض الأحيان دفعة واحدة بقطعة موسيقية غير مدركة من قبل موسيقيين ماهرين يقرؤونها منزوين في غرفتهم»، ويوضح مسيو جيفار، مع الإجادة أيضًا، العلّة في أن هذه الانطباعات الذوقية لا تترك أيّ أثر.

[←4]

إن الذين شهدوا حصار باريس شاهدوا أمثلة كثيرة على سرعة تصديق الجماعات لأمور غير محتملة تمامًا، ومن ذلك أن عدت شمعة مشعولة في الطبقة العليا في أحد المنازل إشارة للأعداء المحاصرين، مع أن قليلًا من إنعام النظر كان يكفي لإثبات استحالة رؤية نور هذه الشمعة من مسافة عدة أميال.

[←5]

انظر إلى عدد جريدة إكلير الصادر في 21 من أبريل سنة 1895.

[←6]

أنعرف كيف حدثت واقعة واحدة بالضبط؟ إنني أشك في ذلك، أجل، قد نعرف من كان غالبًا ومن كان مغلوبًا، ولا نعرف أكثر من هذا على ما يحتمل، وما رواه مسيو داركور، وهو ممثل وشاهد، عن معركة سولفرينو يمكن تطبيقه على جميع المعارك، فقد قال: «يدوّن القادة تقاريرهم الرسمية بعد أن يكون قد أنارهم مئات الشهود، ويعدل الضباط الموكل إليهم تبليغ الأوامر تلك الوثائق ويكتبون صيغتها النهائية، ويجادل رئيس أركان الحرب في هذه الصيغة ويعيد كتابتها ويعرض ذلك على القائد العام فيصيح هذا القائد قائلًا: «أنتم مخطئون خطأً مطلقًا»، فيستبدل بها صيغه جديدة، وبذلك لا يبقى شيء من التقرير الأصلي»، ويتخذ مسيو داركور ذلك دليلًا على استحالة تقرير الحقيقة في أكثر الحوادث تأثيرًا وأحسنها مشاهدة.

[←7]

إذا جاز مثل ذلك القول عن حياة صاحب دين غير السيد الرسول فإنه لا يشمل حياة السيد الرسول حتمًا، حتى إن المؤلف قد قال في كتابه «حضارات الهند» الجليل الذي وضعه سنة 1887 فنقلناه إلى العربية: «إذا استثنيت محمدًا لم تجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاعًا صحيحًا على ما يحتمل»، وإلى مثل هذا ذهب المؤلف في كتابه الرائع «حياة الحقائق» الذي وضعه في سنة 1914 فنقلناه إلى العربية أيضًا، فيكون قول المؤلف في كتاب «روح الجماعات» الذي وضعه سنة 1895، أي بين ذينك الكتابين خطأ أو من قبيل الانسياق. (المترجم)

[←8]

ذلك ما ندرك به السبب في أن بعض الروايات التي يرفضها جميع مديري المسرح تنال نجاحًا عجيبًا إذا ما قيّض لها أن تمثل اتفاقًا، وليس بمجهول أمر نجاح رواية «في سبيل التاج» التي وضعها مسيو كوبه فرفضها مديرو المسارح الأولى مدة عشر سنين مع ما لمؤلفها من الشهرة، ومن ذلك، أيضًا، أمر رواية «عرابة شارلي» التي مثلت على نفقة صراف فأتيح لها، بعد أن رفضت عدة مرات، أن تشخص مئتي مرة في فرنسا، وأكثر من ألف مرة في إنكلترا، فلولا إيضاحنا السابق فيما عليه مديرو المسرح من عدم التحول النفسي إلى جماعة لتعذر علينا أن نتبين علّة صدور مثل تلك الأضاليل عن أشخاص متخصصين يهمهم كثيرًا ألّا يقترفوا أغاليط كتلك.

[←9]

بما أن هذه القضية لا تزال حديثة ولا يدرك التاريخ بغيرها فقد خصصت لإثباتها عدة فصول من كتابي «السنن النفسية لتطور الأمم»، وفي هذا الكتاب يرى القارئ، على الرغم من الظواهر الخادعة، أن اللغة والديانة والفنون، أي كل عنصر من عناصر الحضارة، لا يمكن أن تنتقل سليمة من أمة إلى أخرى.

[←10]

إن تقرير عضو مجلس العهد القديم، فوركروا، الذي استشهد به تاين واضح من هذه الناحية، فقد جاء فيه:

«يثبت ما يرى في كل مكان من تقديس يوم الأحد والتردد إلى الكنائس أن مجموع الفرنسيين يريد العودة إلى العادات القديمة، فلا تجدي مقاومة هذا الميل القومي...

ويحتاج معظم الناس إلى دين ومذهب وقسوس، ومن خطأ بعض الفلاسفة المعاصرين الذي سرت عليه بنفسي هو أن يعتقد إمكان نشر تعليم، بدرجة الكفاية، للقضاء على الأوهام الدينية، فهذه الأوهام منبع سلوان لأكثر التعساء...

فيجب، إذن، ترك معظم الشعب وقسوسه وهياكله وعبادته».

[←11]

ذلك ما يعرفه أكثر الجمهوريين تقدمًا حتى في الولايات المتحدة، وقد أعربت جريدة فوروم الأمريكية عن هذا الرأي الطريف بعبارات أنقلها من عدد مجلة المجلات الصادر في ديسمبر سنة 1894، وهي: «لا ينبغي أن يذهب عن بال أشد أعداء الأرستوقراطية حماسة، أيضًا، أن إنكلترا أشد بلاد العالم ديموقراطية في الوقت الحاضر، فحقوق الفرد في إنكلترا محترمة أكثر مما في غيرها، وفي إنكلترا يتمتع الأفراد بحرية أكثر مما في سواها.

[←12]

إذا أنعمنا النظر في الانقسامات الدينية والسياسية التي تفرق بين مختلف الأحزاب بفرنسا والتي هي مسألة عرق ومناحٍ انفصالية تجلّت أيام الثورة الفرنسية فرسمت مجددًا في أواخر الحرب الفرنسية الألمانية، أبصرنا أن العروق المختلفة التي تسكن بلادنا لا تزال بعيدة من أن ينصهر بعضها في بعض، ومن الحق أن يقال إن ما أسفرت عنه الثورة الفرنسية من المركزية الصارمة ومن إيجاد مديريات مصنوعة معدة لخلط الولايات القديمة هو أكثر أعمالها نفعًا، ولو أمكن انتحال نظام اللامركزية الذي يقول به كثير من ذوي الغفلة لأدى هذا النظام من فوره إلى أشد الفتن سفكًا للدماء، فالغفلة عن هذا تعني نسيان تاريخنا نسيانًا تامًّا.

[←13]
انظر إلى الطبعة السابعة من «روح الاشتراكية»، وإلى الطبعة الرابعة عشرة من «روح التربية».

[←14]

على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالأمم اللاتينية، فهي تشاهد أيضًا في الصين، في هذا البلد الذي تقوده كذلك سلسلة من الموظفين، ذلك البلد الذي تنال فيه الوظائف بالمسابقات القائمة على تلاوة كتب كثيفة عن ظهر قلب فقط، واليوم يعدّ جحفل المتعلمين العاطلين عن العمل في الصين مصيبة قومية حقيقية، وقل مثل هذا عن بلاد الهند حيث تألفت طبقة خاصة من المتعلمين منذ فتح الإنكليز مدارس فيها، لا للثقافة كما في إنكلترا، بل لتعليم أبناء البلاد الأصليين، فالمتعلم في الهند إذا لم يستطع أن ينال وظيفة غدا عدوًّا شديدًا للسلطة الإنكليزية، وأول أثر للتعليم في متعلمي الهند هو خفض مستوى أخلاقهم خفضًا عظيمًا، موظفين كان هؤلاء أم لم يكونوا، وقد أفضت في بيان هذا الأمر في كتاب «حضارات الهند»، وقد أبصر جميع المؤلفين الذين زاروا شبه جزيرة الهند الواسعة مثل ما أبصرت.

[←15]

انظر إلى الجزء الثاني من كتاب تاين: «النظام الحديث»، 1894، وهذه الصفحات هي آخر ما كتبه تاين تقريبًا، وهي خلاصة عجيبة لنتائج تجربته الطويلة، والحق أن التربية وسيلتنا الوحيدة للتأثير في روح الشعب بعض التأثير، ومن دواعي الأسف الشديد أنك لا تكاد تجد في فرنسا رجلًا قادرًا على إدراك ما ينطوي عليه تعليمنا الحاضر من عناصر الانحطاط المرهوبة، ذلك التعليم الذي يخفض الشبيبة بدلًا من رفعها.

[16←]

فصلت الفرق بين المثل الديموقراطي اللاتيني الأعلى والمثل الديموقراطي الأنغلوسكسوني الأعلى في كتابي «السنن النفسية لتطور الأمم».

[←17]

كان الرأي العام في ذلك قائمًا على اجتماع متباين الأمور التي عرضت تركيبها فيما تقدم، فبما أن حرسنا الوطني السابق كان مؤلفًا من الباعة المسالمين الذين لا أثر للنظام فيهم فلا يبالى بهم، لهذا السبب كان مثل ذلك الاسم يثير مثل هذا الخيال فيدل على ما لا يخشى، ويقاسم الزعماء جموعهم خطأها وفق ما يتفق للرأي العام في الغالب، ومن ذلك أن القطب السياسي، مسيو تيار، الذي كان يتبع رأي الجماعات كثيرًا ألقى في مجلس النواب، في 31 من ديسمبر سنة 1867، خطبة قال فيها مؤكدًا إنه ليس لدى بروسيا غير حرس وطني مشابه للحرس الذي كان عندنا، وإنه لا أهمية له لهذا السبب، وذلك فضلًا عن جيش عامل لبروسيا يعدل جيشنا جنودًا تقريبًا، فهذه المزاعم هي في صحتها كبصائر هذا القطب السياسي في ضعف مستقبل الخطوط الحديدية.

[←18]

ترجع ملاحظاتي الأولى في فن التأثير في الجماعات وفي ضعف قواعد المنطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار باريس، إلى اليوم الذي رأيت فيه سوق الماريشال في... إلى اللوفر حيث كانت الحكومة، وذلك من قبل جماعة هائجة تزعم أن الماريشال المشار إليه بوغت وهو يأخذ رسم الحصون ليبيعها من البروسيين، ويخرج أحدٍ أعضاء الحكومة الخطيب الشهير ج. ب... ليخطب في الجماعة التي تطالب بقتل الموقوف حالًا، وأتوقع أن يثبت الخطيب فساد التهمة بقوله إن الماريشال المتهم هو من مهندسي تلك الحصون التي يباع رسمها لدى جميع باعة الكتب، غير أنني بهتّ وقد كنت شابًّا إذ أتت الخطبة على غير ما انتظرت، إذ تقدم الخطيب إلى المتهم وقال بصوت عالٍ: «سيأخذ العدل مجراه بلا هوادة، فدعوا حكومة الدفاع الوطني تتم تحقيقها، وسنسجن المتهم في تلك الأثناء»، هنالك هدأ ثائر الجماعة بهذه المراضاة الظاهرة فتفرقت، فلم يمضِ ربع ساعة حتى كان الماريشال في منزله، وقد كانت الجماعة الهائجة تمزق المريشال إربًا إربًا لو التجأ محاميه إلى الأدلة المنطقية التي كنت أظن، وأنا الشاب آنئذٍ، أنها تكون مقنعة لو خاطب الجماعة بها!

[←19]

انظر إلى كتبي الأخيرة: روح السياسة والآراء والمعتقدات والثورة الفرنسية.

[←20]

انظر إلى كتاب «الإنسان والمجتمعات» لمؤلفه غوستاف لو بون، جزء 2، ص 116، سنة 1881.

[←21]

يشاهد تأثير الألقاب والأوسمة والشارات في جماعات كل بلد، حتى في البلدان التي نمت مشاعر الاستقلال فيها نموًّا عظيمًا، وتراني أنقل عبارة طريفة من كتاب وضعه أحد السياح عن نفوذ بعض العظماء في إنكلترا وإليكها:

«أبصرت، غير مرة، ما يعتري أكثر الإنكليز عقلًا من نشوة خاصة عند اجتماعهم بشريف إنكليزي أو نظرهم إليه.

والإنكليز يحبونه مقدمًا إذا ما ناسبت حاله مقامه فيحتملون عند المقابلة كل شيء منه مفتونين، والإنكليز تحمرّ وجوههم فرحًا إذا ما دنا منهم، وهو إذا ما خاطبهم أوجب فرحهم زيادة احمرارهم والتماع عيونهم التماعًا غير عادي، ويمكن أن يقال إن اللوردية في دم الإنكليز كالرقص عند الإسباني والموسيقى عند الألماني والثورة عند الفرنسي، وميل الإنكليز إلى الخيل وإلى شكسبير أقل منه إلى الشرفاء، وما لديهم من اعتزاز بهما هو دون اعتزازهم بهؤلاء، وكتاب الشرف ذو رواج عظيم، وتجده في كل يد كما تجد التوراة مهما أغربت».

[←22]

كان الإمبراطور كثير الشعور بنفوذه فيزيد معاملته من حوله من الكبراء معاملة تليق بسواس الدواب، ومن أولئك الكبراء كثير من مشاهير رجال العهد الذين خافتهم أوروبا كثيرًا، وترى أحاديث ذلك العصر مشحونة بالأمور ذات المعنى من هذه الناحية، ومن ذلك أن نابليون انتهر بونيو في مجلس شورى الدولة ذات يوم فنعته بالخادم غير المهذب، فلما كان لهذا من الأثر ما كان دنا نابليون من بونيو وقال له: «والآن هل عاد إليك رشدك أيها الغبي؟»، وهنالك انحنى بونيو كثيرًا وهو الطويل كرئيس الطبالين، فرفع نابليون، وهو القصير، يده وأمسك بأذن بونيو الطويل «فكانت هذه علامة رضا مسكرة، كانت هذه حركة مألوفة من ذلك السيد عند تلطفه» كما قال بونيو ذلك، فأمثلة مثل تلك تدلنا على درجة ما يمكن أن يؤدي إليه النفوذ من الغلظة، وهي تفسر لنا عظم ازدراء ذلك الطاغية لمن هم حوله.

[←23]

نظرت جريدة نوفري برس الأجنبية التي تصدر في فيينا إلى مصير دولسبس فانتهت إلى تأملات نفسية صائبة إلى الغاية فأنقلها لهذا السبب، قالت تلك الجريدة:

«لا نجد ما يدعو إلى الحيرة في خاتمة كريستوف كولونبس المحزنة بعد أن حكم على فردينان دولسبس، فلو كان فردينان دولسبس مختلسًا لكان كل خيال نبيل جرمًا، ولو ظهر دولسبس في القرون الأولى لوضعت هذه القرون على رأسه تاجًا من الفخار ولسقته كأس رحيق بين الآلهة لما غير به وجه الأرض وأتى من الأعمال ما يكمل به الوجود، أجل، لقد خلد رئيس محكمة الاستئناف نفسه بحكمه على فردينان دولسبس، وذلك لأن الشعوب تسأل، دومًا، عن اسم الرجل الذي لم يخشَ أن يحط قدر عصره بوضعه خوذة المحكوم عليهم بالأشغال على رأس شيخ كانت حياته مجدًا لمعاصريه.

ألا فليكفوا بعد اليوم عن الكلام في العدل الثابت حيث يسود الحقد القرطاسي على أعمال الإقدام العظيمة، ألا إن الأمم محتاجة إلى هؤلاء الرجال المقاديم المؤمنين بأنفسهم والمذللين لجميع العوائق غير ناظرين إلى أشخاصهم، ألا إنه لا حذر مع العبقرية، والحذر لا يمكن توسيع نطاق النشاط البشري.

... لقد ذاق دولسبس خمرة النصر ومرارة الغرة، لقد أبصر السويس وبناما، وهنا يثور القلب على أدب الفوز، فلمّا وُفق دولسبس لوصل بحرين حيّاه الأمراء والأقوام، واليوم، حين حبط عمله أمام صخر كورديللر، عدّ لصًّا عاديًا... هنالك حرب بين طبقات المجتمع، وهنالك سخط من القرطاسيين والموظفين الذين ينتقمون بقانون العقوبات من كل من يودّ أن يسمو فوق الآخرين... وترى المشترعين المعاصرين حيارى أمام ما يصدر عن العبقرية البشرية من الأفكار العالية، وترى الجمهور أقل إدراكًا لها من أولئك، ومما يسهل على النائب العام أن يثبت أن ستانلي من القاتلين وأن دولسبس من الخادعين».

[←24]

هي غليظة من الناحية الفلسفية، وأما من الناحية العملية فقد أوجدت حضارة تامة الجدة أبصر الإنسان من خلالها في قرون طويلة تلك الجنات التي سحرت خياله وذلك الأمل الذي لن يعرفه بعد اليوم.

[←25]

تجد تفصيلًا لمختلف أنواع الجماعات في كتبي الأخيرة: روح السياسة والآراء والمعتقدات وروح الثورات.

[←26]

لنلاحظ هنا أن هذا التفريق الذي أتاه المحلفون بغريزتهم بين الجرائم المضرة بالمجتمع والجرائم الأخرى لا يخلو من صواب، ومع أن من الواجب أن تهدف قوانين العقوبات إلى حماية المجتمع من المجرمين، لا إلى الانتقام له، تجد قوانيننا ونفوس قضاتنا لا تزال مشبعة من روح الانتقام التي كانت سائدة للحقوق الفطرية، وترى كلمة الانتقام دارجة على الألسنة، ودليلنا على تلك الروح في القضاة ما نبصره من امتناعهم عن تطبيق قانون بيرانجه الرائع الذي يسمح بالحكم مع وقف التنفيذ ما لم يرجع المحكوم عليه إلى الإجرام، والواقع أنك لا ترى قاضيًا يجهل أن فرض العقوبة الأولى يؤدي إلى عودة المحكوم عليه إلى الإجرام حتمًا كما يدل عليه الإحصاء، وإنما يخيل إلى القاضي أنّه لا يكون قد انتقم للمجتمع إذا ما خلى سبيل المتهم فتراه يفضل إيجاد أناس من ذوي السوابق الخطرين على ألّا ينتقم للمجتمع.

[←27]

حقًّا إن القضاء هو السُلطة الوحيدة التي لا تخضع أعمالها لأية رقابة، وما اشتعل في فرنسا الديموقراطية من ثورات فلم يمنحها مثل حق تخلية السبيل الذي تباهي به إنكلترا، نعم، إننا أقصينا الطغاة عنا، غير أن القاضي في كل مدينة يتصرف في شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء، ومن ذلك ترى أن قويضي التحقيق، الذي لم يكد يخرج من مدرسة الحقوق، يتمتع بسلطة عاتية يستطيع أن يسجن بها أكابر القوم لأدنى شبهة، وهو يستطيع بهذه السلطة أن يبقيهم في السجن ستة أشهر أو سنة كاملة بحجة التحقيق، ثمّ أن يخلي سبيلهم من غير تعويض أو اعتذار، ويعدّل أمر الإحضار الراهن كتاب الختم في العهد السابق مع الفارق القائل إن كتاب الختم، الذي يُلام عليه النظام الملكي السابق بحق، لم يكن في غير متناول أكابر الناس وإن أمر الإحضار أصبح قبضة طبقة من أبناء الوطن بعيدة من الثقافة والاستقلال.

[←28]

يتألف من اللجان أشد ما في سلطان الجماعات من خطر مرهوب، والجماعات هي، بالحقيقة، أكثر ما يكون عدم شخصية، وهي أعظم وجوه الطغيان استبدادًا، والزعماء الذين يوجهون اللجان إذ يتكلمون ويسيرون باسم زمرة تجدهم طليقين من كل مسؤولية فيبيحون لأنفسهم كل شيء، وما كان ليدور في خلد أقسى الطغاة أن يصدر مثلما تصدره اللجان الثورية من أوامر السجن والقتل، ومن قول باراس إنها قتلت واحدًا من كل عشرة في مجلس العهد مقطعة أوصال هذا المجلس تقطيعًا منظمًا، وظل روبسبير سيدًا مطلقًا ما استطاع أن يتكلم باسمها، فلما انفصل عنها هذا الجبار المرهوب، عن عجب، كان ذلك نذير هلاكه، والحق أن حكم الجماعات هو حكم اللجان، ومن ثمّ حكم الزعماء، ولا يعرف الإنسان استبدادًا أشد منه.

[←29]

لا مراء في أن ملاحظة أحد أعضاء البرلمان الإنكليزي الآتية تطبق على تلك الآراء المقررة سابقًا فتغدو ثابتة بفعل الضرورات الانتخابية، قال ذلك العضو القديم: «تراني في الخمسين سنة التي قضيتها في وستمنستر قد سمعت ألوف الخطب فيغيّر القليل منها رأيي، ولكن واحدة منها لم تغير صوتي».

[←30]
عرضت مجلة الإيكونوميست (الاقتصادي) في عددها الصادر في 6 أبريل سنة 1895 عرضًا طريفًا مقدار ما تكلفه النفقات ذات النفع الانتخابي الخالص، ولا سيما نفقات الخطوط الحديدية، فذكرت أن ربط قرية لانغاي، التي يسكنها 3000 شخص والتي تجثم على جبل، ببوي يكلف الدولة 15 مليون فرنك، وأن ربط قرية أوس التي يسكنها 523 شخصًا في قرية سيكس التي يسكنها 1200 شخص يكلف الدولة سبعة ملايين فرنك، وأن ربط براد بقرية أوليت التي يسكنها 747 شخصًا يكلف الدولة ستة ملايين فرنك، مع عطل هذه الخطوط من أية فائدة للمصلحة العامة، وهنالك من النفقات التي أملتها مقتضيات الانتخاب ما لا يقل عن تلك أهمية، ومن ذلك أن قانون تقاعد العمال سيكلف الدولة في كل سنة ما لا يقل عن 165 مليون فرنك على حسب تقدير وزير المالية و800 مليون فرنك على حسب تقدير عضو الأكاديمية لروا بوليو، فالاستمرار على زيادة مثل هذه النفقات يؤدي إلى الإفلاس حتمًا، وإلى مرحلة الإفلاس وصل كثير من البلاد الأوروبية كبلاد البرتغال واليونان وإسبانيا وتركيا، وكادت بلاد أوروبية أخرى تنتهي إلى مثل ذلك، وهل في هذا ما يدعو إلى الاهتمام وقد رضي الجمهور بالتدريج، غير معترض، بحذف أربعة أخماس الفوائد التي يجب على مختلف البلاد أن يدفعها؟ ومن شأن هذه الإفلاسات الوثيقة إعادة التوازن إلى ميزانياتها مؤقتًا، وترى الحروب والاشتراكية والمنازعات الاقتصادية تهيئنا إلى مصائب كثيرة أخرى، فعلينا أن نرضى في دور الانحلال العام الذي دخلناه بالعيش يومًا فيومًا غير مبالين كثيرًا بالغد الذي يتفلت منا.